رغد السهيل

أحببتُ حماراً....

رواية

مستقبل الرواية يعتمد على المدى الذي يمكن فيه تعليم الرجـال على تحـمل الخطاب الحـر لدى النساء .

فيرجينا وولف

واحسرتاه على ما أصاب لكش وكنوزها
ما أشد ما يعاني الأطفال من بؤس
أي مدينتي متى تستبدلين بوحشتك أنسا . . .

من القصائد السومرية

أحببتُ حمارًا ، . . هذا ما قلته للّجنة التحقيقية ، وما أكدته لهم في مشفى الأمراض العقلية أيضًا ، وهو كل الحقيقة . لم أكذب لكن . . !

لنعد إلى البداية . . استيقظت فجرًا مذعورة على صراخ وعويل ، راقبت ما يحدث من النافذة ، فرأيت القوم يرفعون جثته ، و تقطرُ منها قطرات تروي الثرى ، بينما يقف حماره بعيدًا عن الجمع عند مفترق الطريق ، يتأمل في الوجوه ، يهيض رأسه بانكسار ، ويركل التراب بحافريه الأماميين ، بعدها سمعت صوتًا مرتفعًا عميقًا ، كأنه نداء استغاثة آدمي محشور في كهف ، تكاد تطبق الجدران عليه ، لم أميز ساعتها أكانت روح المرحوم هي التي تئن ، أم حماره؟ لكن الصوت لم يكن نهيقا بقدر ما يشبه الأنين ذا الأمواج الصوتية طويلة المدى ، كان الأنين متقطعًا يرتفع تارة وينخفض طورًا ، لترتفع معه بضع غيوم رمادية تغلف سماء بغداد ، ثم تنهمر قطرات حمراء لدقائق ، لم ينتبه أحد لها ، تصور الجميع أن تلك دماء المغدور ، وحين انتهى المشهد تواصلت الحياة في منطقتنا كأن شيئًا لم يحدث ، رغم ما حدث قديمًا ، وسيحدث دائمًا . .

ذهب زكي بائع الخضار والفواكه لجلب بضاعته مبكرًا ، ليرتبها في بسطته مثل كل يوم ، كان وحيدًا ، ولم يصطحب حماره معه هذه المرة ، أخبر زوجته أن الحمار متعب من شدة العمل ، ويريد أن يريحه قليلاً ، لذا سيجلب بضاعته وحده ، بعد أن يستقل سيارة يحملها بما يريد ، وما إن قطع الشارع حتى أصابته ثلاث رصاصات ، استقرت اثنتان في قلبه وواحدة في رأسه ، حدث هذا أمام نظر حماره عام ٢٠٠٦ ، واكتسب المغدور اسمًا جديدًا هو الرقم ٩ ، في شارعنا ، الذي أطلقنا عليه لاحقًا مثلث الموت . هدأت المنطقة بعد دفنه ، وتساءل الجميع عن صاحب الرقم التالي . . . .

تدب مخلوقات على الأرض دبيبًا ، تهيم عشقًا بظلها ، كلٌ يصيح : أنا المركز ، على القوم الدوران حولي ، وكلٌ صدّق دعواه ، وقدّم فتواه ، دارت فتاواهم فوق رؤوسهم ، عبرت أفلاك الأزمنة ، ما زالت تتصادم مع بعضها ، تتداخل لا تتكسر ، تتوسع الدوائر ، تحملها الأبواق البالية الصُّفر ، تنقلها من أُذن إلى أُذن ، حتى خرجت لهم خنفساء سوداء عرجاء وقالت : ما بالكم يا قوم؟ كعبة الله واحدة في مكة ، ليس سواها مركز! . .

هذا ما قالته الحسناء التي طرقت يومها بابي ، كانت كفلقة البدر ، بيضاء تبرق كلؤلؤة في محارتها ، هيفاء القامة ، ينسدل شعرها الفاحم المتموج على طول قامتها ، تضع فوق جبينها

زمردة كبيرة ، ويحيط عنقها عقد من المرجان والياقوت ، تصل خيوطه لمنتصف صدرها ، ويتدلى من أُذنيها قرط ذهبي مزين بأحجار ملونة ، وفي سبابة يدها اليسرى خاتم كبير مستطيل الشكل ، محفور عليه رسم لنخلة طويلة ذات عذوق ، وفي سبابة يدها اليُمنى خاتم ذهبي ، نقشت عليه صورة الملكة شبعاد بتاجها المميز ، كانت ترتدي ثوبها الهاشمي ، الأسود الموشى بخيوط ذهبية ، وعندما فتحت لها الباب أشارت نحوي وقالت : لا تجزعي . . أنا الخاتون .

لم تمنحني الوقت لأجيبها أو لأستفسر منها ، استدارت ، وغابت سريعًا ، ولأن يومي كان متعبًا ، سرعان ما غلبني الكرى فوسنت . .!

(١)

فَتح البركان أبوابه ، أقبلت الصاعقة ، ورماد ثماني ورقات ، ثم ورقتين خضراوين ، عاد الرماد بعشر ، كلها تفسخت ، تركتُ بعدها الحساب ، أكره الحساب منذ الطفولة ، أخاف درس الحساب ، أبكي في امتحانه ، لم يكن حساب ورقات ، إنّما حمامات تطير ، لم تكن حمامات ، كانت عصافير بلا ريش ، لم تكن عصافير بل كانت حممًا ، تبا للغة تجمع الحروف نفسها . يدور المعنى حولي ، كما يدور اسمي مع حروف الألم ، ماذا يريد المعنى؟ شظايا جهنم رحم ينجب الشياطين ، يوم طويل ، لا ليل فيه ولا نهار ، اللحظة رمادية ، والحكايا متشعبة ، متشظية ، تتوالد ، تتناسخ ، تتكرر كل لحظة في أرض السواد ، سواد لايموت ، سواد الثياب والأحلام و الطريق و اللافتة و الدم ولحن السواد ، الفاختة المقطعة ، والنوارس المهاجرة لا موسم لها ، وكل المواسم لها ، العش المفقود ، هل بقي عش؟ لا لم يبق ، بل هناك أعشاش ، أعشاش متحركة ، لم تجد شجرة تنام عليها ، اختارت أرصفة شوارع بغداد ، وبابا نوئيل العراقي يغني أغنية حبه العريقة ، أما حمار المرحوم زكي فقد اختفى ، لم يره

أحد بعد مقتل صاحبه ، لكنني رأيته أكثر من مرة ، وأحببته بصدق ، نعم أحببت حمارًا ، واستغرقت وقتًا حتى أعترف بهذا الحب لنفسي ، بعدما وجدتني أفكر فيه ليلاً ونهارًا ، هل ثمة أمر فيه منطق لتصنف أنتَ الأشياء بمنطق أو خارج المنطق؟! هل حقًا أنا هنا؟!

أيها القارىء توقف عن الضحك رجاءً . . لا تستهجن العبارة ، وهل لديك ما تستهجنه؟! رغم أنني استهجنت ما قرأته في الملف ، إنها قصة أو رواية أو حدث ما ، لم يحدث وربما حدث على هذه الصفحات ، لا أعرف إلى الآن الشكل الفني ، ربما سيشبه شكل بغداد الحديث ، سأواصل السرد ، عليك التركيز لتكتشف بؤرة المركز ، وربما نقض المركز ، خارج الفحولة ، داخل القطب البارد ، إحمل معطفك لنجوب معًا في الأماكن ، ربما أهذي أحيانا ، فأخرج عن النص ، كما خرجت عن القطيع ، أي نص وأي قطيع؟ لم أقرر بعد ، ربما القطيع الذي ينتعل الأحذية المجنحة والألبسة البالونية مُدعمة بالنظارات الرمادية ذات المراوح ، إنه فعل الحب يا صديقي ، ومذهب الحب يتغيّر كما تتغير كل الأشياء ، وفي العراق له لونه الخاص ، يتغيّر ، يتلون ، ويبقى فسيفساءً ، في التغيّر حركة ، وفي الحركة حياة ، تدور ، تلتف ، لتختنق العاشقة ، لم تعد العاشقة فراشة ، غاندي العظيم علمني ، في البداية يتجاهلونك ، ثم يستخفون بك ، ثم يحاربونك ، ثم تنتصر ، لست في معركة ، لأبحث عن نصر ، كل

معركة خسارة ، هنا نبض الموت ، وبذور موت للغد ، وتبقى حكايتنا تكرر نفسها منذ بدء الخليقة .

لنعد إلى الحمار ، إنه حمارٌ ناصع البياض مدلل أصيل ، له مميزاته ، وطهارته الروحية والجسدية ، كان صاحبه المرحوم ينظفه كل يوم ، ويعطره بأطيب أنواع البخور ، أقبل زكي في يوم ليحمل لي الخضار ، فرأيت حماره متوشحًا بكوفية ملونة بالورود ، ضحكت حينها عندما أخبرني أنه يحبه ويخاف عليه كثيرًا كما يخاف على أولاده ، وهذه البلاد لا أمان للبشر فيها فكيف بالحمير؟ وبعد مقتل زكي ، فرّ حماره ، واضطرت زوجته إلى قبول الزواج من أخيه لتؤمن لأولادها المتخلفين عقليًا الدواء الباهظ الثمن ، هكذا تصورت هي ، لكن زوجها الثاني رمى بأولادها في مشفى الأمراض العقلية ، ثم قامت هي بقتله بالسكين لا أعلم لِمَ؟ لكنها دخلت السجن ، رأيت صورتها في صحيفة حقوق الكادحين ، في ظل تلك المأساة من سيفكر بمصير أبناء زكي أو حماره المدلل؟!

ذات يوم وبينما كنت في الطريق أجلب الخضار ، دوى انفجار بالقرب من مدرسة ابتدائية ، فخرج الصغار إلى الشارع مذعورين صارخين ، فلمحت الحمار صدفة ، كان يقف في ركن قصي خلف المدرسة ، وقد تجمع الصغار حوله بشكل دائري ، كان يضع الكوفيّة ذاتها التي ألبسها له المرحوم حول رقبته ، وما يزال محافظًا على نظافته وجماله ، صفق له الصغار

متجاوزين خوفهم وذعرهم ، وإذا به يرفع حافره ويدب به على الأرض ثم يعيد الكَرّة مع حافره الآخر ، فيرتفع صوت ضحك الصغار ، بقيت أراقب ، فلاحظت كيف تحرّكت أذناه يمينًا ويسارًا وهم يرفعون من أصوات مرحهم ، بل إن أحدهم حاول تقليد حركته وصوته ، وهو يغرق في الضحك ، أدار الحمار رأسه في كل الاتجاهات ، وتساءلت ما الذي يفعله أتراه يرقص لهم؟! بالتأكيد هو سمع دوي الانفجار والرصاص ، ويعي تماما النتائج المترتبة على هذا ، حتى سمعت أحد الصغار يقول لصاحبه : إنه حمار المرحوم عمو زكي . . فإذا به ينهق نهيقًا عميقًا ، ذكرني بذاك النهيق الذي سمعته يوم قُتل صاحبه . . سرعان ما تحرك ، وغادر الصغار ، ومن دون وعي مني وجدتني أركض خلفه ، كنت أركض وهو يركض ، لم أعرف لماذا؟ ربما أشفقت عليه ، لكنني لم أستطع اللحاق به ؛ لأنه اختفى ، وبقيت صورته وهو يركض في خيالي . .

هكذا بدأت قصتي مع الحمار ، أنا ابنة هذه البلاد العجيبة ، ولا أحد قادر على تجاوز حكايتي تحت أي سبب أو ذريعة ، لا أحد يستطيع فصلي عن بنات حواء بذريعة حب الحمار! النظرية النسوية الحديثة تقول إذا انشققت عن الجماعة لا يعني أنك لست منها ، عليك أن تجد من هو مثلك لتصنع لغة خاصة ، بعيدًا عن الخنوع ، في حب الحمار كنت وحدي ، لكنني لست وحدي ؛ لأنك تقرأ ، وإذا اقتنعت أرجو منك

مساعدتي والبحث معي ، صديقي بابا نوئيل العراقي رافقني حتى الشوط الأخير ، لم يجادلني مطلقًا ، دافع عني بما امتلك من حجر رماه على الذين نعتوني بالمخبولة ، ابتسم لي أيضا ، وربت على رأسي ، لم يهزأ مني ؛ لأنه تقبل لغتي الجديدة ، واحترم مشاعري! .

لكن بابا نوئيل اختفى أيضًا ، ربما لأن الأطفال سخروا منه ، فهو لم يجلب لهم الهدايا يومًا ، غاب وابتلع دموعه في جوفه ، بالتأكيد كانت دمعة منها لي ، كان حساسًا رقيقًا يعرف حكايتي ، بكى لأجلي أو لأجل بناته ، لا أعرف بالضبط سوى أنه بكى وغاب ، شأنه شأن كل الباكين في العراق ، واختفى حماري أيضًا ، أو حمار المرحوم زكي لا فرق ، قُتل زكي ، وأنا ما زلت على قيد الحياة ، حتى هذه اللحظة لم أحصل على اسم جديد ، عفوا أقصد رقمًا ، لذا فهو اليوم حماري ، لم يفكر به أحد بعد صاحبه سواي ، وأنا ما زلت أرفع العلم ، علم الطفل تمام ، علم الكل ، وأنا الأجزاء الممزقة ، الأجزاء المتداخلة مع بعضها بين حكايات دائرية متقاطعة ومتفرعة أيضا ، نحن الأكثرية وتسودنا الأقلية ، ليس هذا فحسب بل تمادوا وغيروا اسم هذه البلاد مختطفين أنوثتها التي تحملت الكثير من حماقاتهم ، لتبكي العراقية منذ ذلك اليوم بكاءً لم ينقطع ، وتئن أنينًا يشبه أنين حماري المفقود ، أليس هذا التزامن بحد ذاته مصادفة عجيبة؟!

لذا سأنتظر عودة حماري لأتجول على ظهره رافعة العلم ، وأعلن للأقلية أنها الجمهورية العراقية ، عودوا لمواضعكم الحقيقية ، لعل البكاء يموت! .

عندما تعرف مزايا حماري ستحبه ، ولعلي سأشعر بالغيرة لو فضلك عليّ . . لكنه لن يخون العهد ، فمن ميزاته أنه يغار على إناثه ، تلك صفة طبيعية في الحمير البرية ، فهي تدفع بقية الحمير خارج القطيع ، سأجده وسنقدم معًا أعمالاً عظيمة لهذه البلاد ، سنعود نبني عشًا على الأشجار لكل الطيور المُهَجّرة ، سيحمل هو الأعواد على ظهره الرشيق ، سأتسلق أنا الشجر لأجمع العود مع العود ، وأبني عشًا فوق نخلة ، نخلة غنية بعذوقها المتدلية ، سأختارها من تلك النخلات التي تعطي تمر البرحي ، هل تحبه أيها القارئ؟ أنا أحب مذاق البرحي ، أخشى ألاّ أجد تلك النخلة ، فالنخلات في بلادي من نوع البلاستيك المعاد تصنيعه ، استوردوها خصيصًا لأرض السواد ، يقولون إنها ذات مواصفات عالية ، اليوم أنا لا أتقبلها ربما لاحقًا سأعتادها ثم سأحبها ، لكني واثقة من إخلاص الحمار لي ، فطالما جاء مع المرحوم زكي ليحمل لي الخضار على ظهره ، كنت أسقيه الماء ، بناءً على طلب صاحبه ، الذي كان يتعطف عليه كثيرًا ، حتى تعوّدت أن أسقيه دائمًا قبل أن يطلب صاحبه مني ، لذا أنا واثقة من وفائه ، وسيجدّ هو في البحث عن نخلة حقيقية لي ، وعليك أنت أن تحفظ حقوق

أصالة العمل ، فربما نطير بواسطة مركبة فضائية خاصة باتجاه القمر ، لا عبر وسائلهم التي لم تقنعني ، شخصيًا أختلف معهم في استراتيجية الطيران لا الفكرة ؛ لأنني أريد اصطحاب بابا نوئيل والحمار ، وأخشى أن نتيه في القمر لو انتعلنا أحذيتهم المجنحة ، المركبة الفضائية وحدها تجمعنا داخلها فلا نتيه في مجرة التبّان ، وأنت عزيزي القارىء إذا رغبت بالطيران معنا سأصحبك ، ألم أقل لك ، المركبة الفضائية أفضل لجمعنا؟ . .

. . أن تمشي النساء على القمر فكرة عظيمة ، تشبه خطوة آدم في سرنديب ، لكني لا أعرف إن كان من ضمن اختصاصات تلك اللجنة جلب مركبة فضائية لي ، أو على الأقل مساعدتي في العثور على حماري؟ .

تبا للمذيع ، كان عليه أن يذكر تفاصيل أكثر . . إنه يعيد الخبر نفسه منذ أن اقترب موعد الانتخابات البرلمانية :

(نسترعي انتباهكم لما سنذيعه عليكم لاحقًا ، مما سيردنا من قرارات اجتماع اللجنة العليا لمشروع طيران النساء نحو القمر ، لتحقيق الإنجاز العظيم للمرأة العراقية في العصر الديمقراطي) . . .

سأصِرُّ على اصطحاب حماري الأنيق بكوفيته الملونة ، صاحب الأذنين الطويلتين ، أحب التناسق بين الأذن الطويلة وطول القامة ، ففي الطول هيبة وعز ودلال وبعد استراتيجي

أيضا .! .وهذا هو المهم في أية قضية أو مشروع ، لكن حبيبي الأول أهمل ذلك . .

حبيبي الأول كان طويل القامة ، أذناه معوقتان ، إحداهما من البلاستيك والأخرى قصيرة ، لم تكونا متناسقتين مع طوله الفارع ، كم طلبت منه أن يجد حلاً لهذا الخلل الفني ، لأحبه أكثر ، نصحته أن يستأصلهما لأجلي ويزرع بدلاً عنهما أذنين أكبر أو أطول ، لكنه نزع جلده وسافر ليساعد ضحايا المجاعة في الصومال مع الهلال الأحمر الدولي ، وعندما عاد صار يبكي دائمًا ضحايا التسونامي الأخير ، ويفكر كثيرًا بقضية اختطاف الفتيات النيجيريات من قبل منظمة إرهابية ، كان شديد الثقافة وواسع الفكر ، وعلى درجة عالية من الحساسية ، لكنه بلا استراتيجية واضحة في الإصغاء ، فأذناه تلتقطان الأصوات البعيدة فقط ، وعندما أقبل عليّ سعيدًا باستقالة رئيس الوزراء الكوري بعد غرق العَبّارة الكورية في البحر ، أخبرته بحزني لاغتيال المسكين زكي ، لم يهتم ، لم يبالِ بالقضية ، واصل سرد أخباره عن المدى البعيد ، لم أحتمل بروده حتى انفجرت بوجهه وقلت له لا أريدك بعد اليوم ، لم تعد حبيبي ؛ لأنني لم أعد أتقبله ، فقد خذلني بإصراره على عدم مراجعة اختصاصي بعلاج الآذان ، فما نفع كل ثقافته ومؤلفاته إن لم تصنع منه إنسانا حقيقيًا صاحب آذان ذات حساسية لاقطة للقريب أولاً ثم للبعيد ، من باب (الأقربون) أولى بالإصغاء ، كما أنني لا

أتقبل مطلقا البشر الذين ينزعون جلودهم الأصلية ليلتصقوا بجلد آخر لا يمت لهم بصلة ، فعندما خلعت لطيفة جلدها أرادت تحديثه لا استبداله ، فالعالم حولها كان حديثا وأرادت هي مواكبة تلك الحداثة ، شخصيًا أفضّل أصالة الأشياء والبشر ، لذا هجرت حبيبي الأول ، وجففت كل ينابيع الحب ، فحتى يستمر قلبي في الحب لابد أن يتميز حبيبي بأذنين طويلتين توازيان طول قامته الفكرية ، مع احتفاظه بجلده الأصلي ، كما عليه أن يعرف كيف يعيدني لبيتي بهدوء عندما أخرج للقائه أيضًا ، فدائمًا آتيه ولا أجد بيتي ، ماذا عنك أيها القارئ؟!

ومن أهم مزايا حماري ، أنه صاحب جلد أبيض أصيل لا يستبدله ، وله أذنان ذواتا قدرة أُنموذجية على التقاط أصواتي الداخلية ، فيخف حملي ، وتستقيم قامتي ، وأحقق التوازن العاطفي المنشود ، ثم أنفش ريشي كدجاجة جميلة وأنا أسير قربه ، قطعًا سأكون أجمل الدجاجات المنفوشات ، ماذا عساني أفعل برجل طويل القامة ، أذناه معوقتان ، كلما خرجت معه لأتجول في بغداد تهت في الطريق ، وتعثرت بالحفريات ، وأزعجني طنين الذباب المتكاثر ، ومزق أذني نعيق الغربان ، رجل يفكر كثيرًا بمشكلة كرواتيا وجزيرة القرم ، لا يمنحني سعادة نفش الريش؟ أدري أنها معادلة يصعب عليكم فهمها . . . ربما أنا معقدة من جراء حكايات جدتي بَسْعاد ،

منذ أن حكت لي عن ذلك الغول الذي استأصل آذان الرجال في بغداد . . .

أقبل الغول يوما على بغداد ، كانت له ثماني عيون ، أربع منها في وجهه ، وأربع أخرى خلف رأسه ، وإذا ما نام واستغرق في الحلم فتح عينين ، واحدة من الأمام وأخرى من الخلف ، كان يسير في نومه أحيانا ويمارس هوايته المفضلة في التهام آذان الرجال ، فالتهم كثيرًا منها ، حتى نبتت له آذان كثيرة توزعت على جسده ، من يومها صار الذكور يولدون إما بآذان قصيرة جدًا أو بآذان صمعاء أي ملتصقة برؤوسهم أو من البلاستيك ؛ لأنه قام بالتهام آذان الأجنة أيضا ، هكذا قالت جدتي ولم تشرح لي أكثر ، ولأنها كانت مصابة بداء الزهايمر المبكر منذ شبابها ، شككت في كل حكاياتها ، ولم آخذها على محمل الجد ، لكنني عندما لمحت اليوم بعض النخلات البلاستيكية في بغداد صدقتها ، لعلها تعود لنوع الطفرة الوراثية نفسها التي حولت آذان بعض الرجال إلى البلاستيك في بلاد الرافدين ، وانتقلت هذه الطفرة من جيل لآخر ، و سببت أيضًا العدوى لأشجار النخيل عندما استند عليها هؤلاء الرجال وهم يلعبون لعبة القط والفأر مع الغول في الجنوب العراقي ، هنا مأزق علمي فالطفرات الوراثية لا تسبب العدوى بين الكائنات ، هي ليست مرضًا ينتقل باللمس أو التنفس ، إنها مجرد تغير ببعض مكونات المادة الوراثية ، ذلك ما يعرف بحمض الـــ دنا

(DNA) ، في كل الأحوال كان الرجال يومها على تماس مباشر مع النخيل والقصب والحشائش هناك ، ثم ذهبوا ليتسابقوا في السباحة في الأهوار مقطوعي الآذان ، لكن العلم يتطور فقد نكتشف يومًا كيف انتقلت عدوى الإصابة البلاستيكة من آذان الرجال إلى كل تلك الحشائش والأشجار! تمامًا كما اكتشفوا اليوم طريقة طيران النساء للقمر عبر ألبسة خاصة! .

كان الغول أسودَ ، وله خرطوم طويل يبتلع كل من يحاول لمسه ، وابتلع الأهوار أيضًا ، سحبها مرة واحدة عبر خرطومه الطويل ، لاسيما أنه كان مصابا بلوثة عقلية تعلن عن نفسها كل يوم فيه ريح ، فيتوهم أنه الخليفة العباسي الموفق ويواجه ثورة الزنج ، فوضع الريشة على رأسه ، ثم سحب تلك الأهوار مرة واحدة ، وأعلن انتصاره الميمون بالقضاء التام على أصحاب ثورة الزنج وقتها ، رغم أنهم حاولوا القضاء عليه بالمكوار ، لكن خرطومه كان الأسرع بابتلاعهم مع الأهوار ، لذا ابتلع هو من ابتلع ، ومن هرب بقي يعاني من حالة الرعب من ظله ، أو الدوران حول نفسه ، وقتل أحدهم ظله بالسكين للخلاص منه فجن عندما سار بلا ظل ، وهاجر كثيرون وفقدوا الذاكرة ، ولم يتعلموا من درس الغول كيفية حماية أنفسهم من التقلبات الجوية ، فكلما تغير الطقس العام ظهر غول جديد ، يحمل اللوثة العقلية نفسها التي للقديم ، هكذا حدثتني جدتي متنبئة بأن تلك الأهوار ستموت وتختفي منها البجعات السيبيريات ،

والطوطوات والدراج أيضًا ، ولست أعرف بالضبط إن تحققت نبوءتها أم لا؟ لأنني لم أزر تلك المنطقة يومًا ، فأنا أخاف التجول في بلادي ، يالها من مفارقة ، أعرف شوارع ومناطق في بلدان أخرى أكثر مما أعرفه هنا ، فوصية جدتي لي كانت ألا أتجول كثيرًا في بلادي خشية أن يصطادني غول جديد لا أعرفه ، لكنه في طور النمو ، وقالت لي على النساء الحذر يا ابنتي دائما خصوصًا عندما يتجولن في بلادهن ، في كل الأحوال تلك حكايات جدتي ، جدتي بَسْعاد ، هل حقًا قالت؟ لست أدري ، لكنها كانت خرساء منذ الولادة ، تزوجها جدي ، لأنها جميلة للغاية جذبت قلبه عندما لمح طولها المهيب ، وعندما عرف أنها خرساء زاد تصميمه على خطبتها ، فهو لا يحب ثرثرة النساء وصداعهن ، لذا وقف بقوة ضد رأي أمه المعارضه لزواجه منها ، فأمه كانت تخشى أن تنجب له أولادًا وبناتٍ خُرساً ، لكني ها أنا حفيدتها لست خرساء بل أهوى الشعوذة السردية ، هل قلت لك إن جدتي خرساء ، لا لم تكن كذلك ، قلت هذا فقط لأن صديقتي الحسناء إيزابيل اللندي عندما زرتُ ابنتها في مشفى مدينة الطب في بغداد نصحتني أن أتوجه نحو السرد كلما شعرت بخلل في المنطق ؛ لأننا نحن النساء لم تبق لنا إلاّ سلطة الثرثرة بعد الانقلاب الذي أحدثه الذكور علينا في المجتمعات الأمومية ، وأرتني اللندي ما كانت تخطه وهي تجلس عند ابنتها المريضة ، وعندما

سألتها عن الكيفية التي تكتب بها ، وأنا لا أملك مهارة السرد قالت لي : (الكتابة أشبه بالشعوذة لا يكفي أن تخرج الأرانب من القبعة إنما عليك أن تفعل هذا بأناقة) وعندما ودعتها وخرجت لاحظت أن رواد ذلك المشفى كن من النساء ، أينما وجهت وجهي رأيت امرأة مريضة بداء العصاب أو الزهايمر ، كان جدي رحمه الله رجلاً قويًا ، أذناه طويلتان وحقيقيتان ، ولم تكونا من البلاستيك ، ولأنه كان من قيادات ثورة العشرين في العراق ، كانت جدتي بسعاد تنفش ريشها على رفيقاتها دائمًا ، وتحبه كثيرًا فهو الذي رعاها وجلب لها المقويات الخاصة بالأعصاب والأدوية المضادة للزهايمر ، لذا قاومت جدتي مرضها طويلاً ، فما بال هؤلاء النسوة ، أليس من يساعدهن في الحصول على الأدوية المطلوبة؟! ، وما بالي لا أستطيع نفش ريشي مثل جدتي ، فأنا كأي دجاجة أحب نفش الريش .؟! .

في كل الأحوال هناك دائمًا في العراق قصة بلاستيك وغول ، غول يتغير لون جلده بناءً على نوع الملوثات في الجو ، ودائمًا تصل تلك الملوثات من الجيران بسبب الرياح والأتربة ، أو ينثرها غرباء عن البلاد بدعم من ضعاف النفوس ، لتكون عاملاً مساعدًا في ظهور غول جديد ، ليمنحهم لاحقًا كثيرًا من الأموال تعبيرًا عن شكره لمساندتهم له ، والغول الجديد إن ضربته ضربة واحدة لن يموت ، وإنما يشتد عوده ، ويجدد جلده ، ويطول خرطومه أكثر مع كل ضربة ، ليسلم دوره لمن بعده ،

هكذا بقينا نحن مسرحًا لأنواع مختلفة من الغيلان ، غيلان تمارس الانتخاب الطبيعي فتطور نفسها ، بصورة تتلاءم مع بيئتها ، فالبقاء للأقوى ، وجميعهم كانوا يكرهون النخيل فيقطعون رؤوسها ، كما يقطعون آذان غالبية الرجال بطرق تشبه التقطيع الفني في السرد الحديث ، حتى فقد الكثيرون القدرة على الإصغاء قريب المدى ، وأصبحوا أشبه بدمى متحركة بأزرار يتم التحكم بها عن بعد ، لذا يجب علينا نحن النساء أن نتعلم ممارسة الانتخاب الطبيعي أيضًا ، لنخلق لغتنا وفكرنا الخاص ، لاسيما أن الغيلان تستغل كثرتنا العددية لتحقيق غاياتها ، لنمثل نحن المسارح الحقيقية التي يقدمون فوقها أدوارهم الاستعراضية دائمًا!

مع هذا امتلكت الجرأة على الاعتراف لنفسي بحب الحمار بالتدريج ، ولن أهتم لكل ما سيحدث ؛ لأني سأستمد قوتي منك ، ومن سواك أنت أيها القارىء ، لكن أرجوك لا تدقق كثيرًا كي لا تفتح مواجعي العتيقة ، ولا حتى تلك الجديدة ، أو القادمة ، فنحن جميعًا ندور في الدائرة نفسها ، دعني أعيش في الحدث السردي ، لاسيما أن لحماري خصائص كثيرة ستأتيك لاحقًا ، كما له أذنان نادرتان في الطول تشبه أذني جدي رحمه الله ، جدي الذي أحبته جدتي بَسْعاد كثيرًا ، هو الذي حمل الأدوية المضادة للزهايمر لجدتي رحمهما الله ، ترى هل هناك حقًا أدوية مضادة للزهايمر؟! . .

كانت لحظة الإحساس الأول بحبي للحمار عندما رأيته للمرة الثانية بعد فراره ، فرماني بسهم كيوبيد ، طار السهم الذهبي في السماء في خط مستقيم ، ثم هبط بشكل عمودي واتجه مباشرة نحو قلبي ، رغم وجود فتيات أخريات ، لكنه اختارني من دونهن ، ربما لأني صورة من زمنه الجميل ، وربما لأنه يعرف أنني سأرعاه مثل صاحبه المرحوم ، كنت أرتدي يومها ثوبًا أصفرَ مشعًا ، وهو يضع كوفيته الجميلة حول رقبته ، كان يقف قرب نخلة خضراء من البلاستيك ، بدونا شبيهين بإشارة المرور المُشعّة من شدّة التيار الكهربائي ، وللحب كهربائيته الخاصة ، بعيدًا عن جشع أهل المولدات في بغداد ، وكيمياؤه وتفاعلاته الغريبة ، وشحناته المضيئة أيضا ، انظروا إلى كل المحبين ، دائمًا وجوههم أشبه بالشمس ، التفتَ حماري حينها إليّ ، بالتأكيد عرفني وتذكرني ، لم أشأ إثارة مواجعه بالحديث عن المرحوم ، بدا لي مرتاحًا ، سمعتُ حينها منه أرق غزل في حياتي ، غزلٌ قرأته في عينيه نورًا وهيامًا وصدقًا .!

وتبادلنا الذكرى الوفية بالنظرات بلا كلمات ، كان هذا عندما تكدست السيارات فوق بعضها ، مثل قطع السمك في علبة سردين أمام نقطة تفتيش ، لم يكن هناك أي نظام في وقوفها ، مجرد طوابير مصطفة ، متداخلة مع بعضها ، كانت كثيرة جدًا ، وساكنة سكون الأموات ، في شارع القادسية الضيق في قلب بغداد ، أرجو أن تركز أيها القارىء قلت لك

شارع القادسية فلِمَ أسمعك تقول معركة القادسية؟ تلك معركة دفعنا تعويضاتها سابقًا ، ولنا اليوم بطولات جديدة ، كل يوم ننجبُ معركة ، نمتلك عائلة عظيمة منها ، فنحن قوم نعشق المعارك التي تمنحنا كرامة وفخرًا ، ويجب عليك التمييز بين معاركنا وتسلسلها الوراثي ، فلكل معركة أم وأب وأحفاد من الرجال والنساء ، ونفتخر بمعاركنا جميعها ؛ لأن كلها فوق رؤوسنا ، نحن ، ولا تكون على الجوانب مطلقًا ، لنعد إذن للشارع ، حينها نظرت في المرآة الجانبية ، بحثًا عن ملامح غائبة من وجهي ، حتى عبر انعكاس الملك أمامي بهدوء وتواضع نادرين ، التفتُّ نحوه فوجدت أن طول أذنيه غطى على تلك الطوابير للسيارات ، فأبعدت عني ذلك المنظر المزعج ، شعرت بسعادة ، كمن عادت إليه ملامح وجهه الضال ، إنه مخلص لأيامنا الخوالي ، لذا يحميني بأذنيه الطويلتين ، وهل أكثر من هذا دليل على الوفاء والاحترام؟ .

وعندما أصدر نهيقًا رأيت ذبابة تسقط صريعة ، كانت واقفة على أنفه ، فاصطاد بذلك ابتسامتي الهاربة مني ، وأعادها إلى شفتي ، الضجيج هنا لا يتلاءم مع رقة روحي ، والذباب يزعجني كثيرًا ، والبنايات المهدمة والمدمرة تنخر كالسوس في قلبي ، وكل يوم أسمع خبر زكي آخر ، وكل معوق أراه في الشارع أتخيله من أبناء زكي ، أنا مرهقة ومبعثرة ، وحده أعاد بسمتي إلى موضعها ، كنتُ أفتقد نفسي ولا أجدها

في أية فكرة ، والحبيب الذي يحتويك فكريًا وحده قادر على فعل هذه المعجزة ، وحده يعرف حجم معاناتي ، أعرف أنه يفهمني ، فهو يشتاق لصاحبه كما أشتاق أنا لصاحبتي شروق ، نعم شروق رفيقة العمر ، كنا معا منذ الطفولة وواصلنا دراستنا ، كم كانت محبة للمساعدة ، وكم شرحت لي ما صعب عليّ من الدرس ، ضحكاتنا ولهونا في حديقة الأمة ، ما زالت تصاحبني أينما حللت ، لكنها أيضًا توارت إلى الأبد ، كما أفتقد بغداد الجميلة التي أحبها ، لا أستطيع تقبل بغداد الجديدة ، هل قلت بغداد الجديدة ، نعم هي منطقة في بغداد لكنها ليست بجديدة ، قلت لكم إنني أمثل جزءاً من ماضي حماري الجميل ، ولأنني أفهم الأبعاد الفكرية للغته الخاصة ، تركت سيارتي وقلت له :

– أين اختفيت؟ انظر ما الذي يفعلونه بنا . .

رفع رأسه وبحلق في وجهي . . فواصلت . . كيف تتركني بهذا العالم؟ وصمتُ . . . آه ماذا أقول له بعد؟ . . .هل أقول تخيل لو فقدت صاحبك ، لا سيبكي وسيتذكر زكي . . إذن هل أقول له تخيل لو أنك تحب حمارة ، وكنت تعيش معها في بستان رائع وفجأة تغير كل شيء حولك ، فلا تجد حبيبتك ولا بستانك ، ولا حتى العلف الذي تفضل ، ألن يؤلمك هذا؟ هل تستطيع مواصلة الحياة؟ . . كلا لن أفتح مواجعه ، لن أقول له هذا ؛ لأن تلك حاله بالضبط ، لا يحتاج أن يتخيل . . بقيت

أتبادل معه النظرات ، كدتُ أبكي حينها ، كانت عيناه معبرتين عن بؤسنا نحن الاثنين! . . . .

مر بنا رجل مدجج بالسلاح ، فعاد إليَّ النهيق ، ولسان حاله يقول : أفهمكِ .!

لم أعرف ما الذي يجب عليّ فعله ، كان قلبي يخفق ويخفق لدرجة أنني كنت أسمع خفقاته ، وتذكرت الدور العظيم الذي قامت به سلالته في حملة إعمار الهند بعد الاستقلال ، فاحترمته أكثر ، قدّمت له الوردة التي قطفتها من حديقة بيتي ، كنت أنوي وضعها في مكتبي ، لكنني ضحيت بها له ، وحين التهمها بفمه الواسع أحسست بأنه التهم أحزاني معها ، وعلى اللحن الداخلي لسمفونية قلبي تأرجحت أذناه يمنة ويسرة ، ما أجمله عندما يحركهما ليصطاد همساتي التي لم أفصح عنها ، وهكذا شيئًا فشيئًا بدأت أشك بطبيعة شعوري نحوه ، فنهيقه دخل بسلاسة غريبة إلى روحي ، وصارت ذاكرتي تحلل إيقاعات نهيقه وتتغنى بها ، لكن شعوري هذا جاء متأخرًا بعد أن غاب سريعًا وحاصرني الذباب! .

في اللقاء التالي رأيته يهرول في الطريق ، وكنت أسير في الشارع العام ، بعد انقطاع السير وتعطل النقل لحدوث انفجار بعيد عن منطقتنا ، وعندما لمحته كأنني أصبت بالعمى ، ويقولون الحب أعمى ، صرت أتعثر بأكياس وكارتونات النفايات المنتشرة تارة ، وأصطدم بتلك الكتل الكونكريتية الكبيرة تارة

أخرى ، كدت أقع في تلك البالوعة المفتوحة ، ولست أعرف من سرق غطاءها ، وكادت قدماي تنزلقان في تلك المياه الآسنة في طرف الشارع ، لولا تمسكي باللحظة الأخيرة بأحد أعمدة الكهرباء ، حتى صفعتني مجموعة من الأسلاك الكهربائية المقطوعة المتدلية في وجهي ، وبالرغم من هذا هرولت خلفه بلا شعور ، تصور المارة أنني أقوم بتمريناتي الصباحية ، لم يخطر ببال أحد أنني ألاحق حمارًا! فكّرت يومها كثيرًا لماذا ألاحقه؟ هل يعقل أنني أحببت حمارًا؟!

واجهت نفسي بشجاعة ، واحترمت مشاعري ، أوليس الحب حفنة أشواق واحتياج للتبادل الفكري ، والمشاركة الوجدانية ، والأهم احترام الآخر لك ، لذا وضعت منطقي الخاص ، لا منطق صديقتي فهيمة دودة الكتب ، لأعترف بجرأة بأنني أحببتُ حمارًا ، وبالفعل هذا ما شعرت به ، وهذا ما حصل ويجب عليّ القبول بهذا الواقع ومواجهته ، لأكتشف أبعاده وعمق هذا الحب بنفسي ، فالحب تجربة خاصة ، يجب أن نعيشها ونواجهها كما هي ، لكنه هرب مني يومها ، وهذا الهرب كان سببا لأكسب صديقًا جديدًا ، لأتعرف على بابا نوئيل العراقي عندما سقطنا معًا . .

أيتها العاشقة الفريدة لم يتعظ القوم من حديث الخنفساء ، في نظرهم هي حشرة ، فسقطت كل الأشياء في لحظة ، أوراق الشجر ، الصور ، النيازك ، البشر ، الطائرات ،

الصواريخ ، مآتم العزاء ، صالات الأفراح ، وبغداد أيضًا ، هل سقطت بغداد؟ لا لم تسقط ، إنها لغة للتعبير عن حالة من السقوط المعنوي ، كيف تسقط بغداد؟ هل لها ساقان؟ هل لها أجنحة؟ هل كانت على الشجرة فهوت ، كما تهوي أعشاش الطيور؟ لكن إحداهن باعت فرخها ولم يسقط من الشجرة ، وتلك الطفلة البصراوية التي اسمها بغداد سقطت للحظات ، وهي تلهو في الحديقة مع أصحابها ، كانت تلعب بكرة القدم ، فضربت الكرة رأسها ، اختل توازنها ، شعرت بالدوار ، تمايل جسدها ، يمينًا يسارًا ، حتى وقعت الكرة فوقها ، تدور الكرة فوق جسد بغداد ، الطفلة بغداد العائدة من المنفى الإنكليزي تدور وحدها ، فضخم الإعلام الحدث وصنع ما صنع ، صنع ضجيجًا فارغًا ، حتى كسر صخبهم الذراع الأيسر لشهرزاد!

هكذا تحدثت الخاتون وهي تقبل علي مسرعة في محاولة منها لرفعي من الأرض ، وعندما مددت يدي لم أشعر بلمستها ، كأنها مخلوق هوائي ، فابتسمت وشكرتها ، ثم فتحت حقيبتي لأستخرج قلما وورقة أدون كلامها الجميل ، فمن عادتي تدوين العبارات التي تعجبني ، بدت لي أشبه بكتاب لغته جديدة عليّ ؛ لأنه من لحم ودم لا حبر وورق ، وما إن انتهيت من الكتابة حتى اختفت ، شعرت بأنها تلعب معي لعبة ما ، أعجبتني لعبتها المسلية ، وحدسي الموروث عن جدتي

بسعاد رحمها الله قال لي إنها ستكون نقطة للإثارة في روايتي ، قد يطالبني القارىء بالشرح ، فأقول له على الروائي ألاّ يفقس كل البيضات التي في السلة مقدمًا! وعليه أن يلاحظ البيضات خارج السلة أيضا!

الملف

في يوم أقبل عليّ المرحوم زكي بصحبة حماره المدلل ، وعرض عليّ ملفًا ، وجده على التراب قرب بسطة الخضار التي يعمل فيها ، متوهمًا أنه يعود لي .

– دكتورة صباح الخير هل سقط منك هذا الملف ، عثرت عليه قرب بسطتي يوم أمس؟

أخذت الملف ، لفتت نظري العبارة التي على غلافه :

(لا أمتلك غرفة خاصة لأرتب هذا الملف في رواية كما تنصح فيرجينا وولف ، لذا فهو ملك لأي امرأة تكتب في غرفة خاصة ، ولا تطيع الملاك الذي يفرض عليها المراوغة والمجاملة) .

دون أي اسم أو توقيع .

لازمني الفضول بمحتوى الملف وما الذي أرادت صاحبته منه؟ وماذا تقصد بغرفة خاصة؟ ومن هي فيرجينا وولف؟! أسئلة كثيرة دارت في ذهني لحظتها . .

– لا ليس لي يا زكي . . لكن دعني أطلع عليه ، لربما عرفت صاحبته وأعدته إليها . .

– سأكون شاكرًا لك ، كما تعلمين لا أعرف القراءة ، ولدي الكثير من العمل ، يجب أن أجلب الخضار ولا أريد أن أشغل نفسي به ، وما دام هو عندك فأنا مطمئن . .

تركني زكي ، فوضعت الملف الأنيق في غرفتي ، انشغلت عنه ، حتى قُتل المغدور فتذكرته ، وما إن فتحته ، حتى تطايرت أوراقه أمامي ، لاحظت أنها كونت دوائر وجدتني أقف وسطها ، انحنيت وجمعت الأوراق ، كانت كثيرة مطبوعة على الحاسوب ، وضمت بعض الخطوط والهوامش هنا وهناك بالقلم الرصاص ، ما يوحي أن كاتبته كانت تراجع وتعدل فيه ، ترى هل سقط منها قبل أن تجري التعديلات الأخيرة ؟ أم أنها تعمدت وضعه بهذا الشكل ، ثم رمته لعل إحداهن تأخذه؟ .

وبدأت أقرأ :

ورقة

تبتسم أم مظلوم بغصة ، غصة تدور في الحكاية ، وهي تراقب ولدها يبتعد ، ليعمل ورفاقه مع خنجر ، حتى لاحظت إقبال صاحبتها نحوها :

– ما بك يا أم صابر لماذا تبكين؟ ارتاحي واهدئي . . . هل عاودك ألم ساقك ثانية؟ هل تناولتِ دواء الضغط؟ اذكري الله . . قلقتُ عليك بعد كل هذه الانفجارات اليوم . .

يرقص القرد . . يصفق الدب . .يضرب الكلب على

الطبل ، وينتشر أعضاء حديقة الحيوان في وسط الشارع ، تظهر الحسناوات : باربي ونحلة وفلّة بأبهى حلّة ، وتشتكي طفولة العباءة الملتفة على جسدها غزارة التجاعيد المبكرة ، كما تشتكي ساقها من وجع قديم . . .

تعرج أم صابر في سيرها ودموعها تنهمر على خدها ، تضع كيسها الكبير وسط الجزيرة الوسطية ، في ناصية الشارع التي اعتادت افتراشها ، تسحب خيمة من الكارتون المقوى ، تفتحها و تسندها ببعض الأحجار ، تجلس داخلها وهي تلهث . .

– ماذا أقول لك يا أم مظلوم؟ . . .فقدتُ اليوم بعض المال المخصص لشراء الألعاب ، لن أظلم أحدًا ، لكني ذعرت حين رأيت رأس رجل فوق جسد لعبة هي كلب ، تذكرت رأس المرحوم حين جزوه وأرسلوه لي مخيطا على جسد كلب ، لا أكاد أميز إن كنت رأيت هذا حقًا ، أم أنها صورة سقطت من الذاكرة بسبب الكلاب . . .

تجهش بالبكاء ، ضاربة صدرها بيدها ، يبرز ناباها الأسمران ، السنّان الوحيدتان بفكها العلوي ، وتواصل كأمواج متعثرة على الصخور : ويلي ويلي . . .الله على الظالم . .

– يا أختي ليعوضك الله ، هذا نصيبنا ، اهتمي بنفسك لأجل الأولاد . . تذكري حديثك الدائم يجب ألاّ نستسلم . .

تمسح دموعها بكف يدها ، تشرب من قنينة الماء المركونة بقربها ، ترش قليلاً على وجهها ، تمد ساقيها سعيًا لوضع مريح

للجلوس ، وتضع كفها فوق ركبتها اليمنى . .

– لا حول ولا قوة لنا ، أنتِ أضعت جزءاً من المال ، أما أنا فإلى الآن لم يشترِ أحد مني .

– الصبر يا أم مظلوم ، ليس لنا إلاّ الصبر والدعاء ، أرجوك جددي لي حرز الرزق ، لعل باب الرزق يُفتح لي ويبعد عني السرقات . . .

– هذا ضروري . . . وسأصنع لك حرزًا غيره ، يبعد عنك خيال الكلاب ، وآخر ليبعد عني ذكرى ذلك اليوم الأسود ، ما زلت يا عزيزتي كلما وضعت رأسي على الوسادة شممت رائحة عفن ، وإذا ما أغمضت عيني رأيت رأسه . . . تجلس قربها ، وتغمض عينيها . . . . .

عدد من نسوة يرتدين السواد ، في فجر يوم غائم ، جمعهن الوجع رغم النكات المتبادلة بينهن ، والشيلات السُود فوق الرؤوس ، بعضهن يرتدين كفوفا سميكة ، ويربطن حبلاً حول خصرهن ، لترتفع عباءاتهن عن التراب ، فيتنقلن بيسر ، ويسحبن أكياسًا كبيرة من الخيش ، تمتلىء بعلب المشروبات الغازية الفارغة ، وزجاجات مستعملة وألبسة قديمة ، وقنانٍ متنوعة الأحجام ، وعلب معلبات فارغة ، وألعاب أطفال مكسرة ، وكيس آخر فيه بقايا من طعام ، تنحني ظهورهن بعمل جماعي يشاركهن فيه صغارهن ، وهن ينبشن في أكوام النفايات المترامية بأحد الأحياء شرقي بغداد ، بحثا عما يؤكل

أو يُلبس أو يُباع ، وتشتعل بئر نفط قريبًا منهن ، ويعلو دخانها ، لتبدو اللوحة ضبابية أشبه بحلم ، أم مظلوم وولدها منهمكان في العمل :

– مظلوم ضع هذه العظام في كيسك ، سأنظفها وأعمل لك حساءً . .

تمد له بالعظام ، تدير ظهرها فتلحظ كرة غريبة تغوص بين النفايات ، يغطيها العفن الأخضر ، تتوهم أنها صالحة ليلعب بها ولدها ، تزيل ما يحيطها من أوراق وأكياس ، تتضح معالمها ، ليبدو لها شعر بشر ، تصورته شعرًا مستعارًا مدت كفها لتزيح الشعر ، ثم عادت إلى الوراء بحركة ارتدادية ، وهي شبه خرساء ، تفتح عينيها على وسعهما وترتعش ، ثم أطلقت صرختها . . ليطرق صدى الصرخة باب التاريخ ، وسقطت مغمى عليها فوق النفايات ، يصيح ولدها ذاهلاً ، وهو لا يعي ما يحدث : أمي أمي . . .

تجمعت حولها النسوة ، تمر أم صابر في تلك الأثناء ، وهي تدفع عربة خشبية لقناني الغاز ، بصحبة الصغير علي ، ترى التجمع حول صاحبتها ، والنسوة تبكين وتندبن :

– خير يا رب . . . ما الذي حدث لأم مظلوم؟

ارتفع الصراخ والعويل ، بدأت إحداهن بضرب صدرها ، تبعتها أخرى ، حتى قالت سيدة وهي تنوح : المسكينة كانت تعمل بيننا ، فعثرت على رأس أبي مظلوم ، كم بحثت عنه منذ

أن غاب . . يا لحظك العاثر يا أم مظلوم . . . ويلي عليك ويلي .!

تضرب أم صابر على رأسها وتصيح معهن ، فيشتد بكاء وعويل النسوة ، يقبل نحوهن رجل يشتري عادة ما يجمعن ، فيتبرع بدفن الرأس ، تطلب منه أم مظلوم أن يتركه حتى تجد بقية الجسد ، تجيبها أم صابر :

– يا أم مظلوم حرام لا يجوز ، لا نعرف هل سنجد بقية جسده أم لا؟ يجب دفن الرأس . .

تضرب أم مظلوم صدرها ، تعود النسوة للنواح . . وبعد ساعات تصحب أم صابر صديقتها معها ، فتهجر الأخيرة العمل في نبش النفايات ، وتستدين من أم صابر ما تفتح به مشروعها الجديد ، وتبيع الحلوى في الطرقات . . .

تتذكر أم مظلوم فاجعتها ، تمسح دموعها ، بينما تسحب صاحبتها من رؤوس تلك الألعاب قبعتين ملونتين مزركشتين ، إحداهما حمراء مطرزة بالدانتيل الأبيض والأحجار الملونة ، والأخرى خضراء اللون ، تمد إحداهما نحو صاحبتها :

– حرارة الشمس سترتفع بعد قليل ، هذه الخيمة لم تعد تكفي ، لابد أن نقتصد لشراء مظلة ، أشعر بتعب كبير اليوم ربما أعود للبيت لست مرتاحة من ساقي .

– إرجعي يا أختي ، وادهنيها بالمرهم الذي أعطيتكِ إياه قديما ، صدقيني إنه دواء ناجع ، وهبته لي سيدة نجح الحرز الذي صنعته لها ، فلم يتزوج زوجها عليها ، أفكر بجمع المال لأفتح

مشروعًا خاصًا بصناعة الحرز وطرد الجن والشياطين ، فمن أتعامل معهم قلة الآن ، لعدم قدرتي على شراء اللوازم كافة فهي باهظة الثمن ، خصوصًا عظم الهدهد ، تعلمت المهنة من المرحومة أمي كانت معروفة في منطقتنا ، تصمت قليلاً وتسحب تنهيدة وتواصل «سيأتي يوم إن شاء الله ونرتاح ، . . .نعم وسأجد حلاً لمشكلة مظلوم وأخته» . .

– إن شاء الله يا أم مظلوم يفرجها علينا جميعا . .

تواصل أم مظلوم كمن تذكر أمرًا : وإذا عدتِ يا أم صابر أرجو ألاّ تنسي أن تدخلي طشت الماء لقد تركته في الخارج ، كي يتعقم في الشمس كما تعودنا . .

– أتمنى أن الكلاب لم تنجسه . .

– لا . . لا أعتقد ، لقد غطيته بخرقة قماش قديم . .

– إسمعي أم مظلوم . . . هل مرت اليوم لطيفة؟

– كلا لم أرها اليوم .

– صرت أقلق عليها ، مضى زمن طويل ولم نرها ، إنها تختفي وتظهر وهذا أمر غريب . . .

– ستظهر أكيد يا أم صابر ، تعودنا عليها . .

– إن شاء الله .

تفتح أم صابر كف يديها بالدعاء : يا رب احمِ المسكينة لطيفة ابنة حواء ، وفك عقدة لسانها ، وابعد الأشرار عنها . . يا رب يا سامع دعاء المظلومين . .

ترد عليها أم مظلوم : يا رب ارحمنا جميعا ، آمين . .

قبل الغروب تدخل أم صابر بيتها ، في منطقة حي التنك ، حيث تلتصق علبة صفيح بأخرى ، فتضع كومة الألعاب التي تحملها في الكيس جانبًا ، ترمي عباءتها أرضا ، تتحرك لتحمل طشت الماء إلى الداخل ، وتخرج لتوقد النار بحزمة من الحطب ، تضع فوقها إناءً صغيرًا . . .

يستغل الصغير علي انشغال أمه ، فيمد يده في الكيس الكبير ، ليسحب أول لعبة تمسكها يده ، يخفيها تحت ثيابه ، ويخرج كالبرق . . يركض علي ذو الخمسة أعوام حافيًا ، يتطاير شعره الأسود الناعم معه . .

– أين ذهبت يا علي ويلك؟؟ تضرب وجهها بكفها ، ياربي ارحمني . . . .

تضع عباءتها فوق رأسها ، تتحرك هائمة على وجهها ، تسحب ساقها العرجاء ، وتسير خلفه على غير هدى . .

(٢)

يمتلك سرعة الحصان ، عين الهر ، قفزة الأرنب ، ذكاء الثعلب ، وداعة الحمامة ، وضخامة الدب ، ألفة الكلب ، وله من بابا نوئيل حجمه ولحيته الطويلة التي تتدلى على صدره ، لم تكن منظمة المظهر ، يرتدي دشداشة بنية اللون متهرئة ، يحمل صرة صغيرة بالية وعصا رفيعة طويلة ، عصا يتوكأ عليها ، وربما له فيها مآرب أخرى ، لم يصرخ في وجهي عندما اصطدمت به فوقعنا معا ، سرعان ما اعتدل ، وجلس على التـــراب في هدوء ، ينظر نحـــو الأرض ، وبدأ يخط ويرسم بعصاه . . . .

-المعذرة . . . كنت أهرول خلف حماري ، أرجو ألاّ تكون قد تأذيت .

استمر برسم تلك الخطوط غي رالمنتظمة ، منها رسم أسطواني طويل ، رأسه مثلث مدبب ، أعدت كلامي ، لعله لم يسمع : المعذرة . . . .كنت أهرول خلف حماري أرجو ألاّ تكون قد تأذيت .

فردد :

(قامت قواتنا الجوية في الساعة ١٣ من هذا اليوم ٢٢ أيلول ١٩٨٠ بالتعرض للقواعد والمطارات العسكرية ، في عمق أراضي العدو وألحقت أضرارًا بالغة في الأهداف العسكرية أما وحداتنا الصاروخية / أرض- أرض/ فقد حققت إصابات دقيقة ، وألحقت أضرارًا فادحة بقواعد التموين الرئيسة . . . . انتحرت فتاة . . وليخسأ الخاسئون) . .

رفع رأسه ، حركهُ في كل الاتجاهات ، أخفض نظراته ، وعاد يرسم على التراب بعصاه ، قلص ملامح وجهه بجدية ، كمن يقوم بمهمة صعبة . .

رفعت يدي لأنفض عن ثوبي الغبار العالق ، فجفل ، وأبعد جسمه عني ، أردت تطمينه لست من قوات العدو ؛ لأنه بدا رافضًا لمن يقتحم أغنيته ، وضعت يدي على كتفه وربتُّ عليه :

- سأسميكَ بابا نوئيل العراقي ، لأنكَ تشبهه كثيرًا ، لنكن أصدقاء ، سنتفاهم أنا وأنت ، ولأطمئنه أكثر ، رفعت إصبعي لأشير له نحو بيتي القريب . . هذا بيتي تستطيع اللجوء إليّ متى احتجت لشيء .

لم يحرك رأسه ، رمقني بطرف عينيه ، وخفف من توتره وبلهجة حادة صارمة عاد يردد :

(قامت قواتنا الجوية في الساعة ١٣ من هذا اليوم ٢٢ أيلول ١٩٨٠ بالتعرض للقواعد والمطارات العسكرية في عمق أراضي

العـدو وألحـقت أضـرارًا بالغـة في الأهداف العـسكرية ، أمـا وحداتنا الصاروخيـة / أرض- أرض/ فـقد حـقـقت إصـابات دقيقة ، وألحقت أضرارًا فادحة بقواعد التموين الرئيسية . . . . ثم انتحرت فتاة . . وليخسأ الخاسئون .)

تحركت نحو مطعم شعبي على الناصية ، واشتريت بعض الطعام لأقدمه له ، فرمى عصاه وصرته ، صفق بيديه ، كطفل منفـوخ أشـبـه ببـالون ، وبدأ يلتـهم كـمن لم يأكل من سنين . . ابتسمت له ، ثم تركته .

آه ياحماري مما يحدث ، لو أنك هنا لحملت بابا نوئيل على ظهرك ، كما كنت تساعد المرحوم زكي في عمله ، ولأصبح بابا نوئيل أشـبـه بملك ، كل الملوك سـمـان ، ضـخـام الجـثـة مـثله ، ويحبون الأكل بنهم ، ويلتهمون رؤوس الخرفان دائمًا ، لا أفهم كيف يأكلون الرؤوس؟ هل يريدون عيونًا أخرى أم عقولاً أكثر؟

وفي يوم لاحق وضـعـت خطة مـحـكمـة للبـحث عن حماري ، تلخصت خطتي بتخصيص الأيام الثلاثة الأولى في الأسبوع للبحث في مناطق الكرخ من بغداد ، والثلاثة التالية للبحث في مناطق الرصافة ، وخصصت يوم الجمعة لأدرس خصائص الحمير في الكتب التي أجلبها من شارع المتنبي ، فعندما تقع في الحب الحقيقي ستهتم حتما بأدق تفاصيل محبوبك ، وتتعرف على احتياجاته ، لتعمل على توفيرها له ، ورغم جديتي في البحث لم أجده يومها ، ولم أكن أعرف أن

هذا البرنامج البحثي سوف يجلب لي المصائب لاحقًا! .

تلك السيدة التي تدعى بالخاتون لقبتني بالعاشقة الفريدة ، من أخبرها بقصتي؟ لم أخبر أحدًا بقصة حبي للحمار ، أمرها غريب ، فعندما أعددت هذا البرنامج البحثي ، خرجت لأسير في الهواء الطلق ، فالمشي يساعد الإنسان على ترتيب أفكاره ، ويقدم للسارد حلولا للمآزق السردية ، حتى ظهرت فجأة وأقبلت نحوي مبتسمة :

أيتها العاشقة الفريدة تشكو شهرزاد من ذراعها المكسورة ، وتعزف الطفلة بغداد في البصرة مبتهجة ، وتسأل عن مدينة للألعاب ، والمدينة فيها بحة الألم ، واللعبة محطمة بعيدًا ، والألوان الجميلة صريعة ، لا صدى في قلب الليل ، حيث لجة الغياب ، وبغداد رحم ينجب الأصوات ، تنتقل الآه إلى الداخل ، لتضيع في الضجيج ، حتى توجهت نحو مقبرة الصرخات ، توارت في العمق ، حيث أول النطق ، بابا . . . بابا ، باء قتيلة في طفولة عجوز ، باء تحت أنقاض العامرية ، مثلها في الفلوجة ، وفي كنيسة سيدة النجاة ، وباء تنام في صناديق خشبية ، باء تصلي وتدعو الله في سامراء ، تتواصل الصرخة : بابا بابا . . حتى انهار الجدار ، تهاوت القبة الذهبية ، ذبحوا طفلة في الكنيسة ، وانقطع الدعاء ، وليس من يرمم الباء الجريحة ، يتحرك القهر في العراق ، يدفع عجلة السنوات ، يخطف الباء ويمشي ،

ثاني الحروف العربية لم يذكر اغتياله أحد ، ليس هناك إلاّ طفل يبكي ، يعض شفتيه بقوة ، يتشبث بثوب أمه ، التراب أم ، وكل أم من تراب ، يحاول دفن رأسه بعباءتها ، فلا يجد إلاّ التراب ، يبحث عنها في دار السلام ، ينكمش ويخفي رأسه بين ذراعيه ، تسحبه أمه من قلب التراب ، فينام قربها فوق التراب ، وتسير أخرى رأسها مرفوع ، فيدور حوار خفي مع السماء ، ناقة تكفيها نهلة ، أنهكها الطريق ، تاهت ، عطشت ، ثم بركت ، سيدة أعمال رأس مالها الباء الغائبة!

استدارت ثم اختفت . .

أمر غريب واضح أنها تتبعني ، من تراها تكون؟ وماذا قصدت بحرف الباء أهي شفرة؟! لم لا تساعدني بالعثور على حماري ، وما شأني أنا بما تقوله؟ بدأ ظهورها واختفاؤها المفاجىء يقلقانني ، في كل الأحوال هي وديعة ولطيفة ، لا يمكن أن تقصد سوءا بالتأكيد!

ورقة

يعري الجزار الصغير اللعبة ، بخلع ثيابها قطعة قطعة ، يمزقها بأسنانه ، ينهمك بالعمل ، يقطع الأيدي من نقطة الالتحام ، بقوة وإصرار ، يرمي الذراعين بعيدًا ، ينتقل نحو الساق ، يسحبها بعنف ، يشدُ شعرها ، كمن ينتف ريش دجاجة ، يحيط رقبتها بأصابعه الصغيرة ، يحاول أن يشدد

الخناق ، يضغط ويضحك ، يواصل الضحك ، يضرب رأسها في الأرض ، يعود يرفعها ويعض عليها بأسنانه ، يضع كفه الصغيرة فوق شفتيه ، ثم ينهال عليها ضربًا ، يفصل رأسها يرميه بعيدًا ، يجمع لعابه ، يبصق على المتبقي منها ، يدوس فوقها بكعبي قدميه الحافيتين ، يضغط ويضغط ، تومض عيناه شررًا ، يحتضن بهجة غريبة حين يبصر الحسناء ممزقة إلى أشلاء . . .

لمحته أمه ، يتوارى خلف تل من النفايات ، قرب أحد بيوت الصفيح المجاورة ، تهمس حمدًا لك يا رب ، تتوجه نحوه وعلامات الغضب على وجهها ، تعقد حاجبيها ، تشد عباءتها بقوة نحو خصرها ، تسحبه من أذنيه ليقف مرعوبًا :

– تبًا لك من ولد عاق ، ماذا فعلت؟ كيف تسرق أمك؟ ألا تخاف الله لم حطمت اللعبة؟ ألا تعرف أنك تعيش من ثمنها؟ أهذا عوضا عن معاونتك لي؟ وتنهال عليه ضربًا ، فتبكي هي ، تنحني وتضع يدها على ركبتها ، تعود لضربه على قفاه وهي في شبه غيبوبة بعيدة . .

. . . وتسقط بضع قناني غاز من العربة الخشبية ، تقع إحداها على ساق أم صابر ، وهي تجلس أرضًا مع ولدها عليّ ، تصيح المرأة من الوجع ، يقبل رجل يساعد الصغير في رفع القناني :

– يا أم صابر هذا عمل شاق عليك . . اذهبي للمركز الطبي أفضل . . أخشى من كسر ساقك . .

تبكي المرأة بصمت ، يحتضنها ولدها : أمي أمي . . . لنذهب إلى الطبيب ، هل تؤلمكِ ساقك؟

– لا يا ولدي ، ستعالجنيَ أم مظلوم ، أفضل من إضاعة المال في أدوية غالية الثمن . . تمسح بيدها على ساقها الممددة ، وتعض على شفتيها . .

يتشبث بها ولدها ويبكي : أعرف أنها تؤلمك يا أمي ، يلتفت فجأة كمن جاءته فكرة ، اسمعي لماذا لا تبيعين الألعاب بدلاً عن قناني الغاز الثقيلة ، إنك لا تدعيني أحملها ، ولا تتركين صابر يعمل معك؟

– صابر يعمل مع خنجر يا عليّ ، ويجب عليك الذهاب معه . . تصمت قليلاً وتواصل : تبدو فكرتك معقولة ، تدفع رأسه نحو صدرها تقبله ، وتمسح دموعها : أنت ولد ذكي ، سأبيع هذا الغاز وأشتري به الألعاب والرزق على الله ، والله تعبت من حمل قناني الغاز يا ولدي . .

تواصل أم صابر ضرب الصغير عليّ حتى تستيقظ من غيبوبتها على صوته :

– ألست أنا من اقترح عليك بيع الألعاب؟ أنت ناكرة للجميل ولست أنا!

يمر قربهما رجل سمين كبير في العمر ، يتوكأ على عصاه ، يغني :

(قامت قواتنا الجوية في الساعة ١٣ من هذا اليوم ٢٢ أيلول

١٩٨٠ بالتعرض للقواعد والمطارات العسكرية في عمق أراضي العـدو ، وألحـقت أضـرارًا بالغـة في الأهداف العـسكرية أمـا وحداتنا الصاروخيـة / أرض- أرض/ فـقد حـقـقت إصـابات دقيقة ، وألحقت أضرارًا فادحة بقواعد التموين الرئيسية . . . . ثم انتحرت فتاة . . وليخسأ الخاسئون) .

يبـتسم عليّ أخيـرًا ، يرفع رأسـه ، ووجـهه يفـيض بالدموع والمخاط ، يشير بإصبعه نحوه : معتوه . . معتوه . . معتوه . . . .

تضـحك أمـه . . والرجل كـأنه أصم يتـوكـأ على عـصـاه ، ويحمل صرته باليد الأخرى . .

لست مـرتاحـة لغـيـاب لطيـفـة ، يا إلهي أين ذهبت هذه المسكينة؟ سترك يا رب . . .! .

وتدخل أم صابر غيمة بعيدة .

تدور المرأة طويلة القامة ذات العينين الخضراوين ، تسحل بطانيتها معها على التراب ، رثة الثياب ، تصل عند أم صابر ، تمنحـها الأخيرة قنينة ماء ، تشرب منها ، ثم تراقب الألعاب ، يقبل بضعة رجال ، يرتدون بدلات عسكرية ، يسأل أحدهم أم صابر عن ثمن لعبة ، ترمقه لطيفة بغضب ، تبدأ بالارتجاف ، تلم أطرافها نحو جسدها ، تبتعد ، وتلتقط حجرًا من الأرض ، ترميه على رأسه الأصلع ، تلتقط حجرًا آخر ، وتعيد الرمي على رأسه ، يصيح بها الرجل : كفي . . . كفي هل أنت مجنونة؟

لا ترد لطيفة ، تسحل بطانيتها معها ، وتبتعد عن المكان ،

تنادي أم صابر عليها :

– تعـالي . . . تعـالي . . . إلى أين ذهبتِ يا لطيـفـة؟ ولا مجيب .

تلتفت نحو الرجل : أرجوك اعذرها ، أحيانًا تصبح عنيفة فجأة . .يهز الرجل رأسه ويغادر من دون أن يشتري .!

تخرج أم صابر من غيـمتها تهمس : أخشى أن يكون قد آذاكِ أحدهم يالطيفة . .

(٣)

يقطب الرجل حاجبيه باستهجان ، كمن يرفض كل الحلول ، يقلب كتابًا بين يديه ، ويضرب الكف بالكف ولا ينطق . .! . .

في طريقي إلى العمل كنت ألمح أم مظلوم وأم صابر ، وهما تجلسان في ناصية شارعنا قرب بسطة المرحوم زكي ، وكلما رأيتهما تصبح مشاعري خليطًا من ألوان متناقضة ، ولو كان حماري هنا لكلفته بمعاونتهما كليهما ، سيكون وفيًا لهما ، فيتجول بألعاب أم صابر وحلويات أم مظلوم على الملأ ليبيعها ، لعله يجعلهما ثريتين . يقطع حبل أفكاري صوت المذيع . .

(سيداتي سادتي نعلن لكم القرار الأول للجنة طيران النساء نحو القمر ، حيث قررت اللجنة فرض ارتداء الأحذية المجنحة على النساء ، ليتمكنّ من الطيران ، وسوف تقوم اللجان العلمية المحلية باستخدام أجنحة الدجاج في صناعة هذه الأحذية ، التي ستكون محلية الصنع ، ضمن المواصفات العالمية ، وقد رصدت الدولة ميزانية ضخمة لتنفيذ هذا المشروع العظيم ، وسنذيع عليكم بعد قليل التعليمات الأخرى) . .

يالسوء حظي لا نقاط تفتيش في الشوارع اليوم ، في كل الأحوال لن أرتدي تلك الأحذية ، سأطالب بمركبة فضائية ، لأطير بها مع حماري ، خياله لا يفارقني ، ستُحدث تلك اللجنة زلزالاً حقيقيًا في حياتي لو ساعدتني ، أسمع نهيقه . . أعرفه تمامًا . . بلى إنه النهيق الحزين ذاته ، أسمعه جيدًا ، لعله هناك عند الإشارة المرورية .

لم تكن عندي فكرة واضحة عما سأفعله لو عثرت عليه ، كل ما أشعر به هو الاندفاع العاطفي الذي يعتري المحبين عند لقاء أحبتهم ، ربما تأملهم يكفي ، أو تبادل الحوار معهم ، لكنني في الحقيقة كنت أخطط للعمل معه في فرقة عمل خاصة ، فلا يمكن أن نبدع في عملنا ما لم نحب من نعمل معه ، فأساس أي بناء هو الحب وإخلاص النية ، ودونهما ستفشل أية خطة وطنية لردم الحفريات في الشوارع! . .

ولم أجده عند الإشارة المرورية في تقاطع منطقة الكرادة ، بل رأيت فتاة صغيرة ، بدت مختلفة عمن يتسولون ، فهي نظيفة جدًا ، مرتبة الهندام ، وتضع غطاء شعر أسود ، إمارات البؤس طاغية بقسوة على وجهها الحنطي الصافي ، والعينين اللوزيتين ، كانت هادئة وتتحرك ببطء شديد ، بعيون منكسرة النظرات ، لا تتوسل أحدًا أن يشتري منها الحلوى ، كما يفعل زملاؤها ، لمحتها وهي سارحة ، وتنظر بزاوية عينها إلى التراب ، فسألتها : بأي شيء أنت سارحة؟

أجابتني بهدوء (في شؤون الدنيا يا خالة . . الدنيا مو زينة)

– ما اسمك؟

– دموع يا خالة .

– غريب اسمك! وهل يعمل أبوك وأمك هنا معك؟

– كلا خالتي ، استشهد أبي منذ زمن ، وأمي معاقة بعد إصابتها في انفجار (البياع) أعمل هنا من فجر كل يوم لأعيل أسرتي . .

– لعلك لا تتجاوزين العاشرة ، احذري الشارع ، فأنتِ جميلة .

– نعم والله يا خالتي . . . إنهم يؤذونني كثيرًا . .يؤذونني في كل مكان ، و حتى أخي س . . . . . صمتت برهة ، ثم واصلت بإصرار غريب وهي ترفع رأسها مبتسمة :

– لكنني . .لا . . لن أسمح لهم بالاقتراب مني ، سأكون أكثر شجاعةً ، سأفكر ، سألقنهم درسا . .

– أحسنتِ أحسنتِ . . عليك أن تكوني قوية . . ولكن هل رأيتِ حمارًا أبيض اللون ويضع كوفية ملونة؟ لقد سمعت نهيقه قبل قليل . .

تعالى صوتها بكركرات صافية ، أشبه بقطرات الندى الصباحية على وجنة الورد : حمار . . .حمار يا خالتي! . . . أحنت رأسها ، وهي تبتسم بنظرة ذات مغزى من طرف عينيها

الواسعتين وقالت : لا لم أره . . . .

وتغيرت الإشارة المرورية إلى الأخضر ، واضطررت إلى مواصلة طريقي ، ولم أجد أثرًا لحماري ، إن البحث مضنٍ ، وإذا كان الجسر يسبح في النهر ، فكيف يمكن الوصول إلى الضفة الأخرى؟ لابد من تعلم فنون متنوعة من السباحة ، كي لا يسحبنا التيار نحو ضفة لا نريدها!

وصلت إلى مقر عملي ، وأنا أفكر به ، لعله هو الآخر يبحث عني ، وكلانا ضل طريق صاحبه ، رغم أنه يعرف باغتيال صاحبه الحقيقي ، لكنه يعرف عنوان بيتي أيضًا وسيعود بالتأكيد .

يا لها من مفاجأة ، هل أنا في قاعة دراسية أم ماذا؟ ما الذي يحدث؟! . ديوك ودجاجات هنا! التفتّ خلفي لأتأكد من المكان الذي دخلته ، ربما أفقدني الحمار عقلي ، وتهت في الطريق ، لأدخل مزرعة حيوان جورج أورويل ، لكن أين الحصان؟! . .

ما زال الرجل ينظر باستهجان ، يواصل تقطيب حاجبيه ، يضغط على الكتاب بين يديه ، ويدير وجهه نحو الاتجاه الآخر ، دائمًا يديرون وجوههم عندما تتحدث امرأة تعرف ما تريد ، ويتأملونها إعجابا كلما كشفت مساحة أكبر من جسدها! .

تجلس الديوك إلى اليمين ، والدجاجات إلى اليسار ، بدت لي تلك المخلوقات نوعًا جديدًا من الكائنات ، فالديوك بلا ريش

إلاّ بضع ريشات منتصبة فوق الأعراف! أما الدجاج فبلا أجنحة ، ربما تلك الكائنات مصابة بمرض ما جعلها على هذه الهيئة الشاذة!

شعرت بضيق في التنفس ، تأملت الوجوه كلها ، لم أعرف تصنيفهم ، بدوا كائنات غريبة ، لست من فصيلتهم ، داهمني خوف مما قد يحصل ، قد يجتمعون حولي وينقرونني في عيوني ، كلهم أصحاب مناقير مدببة حادة الرأس ، من سيسمع صوتي لو صرخت ساعتها ، هربت من القاعة الدراسية لأستشعر الأمان ، ولسرعة حركتي اصطدمت بصديقتي ليلى ، كانت مُحمرّة الوجه ، ترتجف من رأسها حتى أخمص قدميها ، أنساني منظرها فيلم الرعب الذي عشته قبل قليل :

–هل تصدقين يا أمل لقد طلب مني الدكتور فتح الله خميس أن أضع مؤخرتي مكان رأسي!؟

ربَتّ على كتفيها مبتسمة : لا تقلقي عزيزتي ، لقد أعلنوا اليوم عن مشروعهم الخاص بطيران النساء باتجاه القمر ، وهناك سنتخلص من بعض رجال يضعون عقولهم بين سيقانهم ، مسألة وقت فقط لا تغضبي واهدئي .

– نعم سمعت هذا صباحًا ، وهمست بأذني : لكن الأمر غريب ، في كل الأحوال أرفض فكرة الطيران من أساسها ، ما هذا؟! دعينا نتحاور فيه لاحقًا ، وعاد صوتها طبيعيًا : لا تنسي علينا زيارة فهيمة في المستشفى لقد رزقت بنتا .

– جميل أخيرًا تحقق حلم فهيمة ، وأقبلت درة جديدة لنا ، حسنًا سنتكلم عندها . .

هدأت خطواتي ، وأحسست بعدم اكتمالي ، نصفي الذي يحميني غائب ، وأنا في عالم كل ما فيه يتهددني ، لو كان حماري هنا لرفس الدكتور فتح الله خميس رفسةً أفقدته ذكورته إلى الأبد ، لا أعرف ما نوع قلب الحمار الذي تركني في مواجهة هذا العالم الموحش وحدي؟ . . .

استرحت في غرفة التدريسيات ، رفعت رأسي فوقعت عيناي على تلك الصورة المعلقة على الجدار ، فداهمتني غيمة من الضباب . . لم أشعر بخطواتها وهي تقترب مني ، حتى انتفضت على يد تحط على كتفي :

– أرجوك يا عزيزتي أن تبلغي الطلاب اعتذاري عن تقديم المحاضرة اليوم .!

رأيتها بزي غريب ، شروق تحب الحلي والزينة ، لعلها ابتكرت جديدًا اليوم ، تضع قبعة كبيرة ملونة فوق رأسها ، أشبه بالقبعات المكسيكية ، القبعة منحنية ، وتخفي عينيها بنظارة سوداء كبيرة ، وترتدي زيًا فضفاضًا طويلاً ، على غير عادتها بدت مهملة لمنظرها :

– هل أنت مدعوة لحفلة تنكرية؟

خرج صوت رفيع بدا لي حزينا : خرجت بالأمس من حفلة خاصة . . عندي صداع قوي . .

جلست قربي ، أحنت رأسها ، فسقطت قبعتها ، رأيت شاشًا أبيض اللون فوق رأسها ، وبقعًا كبيرة بالأحمر القاني . . . ذهلت .! . .

– ما هذا ؟!

خلعت نظارتها ، وغطت عينيها بكفها وبكت . . .

ظهر وجهها كقماش أبيض مزركش ، ببقع ملونة ، بالأزرق المحمر ، وبقع بنية أخرى ، فاض شلال من عينيها ، داهمني إحساس أنها مبقورة العينين صرخت :

– ما الذي حصل لك ؟؟ أجيبي . .

عبر الديك الشارع ، تبعته ثلاث دجاجات ، تقدم الديك أولاً ، توقف عند الرصيف ، نظر نحو الشارع ، انتظر دور الدجاجات في العبور ، عبرت الدجاجات بسلام ، ثم أدار الديك ظهره ، واصل الطريق ، تتبعه الدجاجات بهدوء . . . .

ما الذي حصل يا شروق؟

تجمعنا في بيتها ، لتعزف على العود ، تسخر من ألوانها ، تعزف ولا تبالي ، تحرك أصابعها الطويلة الدقيقة مع الأوتار ، تتحرك معها قلائدها ، يتراقص قرطها الطويل ، تضع العود جانبًا ، وتتحدث بحماسة عن نتائج بحثها العلمي ، بحثها عن صناعة مبيد حشري جديد ، يقضي على الحشرات بأنواعها ، بعدما أظهر الذباب العراقي المنتشر بكثرة مقاومة ضد المبيدات العادية ، كانت تحلم بتصنيع المبيد محليًا لتخلص العراق من

الحشرات الغريبة كافة التي انتشرت ، فالمبيدات المستوردة لم تعد تجدي نفعًا . . .

ودخلت غيمة أخرى . .

تشرق ببسمتها ، تتقدم القاعة ، يكرر عريف الحفل اسمها ، الباحثة شروق عبد الجبار المتفوقة الأولى في البحث العلمي لهذا العام ، تتقدم تتسلم جائزتها :

– يا دكتور أنا واثق أن هناك من كتب لها هذا البحث ، بالتأكيد هناك من خططه لها ، لعلها اشترت هذا البحث فكيف أعدت هذا المبيد وحدها؟ .

– نعم دكتور فتح الله أنا أيضًا في شك بالأمر ، لا أعتقد أن لها أية علاقة بهذا الإنجاز ، إنهم يجاملونها ، من باب الرفق بالقوارير . .

– يا زملائي إن شروق ذكية ، رأيتها تعمل في معملها ليل نهار ، ثم إن لجنة التحكيم هذه لجنة دولية ، جلبتها الوزارة للتحكيم بمستوى البحوث المقدمة ، تستحق هي الجائزة بجدارة . . ، لكن الجهات المختصة رفضت تنفيذ مشروعها عمليًا بذريعة عدم توفر التخصيصات المالية اللازمة .

يبتسم الدكتور محمد ورفيقه بابتسامة لها مغزى ، يرمقان الدكتور مصطفى بنظرة جانبية ، لحظة صمت ، قال الدكتور محمد ضاحكًا :

– دكتور مصطفى دعك من تنفيذ المشروع . . .أنت تنحاز لها دائمًا .

– اتقوا الله إنها سيدة محترمة ، ما قلت إلاّ الحق . .

يتحرك الأساتذة لتهنئتها ، تتعالى الأصوات من هنا وهناك . . .

– أنت رائعة يا شروق ، تستحقين أكثر . . .

يتقدم رئيس القسم الدكتور فتح الله مصافحًا إياها : كنت دائمًا واثقًا يا عزيزتي من قدراتك وإمكاناتك ، قلت للجميع عليكم التعلم من شروق وطروحاتها العلمية المتميزة . .!

الدكتور مصطفى : ألف مبارك لكِ ، أنت مبدعة . .

كنت أُصغي إليهم جميعًا وأبتسم ، حتى عدت إلى الغيمة الأولى ، ووجدتني أمام صوت منهك ضعيف : لا شيء عزيزتي ، لا شيء . . . كان حادثًا .

ربت على كتفها : شروق هذا الأمر يتكرر . .

– هل أحكي لك قصة ابنة خالتي حين طلبت الطلاق؟ . .

صمتتْ ولم أشأ الاستفسار أكثر ، ودفنت فضولي بما حدث مع قريبتها كي لا أزيد مواجعها ، ولتخفيف الأمر عليها قلت مازحة : في كل الأحوال أنت حصلت على (نيو لوك) مجاني .

وبكى قلب غيمة أخرى ، عندما تصدر أبوها وأخوها الصف الأول في القاعة ، وبدأ قارىء القرآن بالتلاوة ، انهالت كلمات الرثاء والمديح من كل الاتجاهات ، الشريط الأسود

يستفزني ، أوتار عود شروق ما زالت ترن بأذني ، أسمع خشخشة قلائدها وحليها ، ما زالت ضحكتها وفرحتها بنتائج بحثها تحومان حولي ، ما الذي يدور هنا؟ رغبت بالوقوف لتمزيق الشريط ، شروق جميلة دونه .

قطعت ليلى حبل أفكاري ، وهي تميل نحوي لتهمس : جميعنا نعرف كيف أرغموها على الزواج من ابن عمها القروي الجاهل ، أراد أن يجمل فحولته بزواجه منها ، نعرف كيف عانت منه ومن شراسته وشكه ، ونعرف أيضًا سبب موتها ، وسبب النزيف الدماغي الذي يتحدثون عنه ، لا أحتمل هذا الخداع كله ، سأغادر القاعة . .

تركتني ليلى وحدى في مواجهة الشريط الأسود ، كانت هنا عزفت لحنها وغابت ، فرفعوا الصورة على الجدار ، ترقرقت دمعة في عيوني ، تعال ياحماري لأحدثك كانت شروق تحرك أصابعها الطويلة بمهارة على العود ، كما كان صاحبك يغني وهو يجلب لنا الخضار لبيوتنا ، هل تذكر أغنيته المفضلة كانت(لا صايرة ولا دايرة)؟ ترى هل مازال عود شروق في موضعه في بيتها؟ حاصرتني الأفكار من كل الجهات ، حتى عبرت ذبابة وأصرت على الالتصاق بي ، تركت غرفتي كهاربة تبحث عن ملجأ ، وبقيت الذبابة تطاردني ، قررت حينها التوقف عن العمل في بحثي العلمي عن الوسائل الممكنة لإخراس الغربان التي تنعق ليل نهار ، يجب عليّ العثور على حماري فهو

البحث الأهم ، وحده القادر على حل المشاكل كافة!

يزيد ذلك الرجل من تقطيب حاجبيه ، يرفع نظراته عاليًا ، كما يرفع الطاووس ذيله الملون ، ويواصل تقليب كتاب بين يديه ، فأتمنى إقبال الخريف مبكرًا لتتساقط ريشات ذلك الطاووس!

ودخلت مكتبة جامعة بغداد ، لأبحث عن كتاب فيه خصائص الحمير ، أو أية معلومة قد تفيدني في البحث عن حماري ، وعندما فتحت أحد الكتب سمعت صوتها :

أيتها العاشقة الفريدة وللباء الغائبة أكثر من حكاية ، فمرة أعلن قائد الظلمات قرارًا ، دفع بأميرة داخل القضبان ، أميرة المطلقة ترفض العودة للمركز ، إذن متهمة بالإرهاب ، قالت لا لنسر من النسور ، نقرها بين عينيها وطار ، أميرة ما زالت تبكي ، لا معين ولا مخلص ، يا الله ، إلا إذا قالت نعم ، وهي تقول لا ، ويكتم أنفاس زميلتها بالون ، بطنها المنفوخة فيها ورم ، رجسٌ يثير الغثيان ، ومواليد بلا ميلاد ، يتضاحك السَجان ورفاقه ، يلتهمون لُقما أخرى ، ويمضغون ، يمسح أحدهم فمه بظهر كفه ، يحرك لسانه بحركة دائرية ، والدجاجة الشهية عظام ، ويتسع رحم الكلبة لكل الأجناس ، والجاحظ فحلٌ جعلها خصلة فضيلة ، فحول يتناسخون من بابل وسومر ، تقودهم سلالة الغول الأسود ، تُخطف المواليد وتُرمى لدار الأيتام ، السترُ مطلوب ، والكبائر

عظام ، تفور أسرارٌ ولا بخار ، وتصر أميرة : لن أعود لك أيها الرجل! ورسالة سرية خلصونا يا أهلنا من العار والدنس ، تبدأ حرب الكواكب في السجن ، وتكتب الصحافة : اعتداء إرهابي على السجن . . . . . وصوت امرأة : كفوا عن عتابي أخاف ، تتداخل الأصوات ، فلا يميز أحد أي صوت!

ضعف صوت الخاتون وبدأت تجهش بالبكاء ، وسمعت سقوط بعض الكتب من الرفوف ، نظرت حولي ، وقفت والتفت بين رفوف المكتبة بحثًا عن مصدر الصوت ، لم أجد أحدًا ، نعم رأيت بضعة كتب على الأرض ، لكنني كنت وحدي في المكتبة ، وأعلنت مديرة المكتبة انتهاء الدوام الرسمي ، فوجب عليّ المغادرة ، غريبة هذه الحياة تبدو أشبه بمطاردة حلم لا ينتهي!

ورقة

. . لا أفهم كيف يمنحني أخي فاضل هديةً إلى الشيخ دهشان؟ هذا الرجل صاحب الشوارب الطويلة ، شواربه تشبه مكنسة عمي قاسم وهو يكنس الشوارع ، ولحيته تشبه صوف الخروف المبلول ، وتبث روائح نتنة ، كلما رأيته تنقلب في معدتي ، هل أنا لعبة يلعبون بها؟

تقول أمي إنه سيمنح أخي مبلغًا من المال ، ليفتح به حانوتًا لبيع الأحذية المستعملة ، فنعيش بشكل أفضل ، بنعمة

الأحذية ، وقالت إنه سيرعاني ، ويقدم لي أفضل الطعام والثياب ، لعله يوافق على ذهابي إلى المدرسة ، أنا أحب المدرسة ، لا . . . لست مرتاحة لهذا الأمر ، فهم يتهامسون كلما أقبلت ، ويسارعون إلى طردي من الغرفة ، ماذا سيفعل بي هذا الرجل؟ حدثتني ابنة عمي هيلة عن أمورٍ مخجلة تحدث بين النساء والرجال ، شيء معيب جدًا ، قد يعُرّي الرجل المرأة ، وعلى المرأة الطاعة . . . . يا ربي هذا مخجل حقًا ، إن أسنانه تشبه أنياب ذلك الكلب ، الذي أخاف خالتي أم مظلوم ، وهي تعمل في النفايات ، ليت أبي على قيد الحياة ، يقول عمي قاسم كان أبي حنونًا ، ويتبعني خنجر صاحب الذراع الواحدة أينما ذهبت ، إنه ينظر إليّ نظرات غير مريحة ، لا أعرف لم أعطاني بالأمس سندويشة (معلاق) لست مرتاحة له ، يجب أن أتحرك من هنا . . . .

رجل له ذراع واحدة يجمع الأولاد حوله ، يدخل أحد الأزقة في منطقة الكرادة داخل ، يصرخ :

– هيا قفوا بالدور وأروني أرزاق اليوم . .

يقف الأولاد واحدًا خلف الآخر ، يحمل كل منهم علبة كارتونية صغيرة فيها بعض النقود ، يتسلم خنجر منهم ، لكنه ينهال على صابر بعصا غليظة ، يضربه على ظهره وساقه ، ضربة تلو الأخرى ، يتلوى صابر ، ويحاول لم أطرافه نحو بطنه :

– أيها الحرامي . . كلب . . محصولك اليوم أقل من كل يوم ، أين أخفيت الباقي؟ . . ويواصل ضربه .

– والله لم أسرق ، صدقني الناس لم تعط من المال كالمعتاد ، الشارع الذي عملت فيه لم يمر أحد عليه ، قطع الطريق بعد الانفجارات اليوم . .

– كذاب كذاب . . . أُغرب عني ، لن تستلم شيئًا من أجرتك اليومية .

– عمي خنجر أقسم لك كنت أعمل منذ الفجر ، أحتاج أجرتي أرجوك .

– أغرب عني وإلاّ ذبحتك . .

ماذا سأقول لأمي اليوم؟ يا ربي أنت تعرف أنني لم أسرق ، ويجهش صابر بالبكاء ، يفرك عينيه ، يشعر بوجع في ظهره وأطرافه ، بالكاد يسحب جسده ، متثاقلاً مهمومًا في طريق عودته ، وفاضل هو الآخر كان مهمومًا . . . .

– يا عمي قاسم ، ها أنت تكنس الشوارع ، وتستلم راتبًا ، ماذا أفعل وأنا بساق مبتورة؟ حاولت بيع المحارم عند الإشارات المرورية فلم أتحمّل ، خنجر الذي سلفني رأس المال ، صار يأتيني كل يوم ويطلب ماله ، هل تصدق هددني بالقتل؟ . . يصمت قليلاً ، يهز قاسم رأسه ، ويواصل فاضل . . صحيح أن دموع تجلب مالاً من بيع الحلوى ، لكنّ برقبتي أولادٌ صغارٌ في السن ، أرسلهم للعمل أحيانًا مع خنجر وهو طماع ، لا يمنحهم إلاّ

القليل من المال ، أنا مسؤول عن إعالة أُسرتي ، لم يعد مصنع الإسمنت للعمل ، لكن ما العمل؟ لذا كان طلب الشيخ دهشان الزواج من أختي دموع مخرجًا لي ، فقد وعدني بفتح محل للأحذية المستعملة ، وسأكون صاحب المحل . .

– يا ولدي . . . هل تعتقد أنني مرتاح في كنس الشوارع؟ أنا رجل كبير ومريض ، أسحب أنفاسي بمشقة ، على الأقل أنت ما زلت شابًا ، رحم الله والدك ، كم طلبت منه أن يفر من تلك الحرب اللعينة ، لكنه رفض ، على الرغم من أننا قدمنا هدية للضابط كي لايعتبره غائبًا ، أخذ اللعين الهدية ، ولم يفِ بوعده ، اقترضنا المال حينها ، فأصبح يتشدد مع والدك المسكين أكثر ، آه يا ولدي ، تصورنا أن حالنا سيتحسن بعد تغير النظام في البلاد ، ولكن . . . دعنا صامتين أفضل . . . . حسبنا الله ونعم الوكيل . . .

يتوقف قليلاً وهو يضع يده تحت ذقنه فيواصل :

– الشيخ دهشان كبير في السن ، ودموع صغيرة وعنيدة يا ولدي . .

– ستتعلم يا عمي ستتعلم ، نحن معشر لا صغير لدينا ، لا أريد أن أفعل كما فعل الحاج صالح مع ابنته هيفاء ، هل تتذكر كيف انتهت حكايتها؟ . . .

– يهز قاسم رأسه . . . أصبت ياولدي . لكن لِمَ لا تصبر قليلاً يا فاضل لعل المصانع تعود للعمل؟ . .

– عـمي . . عـمي . . وإذا عـادت هل تعـتـقـد حـقًـا أنهم سيفكرون بأمثالي؟

يخـفض قـاسم رأسـه وفـاضل يتكـىء على عـصـاه . .بينمـا خنجر في الضفة الأخرى يحسب ما جمع الأولاد له من مال ، ويتوعد فاضل . .

(٤)

استوقفتني تلك السيدة في المرآب ، بعد انتهاء الدوام الرسمي ، لم أعرف إن كنتُ في حلم أم فيلم سينمائي ، أم تراني أخترع قصة لا وجود لها ، لأكتبها فتكون أول رواية لي . .

(الراوية في النص ، خارج النص في الملف ، جزء من النص مفقود ، تنتظر الحدث ، حين يموت الأبطال ، يجب ساعتها إعلان حالة من الحداد تشبه لون الشريط فوق صورة شروق) .

تتدلى من جهة كبدها قطعة لحم صغيرة ، رقيقة ، لا هي بالثابتة في موضع الكبد ، ولا هي تنفصل عنه ، كصخرة تقف على حافة جبل ، لا تسقط ولا تثبت ، لولا أن باطن كف يدها يسندها ، خشية انفصالها عن الكبد ، ويبدو أن أم كرار شقت شقًا صغيرًا من ثوبها ، لإظهار تلك القطعة المتدلية ، كانت خيوط حُمر سميكة تسيل من عينيها ، خيوط ثقيلة ، لا تتوقف عن الجريان ، كانت تقلص ملامح وجهها ، وهي تفترش الأرض في المرآب ، أخافني منظرها ، قلت لها عن بُعد وأنا أخشى الاقتراب ، فقد تكون هاربة من وحوش مزرعة الحيوان :

– ما هذا يا سيدتي؟ من الذي فعل بك هذا؟

تضاعفت سرعة جريان تلك الخطوط ، فانتفض كل ما فيها ، تهدج صوتها ، جاهدت لتحفظ توازنها ، ولا تتوازن :

– هذه قطعة اللحم من كبدي ، أخبرني الطبيب أنها مصابة بورم خبيث ، ولا أملك ثمن الدواء ، أخرجتها من شق ثوبي ، لعلها تتنفس الهواء الطلق ، فتعود لها عافيتها . . .

فجأة أماطت قطعة القماش التي تغطي كف يدها اليمنى . . .

رأيت مسامير كثيرة مغروسة في جلدها بطريقة منظمة وعجيبة! لست أدري لم ذكرتني بفزاعة الطيور! .

قالت لي مؤشرة بطرف إصبعها عليها : انظري ماذا فعل الورم الخبيث بي؟ لكني أتحمّل ، فقط تلك القطعة المتدلية من قلبي توجعني وجعًا شديدًا . . . .

– إلهي ما هذا يا خالة ، ابنتك صغيرة ، من أين جئتِ؟

– جئت من حي الأنصار في النجف الأشرف .

بدت لي كأن شيئًا فيها يحترق ، ولم أبصر دخانًا ، فبعض الحرائق بلا دخان ، بعضها بين الكلمات ، وبعضها في رواية ساخرة ، أشارت نحو الصغيرة : هذه قطعة من قلبي ، صمتت برهة ثم واصلت : الحي كله يواجه كارثة . . .

– حي الأنصار في النجف الأشرف . . ماذا هناك؟! لم تجبني!

عادت المرأة للبكاء ، أو الحريق ، في حين أقبلت بعض الطالبات والزميلات وقدمن ما أمكنهن تقديمه لها ، حتى

حملت ابنتها الصغيرة التى قدرتها بعمر خمس أو ست سنوات . . . وغادرتني كتلة الوجع الأحمر . .

بقيت عيناي مركزتين على اللوحة الإعلانية الكبيرة في المرآب ، كانت مربعة ، ضخمة بشكل غير طبيعي ، وعلى جانبها صورة لامرأة ترتدي حذاءً له أجنحة كبيرة ما جعلها بوضع الاستعداد للطيران ، وهي تفتح يديها كمن يسبح في الفضاء ، كطير جميل ، والقمر الفضي في زاوية بأعلى اللوحة ، بدت السيدة كأنها تسبح في الطريق إليه ، وكانت الكتابة تتوسط اللوحة بخط كبير بارز :

(الأحذية المجنحة تاج على رؤوس النساء باتجاه الخطوة التاريخية العظيمة على أرض القمر ، لنضيف إنجازًا جديدًا للمرأة العراقية في عصر الديمقراطية ، لنتوج به إنجازات هذه المرحلة التاريخية ، لذا رُصِدتْ ميزانية كبيرة لتحقيق هذا المنجز ، وعلى النساء كافة التواصل مع مسؤول الحصة التموينية في مناطقهن لاستلام الأدوات اللازمة لعملية الطيران ، ومن تخالف تتحمل المسؤولية القانونية . . .)

اللجنة الخاصة بمشروع طيران النساء باتجاه القمر

للاستفسار الاتصال على الهواتف أدناه أو البريد الالكتروني :

٠٧٩٠٠٠٠٠١٢٣

٠٧٧٠٠٠٠٠٢٢٣

iraqiwomentomoon@yahoo.com

ورغم أسلوب التهديد في الإعلان ، لكنني لم أهتم كثيرًا ، فلن أطير إلاّ بمركبة فضائية ، ولكل معضلة حل عند النساء ، عندما يتوقفن عن البكاء ، ومع هذا قمت بتسجيل أرقام الهواتف والعنوان البريدي من يدري ربما أحتاجهما لاحقًا . .

وبقيت أتجول في مناطق بغداد بحثًا عن حماري ، فقادتني أقدام طفولتي نحو حديقة الأمة ، فتذكرت حماري الذهبي الذي أضعته وأنا طفلة ، وما إن دخلت حتى رأيت الخاتون ذاتها تتربع على الحشائش بثوبها الهاشمي ، بدت لى كوردة مختلفة عن باقي الورود ، قررت هذه المرة ألاّ تفر مني ، تربعت أمامها فوق الحشيش وسألتها : لماذا تهربين مني؟

أجابت مبتسمة : أنا لا أهرب منك مطلقًا اسمعي :

أيتها العاشقة الفريدة ولم يسمع أحد صوت هيفاء أيضا ، فالصخب والضجيج كان عاليا ، و تنكمش هيفاء على نفسها ، تضم يديها وساقيها ، نحو صدرها ، وصدى الأمس في المكان ، ابنتك جميلة يا امرأة ، عيناها كعيني العاهرة ، ستجلب الفضيحة ، يفتح السرداب بابه ، وهل للسرداب باب؟ كلا حجارة كبيرة ، الطعام والماء يُدفع من طرف السرداب ، جرّوها من ثوبها البالي ، فاجأتها الشمس ، أغمضت جفنيها ، وسافرت الأم لوادي النسيان ، قلت لكِ ستثير شهوة الرجال ، أنا رجل أخاف غضب الله ، تكورت هي وتكورت ، تخاف الشمس ، عاشت في الظلمات مع

الحيات ، تداعب العقارب ، تدور حولها الحشرات ، يزحف هيكل عظمي ، عيناها خضراوان ، تلتمع كما القطط ، تبكي امرأة طفلتها ، تتوسل كيف يا حاج؟!

يرتفع الزئير وفي الوعيد مقبرة الانتظار ، قلت لك أخاف عليها دنس الرجال ، توارت ثلاثين عاما في السرداب ، تعلمت المواء ، ورافقت الكلاب ، وصوت : أليس من يترجم لنا؟ يا حاج صالح تصورنا أنك تخفي إرهابيا في السرداب .!

ابتعدت الخفافيش ، عاد الزئير : لعنة الله عليك ، حتى النطق لا تجيدينه ، فضحتِنا ، هل نحن ارهابيون؟ . يعوي المخلوق الغريب ، تخرج الخنفساء من السرداب وتصيح : ما بالكم يا قوم كعبة الله واحدة وليس سواها مركز ، فلا يكترث بها أحد! .

سألتها عن تفاصيل حكاية هيفاء ، صمتت الخاتون ، أغمضت عيني أفكر في كلامها ، وما هي إلا لحظات حتى فتحت عيني ، فلم أجد أحدًا معي! صحت بصوتي : خاتون . . يا خاتون .أين ذهبتِ؟ لم يجبني إلاّ دوي انفجار بعيد ، خفت كثيرًا أن تكون قد . . . لا . . . لا يمكن . . . الخاتون لن تصبح رقمًا لأنها كل الأرقام .!

غادرت حديقة الأمة ، وأنا أفكر بالأرقام الحقيقية التي سينجبها رحم ذلك الانفجار ، أرعبتني فكرة ولادة الموت ، هربت للتفكير في الخاتون وكلامها ، بالتأكيد خرجتْ من

الحديقة لسبب ما ، أنا واثقة أنها لم تصب بسوء ، لكنني قررت تجاهلها ، فحماري هو الأهم ، فكرت بسبب اختفائه ، ترى أين ذهب؟ كم أخشى أن يستغله أحد الإرهابيين ويفخخه ، فالأخبار تقول بظاهرة تفخيخ جماعي للحمير في بغداد ، الجميع هنا مشروع فني للتفخيخ ، ما الذي يدور في هذه البلاد التي لم أعد أعرفها؟ وعدت لحيرة الأمس . . .

رأيت الناس يهرولون في إحدى مناطق بغداد ، كان الرجال والنساء والشباب والصغار وكبار السن والباعة والعمال والطلاب ورجال الأمن والشرطة والمتسولون وحتى هؤلاء الذين يقفون في نقاط التفتيش كانوا جميعًا يركضون ، بدوا أشبه بفيضان مندفع من البشر ، فيضان لم يجد سدًا يوقفه ، لعل كلاً منهم يركض خلف حماره مثلي ، كان المنظر مهيبًا ، يدل على الحركة التي تعني الحياة ، كنت الوحيدة التي لم تركض ، فلم أجد حماري بعد ، أردت الاستفسار عن حالة الهرولة هذه ، فسألت أحدهم لِمَ تركضون؟ أجابني وهو يركض بأنه لا يعرف ، وأنه وجد الآخرين يركضون وصار يفعل مثلهم .! سألت آخرَ السؤال نفسه فنظر لي باستهجان وقال : من أين أنتِ؟ لم أعرف الرد عليه ؛ لأنني صرت أشك بنفسي ومن أين جئت؟ واضطررت إلى الركض مثلهم ، فأن يركض الجمع وتبقى وحدك تتفرج ، سيجلب لك هذا الصداع والدوار ، ركضت معهم كي لا يدفعني أحدهم أو يركلني وهو يركض في كل هذه الحماسة الوطنية ، ولم أعرف

أين أتوجه؟ حتى وجدتني في منطقة أخرى ، كان قومها ساكنين ، وأحوالهم طبيعية ، أكانت طبيعية؟ لست أدري بدوا لي هادئين أكثر من اللزوم ، فلا صوت ولا ضجيج ، ولا أي حركة ، كأنهم تماثيل في أماكنها ، ولا شأن لهم بما يحدث في المنطقة المجاورة .! فأسرعت بالابتعاد عنهم ، كي لا أتجمد كتمثال يشبههم ، فتمنيت أن يظهر حماري النادر لأكف عن الدخول في دهاليز بغداد العجيبة . .

قال لي مرة المرحوم زكي إن حماره مختلف في لونه ؛ لأنه من نوعية نادرة جِّدا وغالية الثمن يسمونها بالشهري ، هو الأبيض ناصع البياض ، وغالبية حمير العراق سوداء اللون أو رمادية ، تراكمت علي القضايا ، صرت أخلط هذه بتلك ، شعرت بالحاجة للحوار معه ، أفكر برسمه بشكله الذي أحببته فيه ، المهم أنني سأعمل على إدخال حماري الأبيض إلى السرد العراقي في كل احترام ، وبهذا أمنحه امتيازًا على بقية الحيوانات ، حتى وإن كان حبي الآن في السر لكن اللحظة الملائمة لإعلانه ستحين ، فلكل مقام مقال . .

في اليوم التالي تحركت لمواصلة البحث منذ الفجر ، وقد قررت هذه المرة أن أبدأ البحث في مكان قريب في (شارع القادسية) حيث التقيته أول مرة ، وقطعت كل المسافة من (جسر الجادرية) حتى (الكرادة داخل) سيرا على الأقدام ، وصلت إلى (منطقة إرخيته) فبحثت في الفروع والأزقة ، لم

أجده ، داهمني التعب واليأس ، فتوجهت نحو شارع أبي نؤاس ، لعله أراد التنزه على ضفاف نهر دجلة ، لعله يبحث عن علف هناك ، أو ربما أراد الالتحاق بإحدى الإتان ، وهي تلعب معه لعبة التواري بين الشخصيات ، فلمحت تجمعًا كبيرًا للجماهير ، قرب تمثال شهرزاد ، وعندما استفسرت ، أخبروني أن هناك مباراة لكرة القدم بين العشائر العراقية وأنصارها ستبدأ بعد قليل ، استغربت : مباراة كرة قدم في الصباح الباكر! عجيب ثم إنه شارع ضيق ولا يصلح أصلاً للعب كرة القدم!!

ولم تحدثني جدتي بَسْعاد رحمها الله عن المعاهدات العشائرية بين عشيرتنا والعشائر الأخرى ، رغم أن جدي شيخ عشيرة معروفة ، ويفرض هذا عليّ الولاءات العشائرية ، فوقعت في الحيرة أي العشيرتين اللاعبتين سأشجع! قررت أن أكتفي بمتعة المشاهدة مؤقتًا ، حتى أبحث لاحقًا عن طبيعة علاقاتنا العشائرية ، بحثي الحالي يتركز على حماري ، لا أستطيع البحث في قضيتين في آن واحد .!

هنا بغداد والألعاب النارية ، والخيمتان متقابلتان في الشارع ، ويضج الربع الخالي بصليل السيوف ، ولا عنترة بينهم يود تقبيل السيوف ، لأنها لمعت كثغر عبلة ، ليس إلا رجال مدججون بكواتم الصوت ، ويضعون في أصابعهم خواتم بأحجار ملونة ، وكانت شهرزاد تحكي لشهريار ، من سينقذ الحكاءة الأولى من مصيرها المحتوم؟! ماذا سيفعلون بها وهم يلعبون في ساحتها؟!

مضيف بني قشمر ومضيف بني ساذج ، بينهما ملعب مستحدث ، لكل بيدقه ووزيره ، لا فرس مكر مفر ، ولا ذاك المقبل ، المسافة الفاصلة ملعب لكرة القدم ، والمشجعون في الشارع المقابل ، شارع متعاكس في الاتجاه ، تُرفع الستارة بخفة ، ظهر اللاعبون بمظلة صناعة الواق واق ، لا يونس محمود يلعب ، ولا نور صبري يحرس المرمى ، موائد ضخمة شهية داخل المضيفين ، تُستعرض العرضات العشائرية ، ثم قبلات نارية من الرجال للسماء ، تسقط قبلة نار على رأس طفل يشجع ، تترك برأسه نفقًا ، وتشج قلب أمه ، لتلعن اللعبة والملعب ، لكل فريق بوقه ومشجعوه ، بدوا أشبه بدمى رؤوسها محشوة بالقش ، ومعلقة بخيوط فوق السحاب ، خيوط تمتد وتلتف على مسمار في جدار مركز التجارة العالمي ، وإذا للمركز أنقاض وضحايا ، علقوا صورهم في المتحف هناك ، ولمشجعي اللعبة في شارع أبي نؤاس الأهازيج والقصائد :

ودقوا القهوة وزيدوها هيل . . يا رجال

واحنا سباع الملعب . . .

عاد اللاعبون في الشوط الثاني ، بعد التهام العيون والألسنة في رؤوس الخرفان ، والقطيع متنوع ، منهم من حملته العصا إلى المذبح ، ومنهم بلا عصا توجه إلى المذبح ، دارت الكرة ، دار المشجعون باتجاهها ، الكرة بين اللاعبين ، ويركض المشجعون بالاتجاه المعاكس ، حيث لا كرة ولا ملعب .

(أمل عليك الحذر ، شهريار وحده يحميك اليوم ، عليك التواري خلفه!)

رم اللاعبون في العالم البعيد مركز التجارة العالمي ، فارتفع البنيان ، والمشجعون هنا ما زالوا يتدافعون ، منذ سنوات وهم يتدافعون ، الخطابات على أسنة الرماح ، جلجلة ضخمة ، منظمة الفيفا تصرح : لعبة كرة القدم العراقية لا تلتزم بالمعايير الدولية .! .

لا شأن لنا بالمعايير الدولية ، الملعب ملعبنا ، . . ودقوا القهوة وزيدوها هيل يا رجال . . واحنا سباع الملعب . . .

يركض المشجعون ، تزداد قوة الركلات ، وتقبل الضربات القاضية ، كلهم يتعثر ، ترتفع الحماسة ، ينحت النهر القرمزي مجراه على الخارطة الجديدة ، يتبادل أبطال الملعب المواقع ، ولا مرمى لهم إلاّ جوف الخيام ، حيث الموائد مخصصة للاعبين دون المشجعين! .

جميع اللاعبين بلا آذان ، شواربهم كثيفة ، طويلة ، مصففة بعناية ، كمكنسة الساحرة ، مجنحة ولا تطير ، ولا تكنس المكان ، يغادرون الملعب ، وتبقى النفايات ، والأحذية المترامية ، تتعالى آهات من أقبلوا للتشجيع ، فنالوا ما نالوا ، ولا عربة إسعاف تقبل ، تعطلت أجهزة النقال ، دائرة البلدية عاجزة ، يصرح صاحبها ذو الشارب الأسود المفروش العريض إنه الطلاء الجديد لشارع أبي نؤاس أيها السادة . .

نظرت إليهم فقلت لنفسي :

ليت حماري هنا لجعلتهم يركبونه واحدًا تلو الآخر بالمقلوب ، عقوبة لهم ، كما كان يفعل الأسلاف بالمذنبين ، هم محض أطفال غير مهذبين ، تنقصهم التربية ، أين أمهاتهم؟ يالجريمتهم الشنعاء ، اختفوا جميعهم ، عندما طارت كرتهم فأصابت الذراع اليسرى لشهرزاد فكسرتها ، شياطين لم تنجبهم امرأة .! . .

ركضت بسرعة ، ودخلت أحد الأفرع الجانبية ، لم ألتفت خلفي ، تحركت باتجاه مشفى الراهبات ، كان همي ساعتها استدعاء أي طبيب ليجبر ذراع شهرزاد المكسور! . .

وصلت لاهثة إلى باب المشفى ، وجدت رجلاً أجنبي الملامح ، يجلس في المدخل ، يجتمع حوله قوم غرباء ، بدوا لى من عصور زمنية أخرى ، لم أستغرب فهذه بغداد اختلطت أزمنتها ، كان الرجل يتكلم كلمات بالفرنسية ، يحيط به الآخرون ، يصفقون له ، ورجل آخر يترجم :

(لا تعجبني النساء الدكتورات
وأوافق على أن تفهم المرأة كل شيء
ولكنني لا أريد لها الهواية المخجلة
لكي تصبح عالمة من أجل أن تكون عالمة)

سألت المترجم : من هذا المتحدث؟ ومن هؤلاء الذين يجتمعون حوله؟

– إنه كليتاندر بطل موليير ، وحوله أفلاطون وأرسطو وجان جاك روسو ونيتشه وسقراط وفرويد وأصدقاؤهم . .

قلت له : حسنا . . . وهل هم هاربون من مباراة أصحاب الشوارب الكبيرة التي كانت في شارع أبي نؤاس ، وتجمعوا هنا ليتناقشوا بقضايا النساء؟!

لم أنتظر الرد . . . . تذكرت حديث الخاتون عن شهرزاد ، فهي لن تحتاج طبيبًا ، تركتهم وشأنهم ليواصلوا حديثهم ، أما أنا فيجب علي التركيز على مهمتي فحسب . . . .

آه يا حماري . . انظر أنا بين قوم كل ما فعلوه كسر ذراع شهرزاد ، ولعب كرة القدم ، والتهام رؤوس الخرفان ، ثم يتفاخرون بطول شواربهم ، ترى هل لهؤلاء علاقة بقضية اغتيال صاحبك المرحوم زكي؟ فالمرحوم كان يحب كرة القدم!

ورقة

تكالبت العلل والأوجاع في محلة ١٢٤– حي الأنصار في النجف الأشرف ، بصورة غريبة ، في كل بيت على الأقل مريض واحد ، فاقتلاع بذور الموت الشامل في الأراضي العراقية من قبل لجان النبش الدولية والغيلان السابقة بموجب القرار المرقم ١٢٨٤ في ١٧ ديسمبر ١٩٩٩ كان عن طريق طمرها في التربة .

كما قامت الغيلان وخدمها بتفتيت بذور الموت الشامل

بطرق بدائيــة وعــشــوائيــة ، وتم رمي بعــضــهــا في الأنهــار والبحيرات ، ما أدى إلى نثر دقيقها في التربة والمياه بشكليها السطحي والجوفي ، كما انتشرت سحابات شعاعية في مدن وسط وجنوب العــراق كــافــة في أيلول ٢٠٠٣ ، أطلقــوا عليــهــا اليورانيوم ، والفوسفور الأبيض الذي ستحمله العفاريت وعشائر الجن وتدور به في مدن العراق كافة لمدة أربعة مليارات و٥٠٠ عام . هذه بذور الموت الآخر التي ستنبت لكم وروده السامة كل ربيع عراقي أسود ، لا ربيع هنري ميلر . .

وفي الربيع الآخر كانت الشابة لهيب تصرّ على دراسة القانون ، بعد أن أنهت دراستها الإعدادية : أمي سأكون أفضل محاميـة في العراق ، بل في الوطن العربي كله ، سأدافع عن حقوق البشر بميزان الحق والقانون يا أمي ، انظري لقد اشتريت كل كتب القانون من المكتبات يجب أن أكون مجتهدة سأقرأها كلها في العطلة ، أحب القانون يا أمي أحبه من كل عقلي . .

تبتسم لها الأم ، وتعلق حول عنقها سلسلة ذهبية في نهايتها صليبٌ ليحميها من السوء ، هدية لها على تفوقها ، تضحك لهيب وتداعب سلسلتها وتعدل وردتها الحمراء وسط شعرها ، وهي تقف في ساحة الخلاني ببغداد ، من منكم رأى لهيب؟ ذهبت إلى السوربون ، عادت من السوربون ، كلا إنها في بغداد ، حسنا انتظروا أيها الزبائن ستعود لكم الأستاذة!

(٥)

استيقظت باكرًا وأنا أفكر بفهيمة التي رزقت بنتًا ، فهيمة صديقتي منذ الدراسة الجامعية ، إنها أجمل الفتيات في قسمنا ، فالعينان عسليتان كبيرتان ، وبشرتها بيضاء ، ولها فم وأنف صغيران ، وقامة رشيقة طويلة ، مع شعر فاحم السواد يصل لمنتصف ظهرها ، كانت محبوبة من جميع الشباب والرجال ، أشعر بالسعادة لأجلها ، إنها امرأة مكافحة بكل معنى الكلمة ، تعشق القراءة ولاسيما الفكر والفلسفة ، وبعد استشهاد والدها في إحدى المعارك العنترية ، وجدت نفسها تعيل عائلة من خمسة أفراد ، والدتها المريضة وإخوتها الصغار ، كانت حينها في منتصف دراستها الجامعية ، فأجلت دراستها لعام واحد ، عملت فيه صباحًا ومساءً ، نظمت خلاله شؤون عائلتها ، لكنها شأن كل الجميلات غير محظوظة ، إذ ماتت والدتها بالمرض الخبيث ، ما زداد حزنها وهمها ، فقاومت ، وعادت لتلتحق بدراستها مساءً ، لتواصل العمل صباحًا ، مارست أكثر من عمل في وقت واحد ، ورفضت عروض الزواج كافة التي قُدمت لها ، خشية أن يعطلها هذا عن رعاية إخوتها :

– إنهم يا أمل يقومون بالاستعراض الفني ، والحديث عن أنفسهم ومنجزاتهم كلما تعرفوا على امرأة . .

– وما الضرر في هذا؟ لعلهم يريدون إقناعك بشخصياتهم؟

– لا يا عزيزتي ، أحتاج رجلاً يسمعني ويفهمني ، لا يستعرض نفسه عليّ كلما رآني أقرأ في كتاب جعل من نفسه القارىء الأعظم في الكون ، كأنه في مباراة معي ، إنهم يشعرون بعقدة نقص من النساء المجدات في العمل ، وإلاّ لمَ يكذبون في كل شيء؟!

– مهلا يا فهيمة لا تظلميهم ، البشر متنوعون في الصفات ، لعلك لم تعثري على الرجل المناسب فتقولين هذا .

– أغلبهم يعتقدون أنهم مركز العالم ، هل تتذكرين الطبيب الذي خطبني وعندما اعتذرت ، لم يعد يسلم عليّ عندما يلتقيني ، تلك الحالة تتكرر معي ، يشعرون بإهانة ذكوريتهم لو رفضت المرأة عروضهم ، بل أحدهم ألقى عليّ خطبة عصماء عن شروطه التي يريدها بزوجته ، دون أن يفكر بشروط من ستقبل به! . .

– يا عزيزتي كفي عن هذا التفكير . .لن تغيري العالم . .

تذكرت قصتها ، شعرت بالفخر كونها صديقتي ، تزوجت أخيرا العام الماضي بطريقة تقليدية ، وتنازلت عن أفكارها تلك ، بعدما شعرت بالوحدة ، بعد هجرة إخوتها ، وتمنت أن يرزقها الله بفتاة ، كانت خائفة ؛ لأنها أصبحت كبيرة بعض الشيء

عن السن المعتاد للإنجاب ، وها قد حقق الله لها مناها ، آه يا فهيمة ، ستهاجرين قريبا للالتحاق بزوجك ، شعرت بالحزن لفراقها القادم ، ولأن الوقت كان مبكرًا لزيارتها في المشفى كما اتفقت مع ليلى ، جلست أضع لنفسي خريطة طريق جغرافية جديدة ، لأعرف كيف سأوجه بحثي الجديد عن حماري في مناطق بغداد ، لليوم التالي ، وفجأة رن هاتفي النقال :

أيتها العاشقة الفريدة تصغي شهرزاد لحديث الخنفساء ، فلا تصمت عن الكلام ال لا مباح ، ملالا يوسف(*) هزها الحدث ، وقالت عن الجناة : (لقد ظنوا أن كراتهم ستكسرنا ، لكنهم مخطئون) ، العلّامة الوردي يحتار بتفسير الظاهرة ، ليعلن اعتزاله البحث العلمي عن أصول اللعبة العراقية ، ولأن عمر الأنين عتيق منذ فجر السلالات ، يتلون الوجع ، يتفرع ، يتجدد ، و تصب شهرزاد قطرات دمها في النهر القريب ، تجبر ذراعها بالطين ، تنتعش ، وكلما تغير التاريخ في الدرس المدرسي ، يبقى شهريار كل همه الحكاية ، ولن يلتقط أنين ذراعها ، فهو يستمتع بالخدعة ، وهي تواصل السرد وتجبير الذراع في آن واحد . .!

(*) ملالا يوسف شابة باكستانية دعت لتعليم الفتيات ، فتعرضت لإطلاق نار ونجت من الموت بأُعجوبة فقالت عن الجناة في الأمم المتحدة (لقد ظنوا أن الرصاص سيؤدي إلى إسكاتنا) .

وسرعان ما انقطع الاتصال ، وكان من رقم خاص . . . حمدت الله أنها لم تحصل على رقم إذن ، أي ما زالت تحت اسم الخاتون ، بدأت أتعود على وجودها معي ، يا لهذه السيدة العجيبة كم هي غريبة وظريفة ، صرت أضحك . . .

عدت إلى همي ، فكتبت رسالة إلكترونية إلى منظمة دولية جاءت إلى العراق ، لتعمل على إنقاذ الحمير لما تتعرض له من استغلال و إرهاب وقتل ، وقد أشار إليها الروائي العراقي نجم والي بمقالة في إحدى الصحف ، حيث قامت تلك المنظمة بنقل حمار اسمه بيبو وهو نادر النوع من إحدى الدول المجاورة إلى ألمانيا ، ومنحته لجوءاً وإقامة هناك ، وكان ذلك الحمار في خطر كبير بسبب الحرب الأهلية الدائرة في تلك الدولة ، وتأكدت من مصداقية الخبر ، ونقبت في المصادر فوجدت أن بعضهم يضعون على الحمير صور من يسبب لهم الإيذاء ، ومن ثم يرجمونها ليقتلوها لاحقًا ، خفت أن يفعل أحد هذا بحماري ، أو يؤذيه بأي شكل ، خشيت أن يدخلوا حماري بلعبة كرة القدم التالية ، لاسيما أن هناك إعلاناً عن لعبة قدم أخرى للعشائر الدولية ستكون قرب (ساحة كهرمانة) وسط بغداد ، إلهي ماذا سيكون مصيره لو دخل بين ذلك الجمع؟ تساءلت هل نقلت تلك المنظمة حماري أيضا؟! لكنني لا أعتقد فهم جاؤوا حديثا قبل أيام ، كنت متفائلة جدًا فتركت لهم برسالتي ورقم هاتفي النقال ، ووضعت مواصفات حماري ،

فلونه أبيض نادر ويضع كوفية ملونة حول عنقه ، لعلهم عثروا عليه ، أو قد يعثرون عليه لاحقًا بين الحمير الضالة أو المهددة التي سيقومون بإنقاذها ، كتبت لهم أنني أملك مزرعة وقد هرب بعد حدوث انفجار ، خشيت أن أخبرهم بقصة حبي ومشروعي الوطني كي لا يعملوا على التدخل في الشؤون الداخلية للوطن ، إنهم قوم أجانب ، ولست واثقة تمامًا من حقيقة نواياهم ، كما لا أريد أن يتهمني أحد بالعمالة لأية دولة أجنبية ، فتتحول قضيتي العاطفية لقضية سياسية ، بسبب الحمار! وأرسلت رسالتي . .

(بماء الورد عجنك الإله يا صغيرتي ، وخلط فيك بذورًا متنوعة من الآه ، سينبت جسدك ثمارًا متنوعة الأوجاع ، ستعانين غربة الثمرة في الشجرة ، انتظري موعد القطاف ، ومتى ستوضعين مع الجمع في السلة ، إحملي في رأسك عقل حمامة ، خفيفة وديعة ، الحمامة لا تناقش لا تجادل ، لا تفكر أصلاً ، ما حاجتها للفكرة ، أرأيتِ يومًا حمامة فيلسوفة أو وزيرة أو حتى مختارًا لمحلة؟!

كلما فقدوا سلطانهم فتشوا عنكِ وصبوا على حجمك الفتوة ، ينفطر قلبي عليك يا صغيرتي ؛ لأنهم سيحملونك وزر التاريخ بأسره ، أنتِ من عطل الأمطار ، ونهب الغيمة ، نبية منك لم يجعل رب السماوات ، إذن ناقصة الحكمة ، أتقولين هناك ألف قديسة؟ حبيبتي هل يخدعونك؟ إن النبوة ذكورة ،

ابن عربي كان ملحدًا ، وابن حزم شذ عن القاعدة ، فلا تطرقي الأبواب الممنوعة المقفلة ، تعقلي ملكات التاريخ كنَّ مسرحًا للغدر ، أُتُهمن بالفسق والفجور ، ثم قالوا لا ملكة مخلصة ، لا تخــرجي عن القطيع يا صــغــيــرتي ، لا تفكري بحل أية معضلة) . . .

ما الذي تقوله هذه المجنونة لطفلتها؟ دفعت باب الغرفة ، ودخلت مع ليلى حيث ترقد فهيمة في المشفى ، قلت لها : عزيزتى فهيمة حمدًا لله على سلامتك ، جئنا نبارك لك ، فوجدناك في حال من الهلوسة! .

. . بكت فهيمة . . . .

تقدمت ليلى وأخذت منها الطفلة ، ووضعتها في سريرها الصغير :

– يا حبيبتي إنها رائعة ، ليحفظها الله ، لكن لم تبكين؟ عليك الحذر من كآبة الولادة فهي تصاحب بعض النسوة أحيانًا . .

قاطعتها : أشكري الله أن طفلتك جميلة سليمة الخلقة ، أولا تعرفين ارتفاع معدلات التشوه والوفاة في الولادات في الآونة الأخيرة ؟

مسحت فهيمة دموعها وأجابت : نعم صحيح ، صرخت إحداهن اليوم بصوتٍ عالٍ عندما ولدت طفلا مشوه الخلقة ، وصفوه بالطفل الضفدع فهو بلا قحف ، أخبروني أنها جاءت

من الفلوجة ، وقالت الممرضة إن تلك الحالات من التشوهات الخلقية في ارتفاع مستمر ، حيث ولدت قبل أُسبوع طفلة بمتلازمة داندي وولكر ، يكون الدماغ فيها منقسمًا إلى نصفين ويشمل التشوه المخيخ . . صمتت قليلا ثم واصلت . . . تصوروا رفضت جدتها أم والدها الحضور ؛ لأنها أنثى ، أصبت بإحباط كبير ، تعرفون أن والدها سافر بعد فك أسره من الخاطفين ، وبيع بيتنا لدفع الفدية ، وأنا مضطرة للبقاء مع جدتها حيث هاجر جميع إخوتي ، أنتظر أن يرسل لي زوجي دعوة للالتحاق به ، نعم أشعر بكآبة . .

قالت لها ليلى : دعكِ من هذا خبرينا وماذا أسميتم هذه الجميلة؟

– أبوها يريد أن يسميها وطن .

– قلت لها : وطن! .

ابتسمت فهيمة : لقد كلمني اليوم وقال هذا ، ولست في مزاج طيب لأجادله . .

سألتها : وما أخبار إخوتك؟ اليوم وأنا أتذكر حياتك يا عزيزتي شعرت بالإعجاب بكِ ، لقد صنعت رجالاً حقا ، كنت لهم الأم والأب ، صنعت الطبيب والمهندس ، والباحث الاجتماعي والفنان المسرحي ، عليك الآن الالتفات لنفسك ولطفلتك ، فأنت لم تتركي عملاً إلاّ ومارسته لتغطية نفقاتهم .

تبتسم فهيمة : فعلا إنهم أولادي ، إنهم بخير جميعًا ، كل

واحد منهم بمكان ، هكذا حال العراقيين ، أفتقدهم كثيرًا ، وأعذرهم لقلة سؤالهم عني ، للغربة شجونها . .

– تحملي عزيزتي على الأقل قد أمنتِ لهم حياة طيبة ، ويستطيعون شق دربهم ، لعل الله يجمعكم ثانية .

عادت فهيمة إلى البكاء ، فرغبت بسحبها من عالم الفراق العراقي وبسرعة قلت :

– اسمعي يا فهيمة ما رأيك بمشروع طيران النساء ، هل سمعتِ عنه؟ ليلى ترفضه؟

– سمعت عنه يا أمل . . . إنه محض هراء ما هذا؟ أي طيران ، أين المنطق؟ تضحك فهيمة وتواصل : بالتأكيد هنالك أهداف خفية .

– منطق؟ عجيب سؤالك؟ سيدتي الجميلة يا أم وطن هنا خارج التغطية!

– لا بأس وفي كل الأحوال شخصيا أريد السفر إلى كندا والالتحاق بزوجي هناك لا الطيران إلى القمر . .

قاطعتنا ليلى : طبعا أرفضه ، الطيران إلى القمر ليس من ضمن أحلامي . .

أجبتهم : أما أنا فأتقبل الفكرة لكني أرفض الوسيلة ؛ لأنني أريد الطيران بمركبة فضائية نحو القمر ، ما الضرر من تجربة ومغامرة جديدة؟ . . كنت أحلم سرًا بحمل حماري مع بابا نوئيل داخل المركبة .

ردت فهيمة : فكري بمنطق يا أمل . .

تضحك ليلى : لديك وجهة نظر يا أمل ، ودعكِ يا فهيمة من نقاش عقيم عن المنطق ، علينا أن نكون واقعيات ونواجه الحدث ، فهذا هو المطروح في الساحة اليوم ، واضح أننا رافضات للطيران سواء رفضنا الفكرة أو الوسيلة ، لكنني أخشى من ملاحقة النساء الرافضات ، ففي الإعلان عبارة تلمح بالمسؤولية القانونية للمخالفات . .

أجبتها : وكأننا في معركة غريبة ، فرضت علينا .

وحل علينا صمت ثقيل لم يقطعه إلاّ دوي انفجار . . فصاحت ليلى : الله أكبر . . . وهاتفت زوجها للاطمئنان عليه . . ثم التفتت نحونا قائلة : لنعد لقضيتنا ، لم تعد هذه الانفجارات حدثًا مؤثرًا ، المؤثر حقًا هو مشروعهم لطيران النساء . . وابتسمت

أجبتها : صدقت يا ليلى . . .

وعاد الصمت الثقيل . . . فقطعتُه . . اسمعوا أولاً يجب أن نراقب الوضع عن كثب ، ونرى ردة فعل بقية النسوة ، وإذا أصبح الأمر حقيقة إلزاميًا ، ما علينا إلاّ شراء هويات جديدة ، فالمرحوم زكي صاحب بسطة الخضار أخبرني أنه يستعمل عدة هويات في بغداد ، يبرز إحداها حسب مقتضيات الحاجة! . .

– ردت السيدتان مستغربتان : هويات جديدة؟!

– نعم يجب أن نراوغ ، هويات جديدة ، فالطيران بالمرحلة

الأولى سيكون مخصصًا للنساء من مواليد بغداد ، علينا الحصول على هويات تجعلنا من مواليد المحافظات ، هكذا ننجو من تجربتهم الأولى على الأقل ، ثم نراقب الوضع لاحقًا أو نبدل الهوية أو نحدد الخطوة التالية ، فلكل مقام مقال ، لاحظن أننا مضطرات لفعل هذا ، فلا نعرف ماذا سيفعلون بالنسوة الرافضات؟ أفكر بالمطالبة بمركبة فضائية للطيران ، ربما أكتب لأطالب اللجنة بهذا ، سأضع اسمًا مستعارًا ، يجب الحذر يا صديقات . .

– فكرتك معقولة يا أمل ، سأجلب لكما هويات جديدة ، يعرف زوجي رجلاً يبيعها ، ثم وقفت ليلى قرب سرير فهيمة ، ومدت كف يدها مقلوبًا وقالت هيا ضعوا كفوفكم فوق كفي ، ففعلنا ، رددت ليلى : في الاتحاد قوة ، لن نطير إلاّ عندما نريد ، وبطرقنا الخاصة . . .

التفتت إليّ فهيمة وبلغة جادة قالت : ماذا عن حبيبك ؟

فوجئت فلا أحد يعرف شيئًا عن قصة حبي للحمار ، بالتأكيد أنها تقصد حبيبي الأول :

– باختصار شديد هجرته ، رفض إطالة أذنيه ، إن استراتيجية السمع لديه بعيدة المدى ، ولا تشمل المدى القريب ، إنه مريض بداء العظمة! . .

– يا أمل لن تجدي رجلاً يرضيك مطلقًا ، تريدينه صاحب آذان طويلة وطويل القامة ، وتضعين شروطًا غريبة ، كأنك تريدين حمارًا ، إذن يجب أن تحبي حمارًا ، فهو لن يكون

نرجسيًا مطلقًا .! . . وضحكت فهيمة طويلاً . .

التمعت عيناي ببريق ، عبرت نظرتي نحو النافذة ، هل أكشف سري لهن؟ كلا لن أكشفه ، اكتفيت بالابتسامة وهمست لنفسي : نعم وجدت حمارًا بهذه المواصفات . سأجده سأصلح معه كل الأوضاع . . .

– ماذا تقولين يا أمل؟ . . .

– لا لا شيء يا فهيمة .

ضحكنا معا . . بينما بدت ليلى صامتة واجمة ، كمن راح في حلم بعيد ، فالتفتُ نحوها :

– ما بالك يا ليلى ؟

– نعم . . نعم . . لا شيء فقد تذكرت هذا المشفى ، دخلته العام الماضي في هذا الوقت نفسه . . . سكتت . . . . . وتلألأت عيناها .

قالت لها فهيمة : يا حبيبتي عليك أن تنسي كل المواجع . .

– لا تقلقوا أنا بخير فقط هي الذكرى لا أكثر . .

– حسنا . . حسنا . . . عزيزتنا فهيمة سنغادرك لترتاحي ، وإياك والتفكير بالمنطق ، كتب المنطق والفكر التي تقرأين تتعب عقلك كثيرًا ، تذكري نحن خارج التغطية! . .

ابتسمت فهيمة وهي تقول : حسنًا حسنًا لن أعود لابن رشد ثانية . .

تركنا فهيمة تستريح ، وفي الطريق حدثتني ليلى عن أفعال حماة فهيمة ، عندما اتهمتها أنها كانت تغسل الثياب على سطح المنزل كي تخرب البيت ، وعندما أحضرت فهيمة تلفازًا و(ساتالايت) طالبتها حماتها بإغلاقه ؛ لأنها تعتقد أن أمواج بثه ستؤثر على تلفازها ، كما حرمت عليها تناول اللحوم لأن الأغنام في بغداد ترعى بين النفايات ، وهي تخاف على حفيدها القادم ، وغيرها الكثير من المواقف المضحكة . . وتحملتها فهيمة بهدوء بعقلها الكبير . . . .

وفي تلك الليلة نمت وأنا أفكر بها ، وبصديقتي ليلى ، وحماري الذهبي الدمية التي أضعتها في حديقة الأمة وأنا طفلة ، كنت متوترة جدًا ، أفكر بالأسماء الجديدة لانفجارات اليوم ، وقبل أن أغفو تمامًا رن هاتفي :

أيتها العاشقة الفريدة ، يتغير التاريخ في الدرس المدرسي ، وامرأة في الكهف وحيدة ، صخوره قاسية ، وبقايا كتابات غير مفهومة ، تغادر الكهف ، تدخل نفقًا حلزونيًا يلف جسدها ، يعصره ، يدور به الحلزون ، يشدُ العصر ، تتسع الدائرة عند الرأس ، تضيق في الأطراف ، الرأس يبحث عن خلاص ، لابد من منفذ ، يتحرك نحو اليسار ، تفشل المحاولة ، كل الدروب في النفق واحدة ، اليسار مغلق ، غائب ، ليس سوى اليمين ، يسقط الرأس ثانية ، اليمين هو الدافع نحو الأمواج ، تتلاطم الأمواج ، قوة تدفع الجسد ،

يندفع الرأس ، ما زال يحاول ، تتقدم الأصوات من بعيد ، تصل مُكبرة ، أصوات من كل جانب ، تخرج من موجة اليمين ، تغزو كائنات غريبة مدارها الفلكي ، ما أثقل الرأس ، القضية في الرأس والاتجاه ، أشبه بحلم ضائع ، ثم فقدان الذاكرة ، العودة فوق غيمة ، غيمة خارجة من نفق ، جسدها ليس جسدها ، حصان ضلَّ طريقه ، أنهكه الجري ، رمى فارسه ، هل من دليل؟ ورقة في مهب الريح ، يرتفع الرأس ، تزداد حدة الأصوات وضوحًا ، ما تزال الصورة ضبابية ، الألوان غائبة ، لا شيء واضح ، تتحرك أشباح ، تعود الألوان بطيئة ، تتضح المعالم ، يقبل الحصان ، يخرج الرأس من لجة الموجة ، يسبح الحصان ، حتى يخرج من البحر . .

عليك اللعنة أيتها الخاتون ، دعيني أغفو وكفي عن اللهو معي .!

ورقة

تدور أم مظلوم بالحلوى بين السيارات ، يشفق عليها بعضهم ، يدفعون لها المال رافضين استلام أي شيء مما تبيع ، تصر فترمي لهم من نوافذ السيارات مما عندها ، تشعر بحرارة قيظ تموز ، تتحرك نحو أم صابر ، تشرب من قنينة الماء المركونة قربها ، وتطلب من صغيرتها البيع بدلاً منها ، تنتبه لصاحبتها

وهي تبكي بحرقة قلب ، لتجلس قربها على الرصيف ، وتلف عباءتها حولها : ما بالك يا أم صابر؟ خير إن شاء الله . . . لمَ كل هذا؟

تقلب أم صابر شفتيها ، وتسحب حسرة وبصوت أشبه بالهمس : سرقوني مرة ثانية يا أم مظلوم ، لا أعرف أين ذهب المال اليوم؟

تضرب أم مظلوم كفًا بكف : لا حول ولا قوة إلا بالله ، كيف؟ ومن سرقك؟

– لا أدري والله ، عدت من (ساحة الخلاني) وفرشت ألعابي ، كان عندي مبلغ متبقٍ من المال ، بعت بعض الألعاب ، زاد المال ففرحت ، فتحت الكيس الذي أجمع فيه المال لأجده فارغًا ، وليس عندي إلاّ ثمن تلك اللعبة التي بعتها توًا . .

تنظر أم مظلوم حولها ، كمن يبحث في الأرض لعل شيئًا هنا أو هناك قد سقط :

– يا أم صابر ماذا يحدث لك؟ إنك تضيعين مالك دائمًا ، كيف هذا؟ تذكري ماذا حدث لك وأنت في (ساحة الخلاني)؟ . .

تغمض أم صابر عينيها ، كمن يحاول أن يسترجع أحداثًا :

– خرجت في الصباح الباكر لجلب الألعاب ، وأنا أفكر بغياب لطيفة ، لفتت نظري امرأة ، تقف وسط الشارع تحت

الشمس في الساحة ، كان وضعها غريبًا ، أشفقت عليها ، فهيأتها قذرة ورثة ، يجلس قربها كلب صغير ، وتضع وردة حمراء على رأسها ، وقرطًا في أذنيها ، وخاتمًا أيضًا في إصبعها ، وسلسلة ذهبية تتدلى على صدرها ، ربما كانت صليبا ، داهمني الفضول بقيت أنظر إليها ، حتى أقبلت فتاة جميلة ، بدت متعلمة ، تحمل دفترًا بين يديها ، حاولت الفتاة أن تحدثها ، سمعتها وهي تقول للفتاة نعم أنا محامية ، وعندما سألتها الفتاة هل كانت النساء ترفع عندك القضايا؟ رأيتها تدور تقفز وتردد أرقاما مرة ٣٢ ومرة ٣٦ .

– وماذا قصدت بهذه الأرقام؟ .

– والله لا أعرف يا أم مظلوم ، دعيني أكمل لك تعمدت التنصت ، لكنني صعقت أكثر عندما سألتها الفتاة عن اسمها ، فقالت تلك الغريبة إن اسمها إيهاب ، تضحك أم صابر ثم تواصل . . امرأة تحمل اسم رجل ، فضحكتُ كثيرًا ساعتها ، وعندما ارتفع صوتي نهرتني تلك التي اسمها إيهاب ، وقالت لي : حكمت المحكمة أن تسكتي (شوية أخلاق . . . عيب)! والله خفت منها يا أم مظلوم ، كانت جادة في كلامها ، تفتح عينًا وتغلق الثانية بعصبية . .

– وما الذي حصل بعدها؟

– ابتعدت عنهما قليلاً ، حتى أقبل صاحب مطعم قريب ، وتحدث مع صاحبة الدفتر ، واستمعت لحوارهما وهي تقول له :

أريد كتابة قصتها ، ما زلت أتذكر حوارهما :

– نعم معك حق يا أختي ، فقصة لهيب لها أكثر من رواية ، لا أحد يعرف بالضبط الحقيقة ، هي وديعة وطيبة القلب ، جلبت لها بالأمس بعض العصائر المعلبة الباردة ، فتحت واحدة لي ، وأرغمتني أن أشرب ، قالت لي : أنت ضيفي .

– فعلت الشيء نفسه معي ، وغنت الأغنية العراقية المشهورة (يا من تعب يا من شقى يا من على الحاضر لقى) . .

– عندما تغضب تقول أشياء تسقط من ذاكرتها المثقوبة ، قدمت لها طعامًا بالأمس قالت لي : شكرًا يارندة ، وسمعتها مرات تنادي من يشتري أحوالاً شخصية ٥٩ . . . أحوال شخصية ٥٩ ؟

– نعم أخي إنها محامية قديمة ، قالوا عنها أول محقق عدلي من النساء في العراق . هل تعرف ماذا قالت لي قبل قليل عندما سألتها عن القانون الدولي ، أردت أن تتكلم أي كلام فردت :

(International law(*) لو زرعوه ما خضر)

– يا أختي إنها تطلب مني الجريدة كل صباح وتقرأها صفحة صفحة ، على العموم تعالي في وقت آخر ، إنها غضبت

(*) القانون الدولي .

الآن ولن تستفيدي من زيارتك ، وما دمت كسبتِ ودها ستتكلم ، وإن كان كلامها أشبه بكلمات متقاطعة ، لكنني أعدك أن أساعدك في إنجاز روايتك بما عندي من معلومات . .

واصلت أم صابر حديثها : وعندما غادرت تلك الفتاة يا أم مظلوم ، فكرت بك ؛ لأنك بحاجة لمحام ، وسبق أن قلت إنهم يطلبون المال الكثير لحل قضيتك ، وهذه المرأة محامية ، ربما ليس عندها بيت ، فكرت أن أجلبها للاهتمام والعناية بها ، تعالجينها أنت بأدويتك ، وأتولى أنا تنظيفها من القاذورات ، وتعيش معنا ، بدلاً من مبيتها في الشارع ، وفي الوقت نفسه تقوم بالنظر في مشكلتك ، وتصبح صديقة لنا ، نستطيع توسعة البيت ببضع علب من الصفيح ، ما المشكلة؟ . .

– وما علاقة هذا بالمال الذي أضعته يا أم صابر؟ ألن تكفي عن طيبتك هذه؟ أنتِ تركضين وراء المشاكل . . . وكيف تسترقين السمع لهم ، وما معنى هذه العبارة الأجنبية التي حفظتِها؟ يا أم صابر اهتمي بحالك فقط . . .

– نعم حقيقة بذلت مجهودا لحفظ تلك الكلمة الأجنبية ، لعلي أسأل أحدا عنها؟ أريد معرفة الحقيقة!

– وما شأنك يا أم صابر؟ أي حقيقة؟ وما علاقة كل هذا بمالك المفقود؟!

– . . . دعيني أكمل ، اقتربت منها ، رغم خوفي من كلبها ، لكن الكلب كان صغيرًا ونائمًا قربها ، تشجعت وقلت

لها تعالي نامي عندي ، سأوفر لك الطعام ، وأجعلك صديقة لي ولأم مظلوم . . حتى صرخت بي وقالت : أنام مع القردة مايا في حديقة الحيوان ، وكشرت عن لثتها ، فكانت بسن واحدة فقط على لثتها العليا ، خفت أكثر ، لكنني رأيتها تعد المال الذي جمعته من المارة ورمته في الشارع ، وقالت لا أريد صدقة ، أنا صاحبة أملاك ، نسيت همي وحزنت عليها ، وارتبكت فسقطت ألعابي ، وكل أشيائي في الطريق ، فاستيقظ كلبها وبدأ يعوي عليّ ، ورأيت امرأة أخرى تجاوزتني وهي تحمل ملفًا تحت إبطها ، كانت متوجهة نحو أمانة العاصمة ، خفت كثيرًا يا أختي ، كانت تبحلق بيّ ، وتضحك بطريقة مجنونة ، حتى أقبل نحوي صاحب المحل ، ليصيح بي لا تسرقيها ، إتقِ الله يا امرأة ، تصوري اعتقدَ أنني أسرق ، و . . . بكتْ أم صابر . .

– احترتُ معك يا عزيزتي على أي شيء تبكين؟ هل على حالها أم مالكِ الذي أضعتِه؟

– أبكي على كل شيء يا أم مظلوم ، أفقد مالي دائمًا ، ولطيفة لا أعرف عنها شيئا ، وهذه المرأة مسكينة ، لقد رأيت شيخًا كبيرًا في السن يمد يده ويسرق من مالها ، والله العظيم رأيته ، هل تصدقين أنني أسرق . .؟

– طبعًا لا يا أم صابر . . . لعل هذا الرجل هو الذي سرقك أيضا؟

– لا أعرف . . . لا أعرف يا أم مظلوم ، كنت أريد أن أشرح لها مشكلتك لتساعدك ، أنتِ بحاجة لمحامية تجلب لولديك وثائقَ رسمية ، لكنني خفت . . .

– يا أم صابر ، فرط طيبتك تجلب لك المصائب ، رغم أنها جمعتني بك يومًا ، لكنك تبالغين كثيرًا بالقلق على هؤلاء ، مرة تفكرين في حال لطيفة ، ومرة في حال هذه المرأة العجيبة ، وكيف تصدقين كلامها؟ ربما هي كاذبة أو إرهابية ، وسبق أن أعطيت كل مالك وبطانياتك لأم تحسين ، كفي عن هذا يا أم صابر وانتبهي لمالك ولنفسك ، دعي التفكير بمشكلتي ، سأحلها بطريقتي ، وتميل أم مظلوم نحوها تقبل رأسها . . وما هي إلاّ لحظات حتى تقترب سيارة نحو أم صابر ، يرتفع صوت المزمار :

أختي رجاءً أريد تلك اللعبة ، تلك التي يسمونها فلة ، ابنتي أصرت عليها . .

تقف أم صابر وقد عادت إليها ابتسامتها ، كأن شيئا لم يحدث . .

تغمز لها صاحبتها : سوف أعمل على خياطة كيس من القماش لك ، وأربطه بحبل ، لتعلقينه على رقبتك ، تحت ثيابك ، سأضع لك فيه حرزًا ممتازًا ، كي لا تفقدي مالك ثانية ، لكن دعي هموم الأخريات ، لنحاول حل مشاكلنا يا أم صابر . .

لا ترد عليها صاحبتها ؛ لأنها تنشغل مع البيع ، تعود ببعض المال ، وهي تسأل أم مظلوم : لَمْ تخبريني هل مرتْ بك لطيفة اليوم؟

- لا والله . . أنا أيضًا صرت أشعر بالقلق عليها . .

- أخاف عليها فهي أحيانا ترمي الناس بالحجر . .

- لاحظت هذا ، لكنها ترمي أشكالاً معينة من الرجال بالحجر .

تعقد أم صابر حاجبيها : كيف؟ ماذا تقصدين؟

- نعم ، ترمي الحجارة على كل رجل أصلع ، لاحظت هذا منذ زمن . .

- كل رجل أصلع؟ لماذا؟

- لا أعرف ، إنها مريضة . .

يرتفع صوت أم صابر : لطيفة ليست مجنونة يا أم مظلوم لا تقولي هذا عنها . . ثم تسحب تنهيدة عميقة ، وتسرح بعيدًا . . . .

(٦)

كـيف أحـببتُ حـمـارًا؟ لست أدري ، هذا الذي حـصل ، وأشـعر به ، يجب عليّ العثور عليه لأحدد الخطوة التالية وأرسم مشاريع كثيرة معه ، كم هي باردة الأيام من دون حبيب ، تمامًا مثل شعور ليلى عندما أفاقت من التخدير . .

– ابنتي الحبيبة . . . . . الحمد لله على سلامتك ، وتميل أم ليلى لتقبل رأس ابنتها .

صوت ضعيف : أمي أشعر ببرد . . برد شديد

تغطيهـا أمـها ببـعض البطانيـات : تدفئي يا عزيزتي ، هل الآن أفضل؟

– ما زلت أشعر بالبرد . . أين الأولاد ؟

– تركتهم في البيت مع أبيك . . اطمئني .

يتـدخل زوجـهـا في الحـديث : ليلى في لحظة خـفت أن أفقدك ، أنت حبيبة قلبي وأم أولادي . .

– الحمد لله على سلامتك ، أخيرًا استيقظت من المخدر قلقنا عليك؟ يبدو أنهم منحوك جرعة قوية يا صديقتي . . . .

– أمي . . أمل أشـعـر بالدوار . . دوار . . أشـعـر بوجع . . .

ماذا قالت الطبيبة؟

حاولت تهدئتها : الحمد لله ليس هناك ما يخيف ، الورم حميد ميزته الطبيبة من شكله ، أرسلناه للفحص والتحليل فقط للتأكد ، كان لابد من استئصال الرحم إنها الضرورة الطبية . . نامي ارتاحي .

تدير رأسها باتجاه زوجها وبضع قطرات تبلله : هل ستبقى تحبني . . وأنا امرأة بلا رحم؟

يقبل زوجها رأسها هامسًا بأذنيها : طبعًا أحبك ما هذا السؤال؟! . .

تجهش بالبكاء وتردد : استأصلوه . . . سأشبه رجلاً مخصيًا! . .

تمسح أمها على رأسها : يا حبيبتي رزقك الله ما يكفي من الأولاد ، والرحم يا ابنتي علة كل النساء في مرحلة من العمر ، وقد تخلصتِ من شره . .

تغرق في نوم عميق بعد إبرة مهدئة من الممرضة . . .

هي الخيبة التي تحتاج لتخدير ، وكيف بخيبتي ولا أثر لحماري في بغداد؟ ولا رد من المنظمة الدولية التي كتبت لها ، ترى هل للبشر هنا حكايات سرية تشبه حكاية حماري الضال؟ هل هم مثلي يخشون الإفصاح عن خفايا نبضاتهم ، حتى قطع حبل أفكاري جرس الباب . .

وإذا ليلى أمامي بعد مراجعتها الدورية لطبيبتها ، لاحظت

مبالغتها بالتزين ، والحلي ، استغربت فتلك ليست عادتها ، لكنها جميلة ، سلمتني الهوية الجديدة ، التي جلبها زوجها لنا ، من رجل يصنع هويات جديدة لذوي الاحتياجات الطارئة ، مقابل مبلغ ضئيل .

– ما أجملك يا ليلى ، كما عهدتك دائمًا جميلة ورشيقة؟

– أمل هل تقولين الحقيقة؟ أما زلت جميلة؟ تصمت . . ولا يطاوعها التعبير . .

– طبعا أنت جميلة لا أجاملك ، لو أن النساء تهتم بهيأتهن مثلك لما بحث بعض الأزواج عن أخريات ، اسمعي اتصل بي اليوم جاري وقد فضل الله عليه كثيرًا فهو تاجر غني ويسافر بشكل دائم ، طلب مني البحث له عن زوجة ثانية تصوري ، لأنه يشتكي كثيرًا من زوجته التي تقضي جل وقتها بالاهتمام بشؤون البيت والمطبخ ، وتهمل نفسها ، قال لي إنه يجلب لها أغلى الثياب ومن أرقى دور الأزياء العالمية ، ويشتري لها أحدث العطور ، لكنها لا تستعملها مطلقًا ، فعندما تنام قربه لا يشتم منها إلاّ رائحة الطعام ، وتظل طوال الليل تشخر وتشخر . .

ضحكت ليلى ساخرة : تشخر . . وماذا عنه هو ألا يشخر؟!

– لست أعرف إن كان يشخر هو أيضًا أم لا . . بالتأكيد تشخر هي من التعب ، فرغم وجود الخادمة لديها لكنها تفضل فعل كل شيء بيدها ، لقد وصفها بأنها أفضل خادمة سيريلانكية في العالم تجيد ترتيب ثيابه وكيها ، وتجيد طبخ الطعام ، لكنه يريد

سيدة أنيقة لبقة تفهم في صفقاته التجارية .! . .

– وماذا قلتِ له؟

– تهـربت يا عـزيزتي تهـربت طبـعـا ، وحـاولـت نصـحـه بالحديث معها . . . .

– لعل الله يهديه ويصلح حال زوجتـه ، وإن كـان بعضهم يفـضـل العـدد من النسـاء لا النوع . . وضـحكت ليلى . . . ثم واصلت ولكن لنعد لسؤالي أمل بالله عليك ، أصدقيني القول ، تأملي وجهي هل هناك ما يدل على أنني امرأة بلا رحم . . هل يرى الناس هذا في وجهي؟ . . وتحني رأسها .

– يا ليلى كيف يدل؟ وما العار في الأمر؟ . .

تتشجع ليلى على الإفصاح . . . فيخرج صوتها بثقة أكبر : بدأت أشك بنوعي هل أنا اليوم ذكـر أم أنثى ، أم جنس جـديد من المخلوقات؟

– تعقلي . . تعقلي . . . لديك زوج محب مثقف مخلص ، هل تذكـرين زمـيلتنا زينب كـيف هجـرها زوجـهـا ، لأنهـا استأصلت الرحم اضطراريًا ، ظنًا منه أنه سيضعف قدرتها على المعاشـرة الجنسيـة ، احمـدي الله في كل الأحوال ، وفكري ما جدوى الرحم وأنتِ لم تعودي تريدين أطفالاً .

– لكن ألا تعتقدين أنني فقدت أنوثتي؟

– كـفي عن هرائك . . . تعـرفين جـيـدًا أن الرحم هو بيت للإنجاب فقط .

غياب حماري مازال يؤرق فكري ، هل أخبرها؟ لا لن أفعل ، لو كانت شروق هنا لأخبرتها قطعًا ، لكن ليلى ثرثارة ، قد تفضح سري دون قصد متعمد منها ، لكنه لو كان معنا لشاركنا الحوار ولأخرجها من دوامتها الأنثوية عبر نهيقه على الأقل . . . هذا الاتجاه الحقيقي في الحب! . . .

تلمست هويتي الجديدة ذات الختم الفوسفوري ، شعرت بالأمان ، لن يفرض عليّ أحد الطيران ؛ لأنني أصبحت من مواليد المحافظات ، لن أطير إلاّ بمركبة فضائية يدخل فيها حماري وبابا نوئيل ، قطعت ليلى حبل أفكاري :

– أفكر بتظاهرة نسوية ضد هذا المشروع ، سأرتب لهذا ، لكنني أخشى حقيقة من ردود أفعال النساء المؤيدات للمشروع ، لربما سيعتدينَ علينا .!

– معك حق ، إنها القاعدة ، المرأة هي العدو الأول لبنات جنسها ، لكن لا تتعجلي ياعزيزتي لنراقب كما اتفقنا ، وننظر إلى الوضع العام ، يجب التفكير بعمل دبلوماسي ، وما دامت لدينا هذه الهويات نحن في أمان حاليًا على الأقل ، غريب حالنا ، فأي أمان بالتحديد نحتاجه ، أمان من الأرقام أم من فرض الطيران علينا؟ أين المنطق؟! . . .

– دعينا من منطق فهيمة وضحكت . . ثم واصلت . . وأنتِ إذا كنت تريدين الطيران بمركبة فضائية أجْلي الإعلان عن رأيك .

حركت رأسي بالإيجاب ، رغم نيتي الخفية . .

– بالمناسبة لماذا لم تأتِ معك فهيمة؟

– آه يا أمل إنها مرتبكة بسبب أم زوجها وسوء معاملتها لها ، لقد اتهمتها مؤخرًا أنها تعمل سحرًا لها عندما رأت التراب على السلم ، بل ترفض أن تأكل الطعام الذي تعده فهيمة ، تعرفين كانت تريد تلك المرأة زوجة أصغر لابنها ، فهي أكبر من ولدها قليلاً ، وأنجبت بنتا ما زاد الطين بلة ، وصارت الأخرى تتحجج لتصنع المشاكل ، مسكينة فهيمة تنتظر الفرج لتطير . .

– تطير أيضا .

ضحكت ليلى . . نعم إلى كندا كما تعرفين لا القمر . .

– فهيمة قوية يا ليلى ، استطاعت تجاوز محنتها ، لكن على حساب السن يا عزيزتي ، لعل الأمور تتيسر لها ، وتلتحق بزوجها .

– نعم ، أتذكر عملت بالتدريس صباحًا في بعض المدارس الأهلية وفي الترجمة ، والدراسة مساءً ، لا أعرف كيف وجدت الوقت للقراءة؟ إنها نادرة تعادل ألف امرأة . .

– أؤيدك . .

– نسيت أن أبلغك يا أمل . . بلغت ابنتي سحر مبلغ النساء ، جاءتني بالأمس تشتكي من أوجاع نسائية . .

– سحر ما زالت صغيرة ، أليست هي في العاشرة من عمرها؟ . .

– هي كذلك ، كان الأمر معها مبكرًا بعض الشيء ، كم أشفقت عليها بالأمس ، صغيرة وتتحمل كل ذاك الألم ، مع أنني أعطيتها دواءً مسكنا ، لكنها ظلت تبكي من الوجع ، ما زالت طفلة .

– لا بأس كل تلك المعاناة نهايتها الجنة تحت أقدام الأمهات! . .

– لكن أكثر أهل الجحيم من النساء . .

ضحكت وواصلت : وإليك آخر الأخبار . . . أبلغني زوجي بالأمس عن خبر إطلاق سراح زوج المرحومة شروق من السجن بكفالة مالية؟ قال إنه قتلها غسلاً للعار . .

– شروق . . . شروق . . . وبكيت . .

– ليرحمها الله ، ويمدك بالصبر أعرف كم كنتِ تحبينها . صمتت قليلاً ، وكمن يحاول تغير دفة الحديث قالت : إسمعي إليك خبرًا آخرَ . . .

– هاتي ما عندك يا وكالة الأنباء . . . هل من مزيد؟ . .

– عندما سلمت الهوية الجديدة لفهيمة أخبرتني أن زوجها حاول توصيل شحنة أدوية للأمراض المزمنة كتبرعات من العراقيين في الخارج ، لكن بعض المسؤولين طلبوا منه تحويل مبلغ من المال إليهم حتى يستلموها ، وعندما دقق في الأمر أكثر اكتشف أنهم كانوا ينوون بيعها للمرضى بأسعار باهظة ، ثم تكفل هو بتكاليف إعادتها من حيث جاءت!

– إنك تذكريني بما قرأته في الملف . .

– أي ملف؟

– ملف عثر عليه المرحوم زكي صاحب بسطة الخضار ، ظن أنه يعود لي ، الغريب لا اسم عليه .

– لا اسم؟

– أعتقد أنه لسيدة تحاول جمع معلومات وأخبار لكتابة رواية ما . . ما قرأته فيه أمور عجيبة يا ليلى .

– لن أستغرب فعجائب بغداد كتاب حدثتني عنه فهيمة لأحد الأدباء ، لذا لا غرابة مطلقًا أن يفكروا بمشروع لطيران النساء ، أو أن تجدي ملفًا كهذا!

تقف ليلى فجأة ، تضع حقيبتها على كتفها : سأذهب لتسوق بعض الحاجيات للمنزل الآن ، ما رأيك أن ترافقيني عوضا عن الذهاب وحدي بسيارة أجرة؟ وتضحك . . . إنهم يرفعون الأسعار كلما رأوا امرأة ، فالنساء مشاريع خصبة للربح بكل أنواعه! . .

– لقد ارتفعت الأسعار عمومًا في الآونة الأخيرة ، . . .انتظريني لأجلب حقيبتي . . .

فتحت مذياع سيارتي فإذا بخبر عاجل يقطع النشرة الإخبارية :

قررت الدولة زيادة الميزانية المخصصة لمشروع طيران النساء باتجاه القمر ، وذلك للإسراع في الإنجاز . . . تعود النشرة

الرئيسة . . . انتهت اليوم فعاليات مؤتمر البيئة في بغداد بنتائج عملية مذهلة دلت على انخفاض معدل التلوث في المحافظات العراقية كافة ، وتم تحويل قضية سرقة بنك الحيزبون في بغداد إلى لجنة تحقيقية متخصصة للبحث في الجريمة ، وكذلك تشكلت لجنة تحقيقية للتحقيق في أسباب الخرق الأمني الأخير ، ولجنة تحقيقة أخرى في قضية الفساد في إحدى وزارات الدولة ، وأيضًا لجنة تحقيقية أخرى لعصابة تقوم ببيع النساء والفتيات الصغيرات لتصديرهن إلى خارج العراق .

قلت لصاحبتي : ما أكثر اللجان التحقيقية .

فأشارت بإصبعها : أمل . . . انظري هناك محل جديد للأدوات الكهربائية .

- نعم لاحظت اللوحة منذ يومين .

- مسكين هذا العامل الذي يقف خارجه بساق واحدة . . .

- على الأقل هو محظوظ وجد عملاً . .

تركزت نظراتي في الشارع ، لعلي أجد حماري ، وتواصل ليلى ثرثرتها ، وأنا في دوامتي ، يمر أمامنا موكب بسيط لتشييع جنازة النحات محمد غني حكمت ، ثم ينقطع الطريق لمرور موكب فخم طويل لأحد رجالات الدولة ، تسبقه صفارات لسيارات الشرطة .

ورقة

- يا إبني . . . خذ لك علَمًا واحدًا صغيرًا . .

يبكي الطفل تمام على باب المحل ، يصـرخ بإصـرار ، يريد شراء العلم العراقي من المحل . . .

- لا . . . أريد كل الأعلام . . وكل الأحجام .

يضرب أبو تمام كفا بكف ، يخاطب صاحب المحل الواقف عند الباب : هل ترى حكم الأطفال؟ يريد شراء كل ما عندك من أعلام . .

يضحك صاحب المحل : لا عليك إلاّ الخضوع يا أخي . . . حكم القوي .

يرتفع صـوت بكاء تمام ، وهو يجلس أرضًـا خـارج المحل ، يحرك ساقيه على التراب . .

- حسنًا . . . . . حسنًا يا ولد سأشتري لك واحدًا . . هيا قف .

- لا . . . لا . . . أريدها كلها .

- كلها؟! ماذا ستفعل بها؟!

- بابا . . قلت لك أريدها كلهـا . . يعـود يرفس بسـاقيـه الصـغيـرتين على الأرض . . يكرر بصوت مـتـهـدج بالدموع والإصرار أيضًا : كلها . . .

- حسنا حسنا هيا قم من الأرض ، ستضربك أمك حين ترى التراب عالقًا في ثيابك .

تعلو الفرحة وجه تمام ذا السنوات الخمس ، يقفز ، يفتح عينيه ، يبتسم وجهه الغارق في الدموع . .

– كلها أبي . . هل اتفقنا؟ . .

يقلب الأب شفتيه : حسنًا كلها ، هيا قم من على التراب . . .

يشتري الأب كل الأعلام العراقية ، ويضحك مع صاحب المحل ، التفت تمام إلى صاحب المحل : وأنت يا عم احتفظ بعلم واحد . . . يؤشر بكف يده الصغيرة نحو وسط المحل . . وازرعه هنا . . .

يضحك صاحب المحل : أزرعه ؟!

بثقة عالية يرد تمام . . نعم يا عم ازرعه . . ازرعه . . إنه مثل الشجرة الملونة ، وربما يزهر يومًا أعلامًا كثيرة ومختلفة!

تروق الفكرة لصاحب المحل ، فلا يملك إلاّ التنفيذ : هل ترى؟ إنه يحكمني ويحكمك . . موجهًا الحديث لأبيه .

– نعم . . . طفل ذكي وعنيد يتعبني كثيرًا . . .

يخرجان من المحل ، يحمل تمام الأعلام العراقية ، قامته الصغيرة لا تساعده على حملها كلها ، يلتفت إلى أبيه ، ويمد له ببعض الأعلام التي في يده :

– بابا . . . بابا . .احمل أنت الأعلام الكبيرة . . . احملها جيدًا . . واجعلها ظاهرة ، واضحة للناس . . . .

يحرك أبوه رأسه يمنة ويسرة : لا حول ولا قوة إلاّ بالله . .

يبتسم ويربت على رأس ولده ، يتسلم منه تلك الأعلام الكبيرة ، ويخرجان من المحل . .

فجأة يصيح تمام : بابا بابا أعطني علمًا كبيرًا واحدًا ، وامسك أنت بهذه الأعلام .

– أيها المشاكس لقد أتعبتني . .

ويمد له بعلم كبير بسارية أطول من جسد الصغير ، يركض الطفل بالعلم الكبير ، وهو بالكاد يحمله ، يركض بسرعة ، يبقى أبوه ينادي عليه : تمام تمام . . . تعال . . . أين تذهب؟

لا يبالي الطفل بنداء والده . . . يلمحه أبوه من البعيد يحدث رجلاً متهرىء الثياب سمينا يتوكأ على عصاه ، ويحمل صرة بالية ، وفي ضفة أخرى تحمل أشجان كارتونتها وتتوسد على الرصيف مقابل نادي الزيتون ، ولهيب تنتظر في ساحة الخلاني ، وهناء تفترش الرصيف أمام مدرسة إبتدائية .

(٧)

حملت ليلى حاجياتها وركبت سيارة أجرة للعودة ، فالازدحام بدأ في الشارع بعد دوي انفجارات جديدة ، والناس يواصلون التبضع والحركة ، كأن شيئا لا يحدث ، بقيتُ في المحل ، سمعت رجلين يتحدثان عن امرأة متسولة في الخارج :

– رغم منظرها هذا فإن رائحتها معطرة دائمًا ، فهي تنظف نفسها بأجود أنواع الصوابين ، وتطلبها من المحلات وتختار الصابون المعطر ، لكنها أحيانًا ترمي الحجر على المارة فجأة! . . . .

واستوقفتني لوحة عراقية ، وأنا أخرج من المحل ، فدخلت فيها . .

رأيت بابا نوئيل العراقي ، أمامه طفل صغير يحمل علمًا عراقيًا كبيرًا بسارية خشبية طويلة ، كان يسير أمامي فتعذر عليّ رؤية وجهه :

– عمي الحاج خذ احمل هذا العلم معك ، ارفعه عاليًا أينما تسير ، فأنت عملاق طويل ، وحين تحمله سيراه الناس جيدًا . . .

يتأمل بابا نوئيل في العلم ، يتلمسه بأصابعه ، يفحصه جيدًا كمن ينقب عن شيء ، يحمله نحو وجهه ، يحتضنه بقوة ، تلتمع عيناه ، ويوسد ساريته الخشبية بين ذراعه اليمين وإبطه ، يرفع رأسه ، ويرفع العلم عاليًا ، يعدل من قامته ، يرفع يده اليسرى نحو أذنه ، يضرب بقدمه بقوة على الأرض ، يتطاير التراب ، ثم يمنح ظهره للطفل ويسير مع العلم . .

– عمي . . . عمي الحاج . . . قل شكرًا على الأقل ألا يكفي أنك أثرت كل هذا الغبار . . . . ؟

بابا نوئيل يغرد من بعيد بصوت عالٍ واثق :

(قامت قواتنا الجوية في الساعة ١٣ من هذا اليوم ٢٢ أيلول ١٩٨٠ بالتعرض للقواعد والمطارات العسكرية في عمق أراضي العدو وألحقت أضرارًا بالغة في الأهداف العسكرية أما وحداتنا الصاروخية / أرض– أرض/ فقد حققت إصابات دقيقة ، وألحقت أضرارًا فادحة بقواعد التموين الرئيسة . . . . ثم انتحرت فتاة . . وليخسأ الخاسئون) . . . .

خرجت من اللوحة ، هرعت إليه ، لاحظت كدمة على جبينه : ما الذي حصل لجبهتك بابا نوئيل؟ لم يرد . . . فواصلت : ما أجمل علمك . لم يرد أيضًا . . . عدت لسؤاله : هل رأيت حماري؟ . .

مسح العلم بأصابع يديه ، رفع رأسه بصورة مبالغ بها ، ارتفع ذقنه بلحيته الكثة ، نظر إليّ بحنان غريب ، وفي عينيه

ابتسامة ، وبين تجاعيد وجهه حزنٌ لا يفصح . .

– حسنًا حسنًا بابا نوئيل . . . تفضل هذا عصير بارد اشتريته للتو من المحل . .

سألته : بابا نوئيل ألن ترد عليّ ألم تر حماري بعد ، لقد تعبت في البحث عنه؟ . .

للمرة الأولى يمد يده ، يمسح شعري ، رأيت دمعة تترقرق في عينيه ، ولا تسقط ، ، انحنى احتضن صرته ، ثم مال برأسه يمينًا ، نظر إلي بعمق ، كمن يبحث عن مفقود في وجهي ، وسرعان ما استدار وتحرك ، حتى اختفى عن نظري ، وبقي علمه يرفرف من بعيد . . .

أقبل عليّ أحد المارة الفضوليين : سيدتي هذا الرجل لا يحدث أحدًا مطلقًا ، لا تحاولي ، إنه يبكي بعد كل انفجار يحدث ، رأيته بالأمس يضرب كفًا بكف بعد انفجار حدث هنا ، ثم ضرب رأسه بسياج هذا المحل ، الغريب أنه يكتب في دفتر ، لا أعرف ماذا يكتب؟!

– يكتب؟!

– نعم صدقيني رأيته يفتح صرته ويخرج دفترًا ويكتب فيه وخفت أن أقترب منه أكثر!

ماذا يكتب بابا نوئيل؟! لم أملك جوابًا ، وجد نيوتن تفاحته ، فصاح وجدتها ورسم الجاذبية ، وفي العراق جاذبية خارج قوانين نيوتن ، كتلك التي جذبتني نحو بابا نوئيل من

اللحظة الأولى ، عندما سقطنا معا على التراب ، وكتلك التي جذبتني نحو حمار المرحوم زكي ، نحن قوم خارج جاذبيتك يا سيد نيوتن ، حتى لو تمادينا بسقوط هو خارج منطقك ، في كل سقوط لنا ارتفاع آخر ، عليك يا سيد نيوتن دراسة التاريخ قبل الجاذبية ، وسأصيح يوما مثلك عندما أجد حماري : وجدته ، وجدت جاذبيتي التي تمسك الأشياء لا تلك التي تسقطها ، تمامًا كما فعل بابا نوئيل ولم تسقط دمعته .!

عدت إلى المرآب ، سمعت الأب يوبخ ولده : بابا لم أفعل شيئًا ، كل الناس يجب أن تحمل العلم ، لكن هذا الرجل السمين غير مهذب لم يقل لي حتى شكرًا . .

ثم رأيت الخاتون وهي تحمل بضعة أكياس ، اقتربت مني ، كأنها في انتظاري ، ربتت على كتفي ، وقبل أن أنطق قالت :

أيتها العاشقة الفريدة . . . وعندما خرج الفرس من البحر ، صهل صهيلاً طويلاً ، أمام امرأة بلا رحم ، ورحم مريض أشبه ببيت من بيوت الإرهاب ، ينبغي استئصال ذا ، وهدم ذاك ، لتبدأ الحياة ، وكيف تبدأ الحياة بلا رحم؟! . .

وامرأة بلا رحم عدوتها المرآة ، سطح عاكس كاشف ناطق ، الحقيقة في السطوح الفضية الملساء ، خطوط الجسد تحمل حكاية ، كيف الهرب من خط رسمته سكين حادة؟ سكين حافتها بلا أمومة ، السكين هي مرآة ، والمرآة تواصل عمل السكين ، الجسد المصقول خانع ، تآمرت السكين والمرآة

على أنثى ، التقطيع يستمر مدى الحياة ، جرح الجسد ظاهر ، واستئصال رحم امرأة هو اغتصاب حلم الغد ، وتاريخ الأمس ، كاغتصاب المدن ، وتبقى الأمومة مهما ارتوت ظامئة ، والمدن بلا حماية مهددة ، بيت الأمومة هاجمته ليليت اللئيمة ، ليليت تدور في مدن العراق ، تفزع الصغار ، ليخرجوا في الشوارع ، يستجدون حماية آباء ليسوا بآبائهم ، ينتظر نبوخذ نصر شعيرة فتح الفم ، من يمنحه قطرات من زيت السمسم ، من يسكب عليه الرحيق ، حمورابي أسير في اللوفر ينتظر الشعيرة نفسها ، من سيوقع تأشيرة سفرهم ، جوديا يبحلق ، وينتظر بعيدًا ، احكموا الحكاية ، ولا أحد يؤدي شعيرة فتح الفم ، عادت غيلان جديدة تنبش المتحف بحثًا عن الحمض النووي لبغداد ، هل لبغداد تجربة استنساخ في المختبرات الدولية؟ وأدار الحصان ظهره وعاد يجمع أحزانه ليغوص في البحر . . . .

هلا حفظتِ ما قلت ؟

واستدارت وسارت ، أذهلني حديثها هذه المرة أكثر ، يالها من فيلسوفة ، أنا أبحث عن حماري وهي تتحدث عن حصان ونبوخذ نصر وحمورابي! . . ليتني أعرف كيف تأتي إليّ؟ لتذهب إلى الجحيم إن كانت تحلم أن أطاردها أو أبحث عنها لتتسلى بيّ .

ورقة

تلتفت أم صابر نحو أم مظلوم وهما تقفان في ناصية الشارع :

– يا أم مظلوم ، هل ذهبتِ لرؤية أختك بالأمس ، كيف حالها بعد مصيبة ابنتها؟!

ترد عليها صاحبتها ، وهي تقلب شفتيها : ماذا أقول لك يا أختي ، إنها مريضة يا أم صابر ، ابنها فاضل متسلط جدًا ، وغاضب على فعلة دموع ، ولا أحد يتنبأ ما الذي سيفعله؟ يلوم أمه ويضربها أيضًا . .

– ولدٌ عاق . . لكن يا عزيزتي أساس الفكرة غير معقول ، زواج صغيرة برجل عجوز ، والله أقولها لو جاءتني دموع لهربتها من أهلها ، وأبقيتها تعمل معي هنا .

– لقد أخفوا الأمر عني ، لو كنت أعلم لكلمت أخاها وثنيته عن رغبته ، دموع معروفة بالقوة والعناد ، لم أعرف إلاّ بعد أن أحرقت نفسها بالبنزين .

– هذا يذكرني بهربي من بيت أخي بعد وفاة المرحوم أبي صابر ، خشيت أن يفسد ولدي صابر ، عندما شعرت أنه يعمل بأمور مخيفة ؛ لأن صابر أخبرني بعرض خاله عليه ، المال مقابل أن يزرع هذا الذي يسمونه قنبلة لا لا . . . ناسفة . . . تذكرت يسمونها قنبلة ناسفة ، ويومها أخذت ولدي وهربت .

– عبوة ناسفة يا أم صابر!

– نعم والله يا أختي ، خفت على ولدي ، ولماذا نسبب الأذى للآخرين؟ أستغفر الله . . فتركت المنطقة بكاملها ، أعوذ بالله من المال الحرام . . . .

يقطع حديثهما مرور الطفل تمام ، وهو يجلس على الكرسي الأمامي في سيارة والده : بابا . . بابا . . أرجوك قف عند هذه السيدة صاحبة الألعاب .

– نعم يا تمام ماذا تريد منها؟ في كل الأحوال إنها نقطة تفتيش لابد أن أقف .

يفتح تمام النافذة وينادي : خالة خالة . .

يمد لها من النافذة علمًا صغيرًا : خالة خذي هذا العلم هدية ، هو لك ضعيه أمام ألعابك . .

تضحك أم صابر ويبرز نابها ، تغطي فمها بيدها : شكرًا ولدي شكرًا .

– خالة ما دمت سترفعين العلم فإن الله سيحبك وسيرزقك .

يلتفت لأبيه : بابا اشتر لي منها لعبة كرانديزر . .

ويصرخ تمام بصوت غاضب . . عندما يعود لبيته ، وينهال ضربًا على يد أخته الصغيرة نرجس ، ينقض عليها يعضها من ساعدها ، ويسحب ضفيرتيها ، تسقط الوردات الصغيرة من شعرها ، نرجس ذات الثلاث سنوات تبكي ، تسقط دموعها شلال من عطر بريء ، تفرك عينيها بكفي يديها ، يتراجع تمام ،

يسرق النظر إليها بطرف عينيه ، يبدأ في الشعور بالذنب ، يشفق عليها ، وكرجل عراقي يستعصي عليه الاعتراف بالإثم ، حتى يرق لها ، فيقترب منها يقبلها على خدها :

– قلت لك ألف مرة هذا اسمه العلم العراقي لا تلعبي به ، كيف تقومين بتقطيعه؟ انظري ماذا فعلتِ؟ جعلتِ الألوان الجميلة أجزاءً ممزقة ، كل واحد منها على جانب ، ينظر في وجهها بنظرة ذات مغزى ، فيقول بصوت يحمل لهجة التهديد ، وهو يرفع إصبع السبابة مؤشرًا نحوها : وهل تعرف ماما أنك أخذت المقص؟ ستغضب منكِ كثيرًا .

يسكت قليلا ثم يؤشر بسبابته نحوها ويواصل بنبرة تهديد : لا تقولي لها إنني ضربتك ، ولن أقول إنك أخذت المقص هل فهمتِ؟ . .

تشير برأسها بالإيجاب ، وتمسح دموعها . .

يجمع تمام أجزاء العلم بألوانه الأحمر والأبيض والأسود والأخضر ، يرتبها كما كانت ويؤشر عليها ، قائلاً لأخته : انظري إنه هكذا أجمل . . . . إياك والعبث به ثانية . . . .

تنظر إليه نرجس بوجهها المبلل ، وهي تقلب شفتيها ، بخدها الأحمر المنتفخ ، تشير بإصبعها إلى مكان العضة وبالكاد تنطق الثلاث سنوات : (أُواه . .إنا . .إنا مام)

تحني رقبتها . . . كأنها تلتذ بعطفه أو تستميله . .

– نرجس سامحيني أنتِ حلوة وأنا أحبك . . لكنك

أغضبتني جدًا ، لا تقطعي العلم ثانية ، ثم يقبل مكان عضته لها ، وفي محاولة مراوغة منه ليلهيها : قولي علم عراقي . .

- ع . . . . . ل . . . . م . . . . علاكي

- لا قولي علم عراقي ، انطقيه صحيحًا بلا تقطيع . . .

تضحك نرجس . . وتغرق في الضحكة ، ضحكة الفجر فوق دجلة ، تضحك ملء البراءة ، ملء الروح ، تفيض الضحكة ، يغرق المكان بصدى القهقهة ، تواصل الطفلة بغداد العزف علي البيانو في البصرة ، تضحك بغداد العائدة من المنفى الضبابي ، تصبح ضحكتين ، تتعانق الضحكتان في المدى ، تنثران العطر ، رغم تواصل نعيق الغربان ، تواصل نرجس الضحك ، وطفلة البصرة تواصل العزف ، زقزقات ترقص على أنغامها فراشات الحديقة ، تهيء الأم بضع تمرات من البرحي ، ما أطيبه ، تضحك نرجس بعد العضة ، كأيّ أنثى تنسى العلقة بقبلة .!

صوت الأم من بعيد : تمام أيها الشقي ماذا فعلت لأختك؟؟

- لا . . . لا شيء يا أمي أشرح لها درسًا عن العلم . .!

تغادر أم صابر مكانها وتترك العلم على التراب ، وتسحب ساقها العرجاء وهي تفكر في لطيفة!

(٨)

مـا يزال المذيع يواصل نشـرته الإخـبـارية ، مـا هذا ألن ينتهي؟! . . .

(هرب(١٠٠٠) سجين من سجني أبي غريب والتاجي ، لكن الخرق الأمني بسيط ، وتم تشكيل لجنة تحقيقية لمعرفة أسباب الحادث ، كما انفجرت ١٥ سيارة مفخخة اليوم في مناطق متفرقة من بغداد ، والقوات الأمنية تسيطر على الوضع . .)

إلهي احم حماري يا رب . . . الأخبار سيئة . .؟

(وفي الجَانب الآخر عثرت قوات الأمن على جثة فتاة صغيرة ، في منطقة الكرادة قرب مصرف الحيزبون في العاصمة بغداد ، وتدل المؤشرات الأولية للتحقيق أنها احترقت بالبنزين بفعل إرهابي جبان ، كما حكمت المحكمة بالسجن لمدة عام واحد على رجل قتل ابنته هيفاء ؛ لأنها تموء مثل القطط وتعوي مثل الكلاب ، وترفض الحديث ، وأطلق سراح الأب بكفالة . . .)!

عاجل عاجل : أعزاءنا المستمعين سنذيع عليكم بعد قليل

قرارًا مهما من اللجنة المختصة بمشروع طيران النساء باتجاه القمر . .

فاصل إعلاني :

الأحذية المجنحة

تاجٌ على رؤوس النساء

باتجاه القمر

عليكم بالأحذية المجنحة ترا . . ترا . . .

كلللي . . كللي . . هلاهل . . طيروا طيروا

ولا أثر لحماري ، ما الذي يحدث في هذا العالم الشرس؟ لا مفرّ لأعُد إلى البيت . . فتحت التلفاز على القناة المحلية :

(أيها المشاهدون : نزف اليكم بشرى سارة ، إن اللجنة المعنية قد أصدرت قرارًا قبل قليل بعد دراسات علمية مستفيضة ، بوجود متخصصين في علم الطيران ، أنها ستحمل على عاتقها صناعة الألبسة البالونية حسب المواصفات العالمية ، فإذا ما ارتدتها النسوة ، وقام أحد المحارم بنفخهن بمنفاخ خاص ، فإنهن سوف يطِرن بسرعة مذهلة ، تعادل سرعة الضوء ، كما نسترعي انتباهكم أنه سيتم توزيع هذه الأحذية والألبسة خلال يومين لدى وكيل الحصة التموينية بدلاً عن الحصة الغذائية ، فلن تحتاج إليها النسوة ، على أرض القمر ، وستتوفر القياسات المطلوبة كافة ، وعلى جميع النسوة من مواليد بغداد استلام أدوات طيرانهن بأسرع وقت ، ومن ثم

عليهن التجمع في ساحة الطيران بعد ثلاثة أيام ، لإجراء التجربة الأولى لطيران نساء العاصمة أولاً . . ومن ثم نساء المحافظات ، لذا فقد تضاعفت الميزانية المخصصة للمشروع للمرة الثانية ، وعلى النساء المخالفات تحمل المسؤولية القانونية وإليكم الآن هذه الأغنية «غريبة من بعد عينج يا يمه محتارة بزماني») .

تحسست الهوية الجديدة التي أحملها ، شعرت بالاطمئنان ، مضى اليومان ، كل ما حولي يضج بحُلم الطيران ، رأيتهن يتقاتلن على أبواب وكيل الحصة التموينية لاستلام ألبستهن وأحذيتهن ، لم أهتم كثيرًا بمشروعهن ، فقط التزمت بالمراقبة الدقيقة لربما أنشأت مع صديقاتي حزبًا ضد مشروعهم هذا ، فلن أطير إلاّ بمركبة فضائية ، لكن يجب علي العثور على حماري أولاً ثم أنظر باحتياجاتنا معًا ، فلكل حادث حديث ، أخذت أفتش عنه في كل الطرقات ، وصارت نقاط التفتيش مصدر راحة كبيرة لي ، رأيت خرافًا تتجول بكامل حريتها في الأحياء السكنية ، رأيت قططًا ونسوة يتسابقن على حصاد النفايات ، ورأيت متسولين يتقاتلون على جهاز تبريد عاطل لينامو داخله ، وانتهى صراعهم بتحطيم الجهاز نفسه ، وينمو بداخلي نداء الحب ، أخشى أن يكتشفوا تزوير هويتي ويرغموني على الطيران بطريقتهم قبل العثور عليه . .!

وحانت ساعة الصفر لطيران النسوة ، وهن يتجمعن جميلات بشكل واحد ولون واحد ، كلهن يرتدين الأحذية

المُجنحة نفسها ، كان الحذاء مغطى تمامًا بأجنحة الدجاجات ذوات الريش الأبيض ، أجنحة من الأمام والخلف من الجوانب ومن الأعلى ، لم أفهم كيف استطاعت النسوة ارتداءه ، بل كيف أدخلن أقدامهن فيه حيث لا منفذ للقدم ، لعله حذاء سحري مثل حذاء سندريلا ، أما الألبسة البالونية فهي مصنوعة من قماش المناطيد الهوائية ذات ألوان قوس قزح .

ركنت سيارتي في المكان المخصص للمشروع ، بالقرب من ساحة الطيران ، حيث تشير لافتة إلى مرآب مشروع الطيران ، وحملت بين يدي صحيفة اليوم لمعرفة تفاصيل أدق عن إعدادات الحدث ، كما حملت بضع أوراق أسجل عليها ملاحظاتي عن هذا الحدث المهيب ، فلربما وضعتها في روايتي التي سأعمل عليها عندما أتناول موضوع الملف ، وما إن سرت قليلاً حتى أبصرت الخاتون ، وهي تقبل نحوي ، أصبحنا أصدقاءً أو أعداءً لست أدري تحديدًا ، نلتقي بلا موعد مسبق ، ترى هل جاءت لتطير مع النساء؟!

أيتها العاشقة الفريدة يواصل الحصان سباحته في البحر ، ليدفع كرةً نحو الشاطئ ، تتدحرج الكرة ، كرة غير مرئية ، تنشر عطرًا . . ويدور العطر في الأماكن ، يغزو المدن ، يحتل الأزقة ، يغوص في الروح ، ينثر رذاذه ، فتكتب المدن تاريخها ، بمداد العطر . .

المدن محض إناث ، تفضل بعضهن العطور الفرنسية

المستوردة ، كالسيدة شانيل في تفردها ، وتفضل أخريات خلطات العطور العربية ، عطور صحراء الجزيرة العربية مثلا ، كدهن العود أو الورد أو الصندل ، وربما تغري العطور الإنكليزية إحداهن ، عندما يعبر أُسطولها باتجاه الفاو ، ليزهو تاجه في الشرق . . .

لكن أي عطر وضعته مس بيلْ وهي تتجول في بغداد؟ وأي عطر انتشت به مس كلنتون وهي تنقب عن بذور الخراب الشامل؟ وأي عطر باعته إحداهن فتلقت جرعات كهربائية؟ رحم التاريخ معمل لعطور الإناث ، عطر نازك مازال يثير فعولن وأخواتها . .

(أعطني قبلةً يا كليوباترا) سترت أنطونيو من عار الهزيمة بعطر غريب ، عطر هيباشيا ما يزال في قلوب رجال الكنيسة في جريمة الإسكندرية ، وعطر بنلوبي يغزو معامل النسيج العراقية ، فتواصل النساء انتظارهن لعودة قائد آخر ليس بأوليسيس . . وبطل زوسكين لم يغب يومًا عن بغداد ، يمارس هوايته ، لا يكل ولا يمل ، يقتل ويخطف ، ثم يذبح بتقنيات علمية عالية المهارة ، لهدف استخلاص العطر الخفي في الجميلات ، فيسلخ جلدهن يعجنه ، ويصفيه ، يريد عطر المدن في الإناث نقيا من الشوائب . . العطر قضية جوهرية رسمت الطريق للسيد المبجل التاريخ . . . . .

أراكِ تدونين ما أقول . . أحسنتِ .!

لمَ كنتُ أدون حديثها دائمًا لم أجد إجابة ، لعلي تعودت ، ولعلي نسيت السبب ، ولربما هذه أعراض الزهايمر المبكر ، الزهايمر الذي ورثته من جدتي بسعاد رحمها الله .

تحركت نحو بابا نوئيل وهو يجلس على الرصيف ، قرب صرته العتيقة ، ويوسد علمه بيده اليمين بقوة ، ويخط خطوطه على التراب بعصاه التي يحملها بكف يده اليسرى ، كان يرسم الأشكال نفسها . . . وأضاف لها هذه المرة دوائر صغيرة :

– صباح الخير بابا نوئيل ، هل رأيت تلك السيدة ذات الرداء الهاشمي إنها غريبة الأطوار تلاحقني دائمًا؟ . .

لم يجب ، حرك علمه قليلاً في الهواء ، وقف ورمى عصاه أرضًا ، ورفع كف يده اليسرى نحو أذنه ، تذكرت تحيته في المرة السابقة فابتسمت . . ثم ردد :

(قامت قواتنا الجوية في الساعة١٣ من هذا اليوم ٢٢ أيلول ١٩٨٠ بالتعرض للقواعد والمطارات العسكرية ، في عمق أراضي العدو وألحقت أضرارًا بالغة في الأهداف العسكرية أما وحداتنا الصاروخية / أرض– أرض/ فقد حققت إصابات دقيقة ، وألحقت أضرارًا فادحة بقواعد التموين الرئيسة) .

وجلس بعدها على الرصيف ، أمسك عصاه وعاد يخطُ بها . .

استغربت فأغنيته ناقصة هذه المرة ، مر أمامي أحد المسؤولين عن المشروع ، كان قصير القامة ، يضع نظارة على وجهه ، تتدلى من حنكه لحية غير منسقة ، يرتدى زيًا

عسكريًا ، ويثبت شارة على صدره بصورة القمر وامرأة ترتدي حذاءً مجنحًا ، ولباسًا بالونيًا ، المرأة بصورة غير متوازنة ، لا هي طائرة ولا ثابتة على الأرض ، توقعت أنها شعار المشروع ، أقبل نحوي وأشار بعصبية :

– وأنت أيتها السيدة . . . عدم مشاركتك مع النساء تُعَدُّ إثمًا ومخالفة قانونية ، ألا تعرفين؟

أظهرتُ له هويتي الجديدة وأنا أرتجف ، وقلت : موعدي مع نساء المحافظات فقط أتيت للتشجيع . .

أجابني بنبرة حادة وهو يشير نحو بابا نوئيل : وهذا المعتوه الذي تجلسين قربه ماذا يفعل قد يكون إرهابيًا؟

– لا لا . . . إنه مسكين . . .

ابتعد الرجل ، فتنفست الصعداء ، ونظرت إليهن . .

كان مشهدًا جليلاً مهيبًا ، تمنيت لو يرسمهن رسام قدير في لوحة تشكيلية ، لوحة نعلقها في المتحف العراقي كي لا يبقى فارغًا ، سارت أمامي إحداهن مع محرمها الذي سيقوم بنفخها ، وتصطحب معها بعض الفتيات الصغيرات بالسن ، ناديت عليها كأنني مشجعة لفريق ريال مدريد ضد برشلونة ، وفي داخلي كنت أريد معرفة توجهاتها في عالم الطيران ، سينفعنا هذا لو أنشأنا حزبًا ، فينبغي جس نبض الشارع قبل أية حركة وطنية :

– أنظري كم هو عمل عظيم ما تقمن به ، ها هي أخباركن

تحتل الصفحة الأولى وبالخط العريض . . وأريتها الصحيفة . .

أجابتني بصوت عالٍ : اعذريني لا أعرف فك الخط . .

لاحظت دمعة تسيل على خد بابا نوئيل وهو يرمق الصغيرات في المكان ، بنظرات حنون ، ثم سحب صرته ووضعها في حجره ، فالتفتُ نحوه : ما بالك يا بابا نوئيل هل تحلم بالطيران أنت أيضًا؟ . .

لم يرد عليّ يومًا ، فقط أكمل الجزء الناقص من أغنيته (ثم انتحرت فتاة ، وليخسأ الخاسئون) .

وبغضب بادٍ على وجهه كسر عصاه بيده إلى نصفين . .

عاد لكسرها ثانية إلى أجزاء ، يشير رجل الأمن نحوه ويضحك مع رفاقه ، وبابا نوئيل يقبض بكفه على العلم بقوة ، يحتضنه ، يقبله ، ويرفرف العلم :

– لا تقلق أعدك لو حصلت على مركبة فضائية سأصطحبك معي أنتَ وحماري ، ليكن سرًا بيننا ، هذا لو نجح مشروعهم ، وضحكت ضحكة طويلة ، لم ينطق ولم يبدُ عليه أي انفعال . . كان وجهه باردًا جدًا .

والتفتُّ أراقب ما يحدث . .

بدأ كل محرم بنفخ اللباس البالوني لمن معه ، فانتفخت كل النسوة ، بدون لي كبالونات أرضية متلاصقة لدرجة أنني خفت أن ينفجرن من ضغط الهواء ، بل إنني تمنيت أن ينفجرن ، فالسرد يجعلك خبيثًا ولئيمًا أحيانًا ، لم يحن الوقت

لانفجارهن ؛ لأن بعضهن استعان برجال السلطة والعلم ليؤكدوا لهن أن تلك الأدوات الخاصة بالطيران مأمونة لن تضر ، فهذا نوع خاص من النفخ المضاد لأي انفجار نسوي ، فالنساء عاجزات عن الانفجار ، وهن يحتملن دائمًا المزيد من النفخ أيضًا!

وإذا بصوت عالٍ من جهاز مُكبر يردد : (سيداتي سادتي يؤسفنا أن نبلغكم فشل عملية الطيران باتجاه القمر ، حيث أفادت اللجنة العلمية أنها قد أخطأت باستعمال أجنحة الدجاجات في صناعة الأحذية المجنحة ، فالدجاجات لا تطير لثقل أوزانها ، لهذا فإن اللجنة ستزيد من حجم الميزانية المخصصة للمشروع إلى أربعة أضعاف ، وهي ما زالت تجرب بغية الإنجاز الأفضل ، رغم أنها لا تؤمن بفكرة الطيران!!)

تركت موقعي ، وأنا أشعر بالسعادة لفشل التجربة ، فهذا يعني مزيدًا من الوقت حتى أجد حماري ، وقررت حينها توجيه رسالة عبر البريد الإلكتروني إلى اللجنة المختصة في المشروع الوطني ، لعلهم يساعدونني بتحقيق حلمي :

(السيدات والسادة ، العلماء والمفكرين في مشروع طيران النساء باتجاه القمر ، أطلب منكم مساعدتي في أمرين الأول البحث عن حماري ، ولأنه لا يستطيع ارتداء الحذاء المجنح أو اللباس البالوني ليطير ، وأطلب منكم تهيئة مركبة فضائية لأطير معه تنفيذًا لمشروعكم ؛ لأنني لا أستطيع الطيران بدونه ،

كـمـا أرجوكـم ألاّ تخلطوا بينه وبين حـمـار الحكيم ، ولاحـمـار ينسين أو خمينث أو حتى حمار جحا ، أو الحمار الذهبي الذي كـان لعـبـتي وأنا صـغـيـرة ، حـمـاري الذي أبحث عنه عـراقي أصيل ، وكل تلك الحمير مستوردة!

التوقيع : محبة الحمار)

يعدّل الرجل جِلسته على الكرسي ، كمن يستعد لإلقاء خطبة عصماء ، يشعل سيجارة ، يتأمل وجهي بعمق كأنه يراني لأول مرة ، لا أعرف هل يحب هو حمارةً ، ويخفي حبه عني ، لعله يبحث عن شبه لها في وجهي ، كما أفعل أنا بوجوه من حولي؟ وإلا لماذا يتفحصني بهذه النظرات؟ كل ما قلته له إنني أحببت حمارًا وأبحث عنه ، ولم أخبره أساسًا عن موضوع الهوية المزورة التي أحملها ، لكنه . . أخيرًا نطق :

– لن أتساهل بتأخيرك اليومي ، سكّتُ عنك في البداية ، تصورت تأخيرك بسبب نقاط التفتيش ، لكن لأني رئيسك بالعمل أحذّرك من التمادي أكثر ، أحذركِ و إلا سأتخذ بحقك الإجراءات القانونية؟

ارتبكت ، وشممتُ رائحة الشماتة بعشاق الحمير مثلي :

– نعم يا أستاذ ، لكني . . . لكني أبحث عن حماري يوميًا قبل وبعد الدوام ، الجميع مشغول بمشروع طيران النساء نحو القمر ، ولا أحد يلتفت لقضيتي ، لقد كتبت رسالة ، وطلبت

مركبة فضائية تلبي احتياجاتي الخاصة للطيران .! . . .

رمقني بنظرة كلها غضب ، عقد حاجبيه ، عض على شفته السفلى ، وأخذ نفسًا عميقًا ، ثم أشار بإصبعه تجاهي :

– دكتورة أمل عليك أن تطلبي طلبات منطقية ، الميزانية المرصودة للمشروع لا تحتمل مركبة فضائية لتطيري بها مع حمارك المزعوم ، اسمعي لقد كنت تتكلمين لما يزيد على الساعتين ، أُصبتُ بالصداع بسببك ، وما زلت تصرين على اللغط نفسه ، سوف أقوم بتحويلك إلى لجنة تحقيقية للنظر في أمرك ؛ لأنك تتعمدين الغياب عن العمل ، وتنشرين أفكارًا غير منطقية ، أخشى أن تنشري هذا بين الطالبات ، كل هذا فساد للعملية التربوية يا سيدتي . . . . . وقف ثم تحرك بعصبية وصفع الباب خلفه بقوة . .

وسرعان ما دخلت بعده الخاتون ، جلست قربي ، تنهدتُ قليلاً ، تحضر كعادتها في وقت عصيب ، غير ملائم ، دفعت إليّ بورقة كانت على الطاولة ، ومدت لي قلمًا ، غطيت وجهي بكفيّ فلا أريد رؤيتها ، فسمعت صوتها :

أيتها العاشقة الفريدة عطرٌ آخر التقطه عصفور ، فبلله المطر ، يرتعش العصفور ، يشعر بالبرودة ، ينفض ريشه ، مرة مرتين ، يتلفت يمنة يسرة ، يمد منقاره الصغير نحو الأرض ، يلتقط بضع حبات ، . يطير العصفور ، تاركًا عطره في المكان ، يحزن عليه بنجامين بطل فوكنر ، فيكسر ساق وردته ، أخته

كادي كانت برائحة الشجر ، بكى عليها بنجامين ، كان الصخب عنيفًا ، والعنف صاخبًا ، الوردة بلا ساق في يده ، وانكسرت عصا لرجل آخر ، كادي برائحة الشجر ، أغنية بنجامين ، عطر آخر في المدن ، عطرٌ دفعته الأمواج للشاطئ ، واختفت كادي التي كانت برائحة الشجر ، يبكي بنجامين . . دائمًا يبكي ، يسخر منه أخوه ، في كل زقاق في العراق بنجامين يبكي ، وينثر عطر وردته . . . .

عندما رفعتُ رأسي لأطلب منها الكف عن ملاحقتي لم أجدها ، ما الذي يحصل لي؟ كأن العالم كله يحاربني ؛ لأنني أحببتُ حمارًا ، وهذه السيدة تستفزني ، جمعت أغراضي وعدت إلى بيتي ووجدت مفاجأة بانتظاري . . .

عندما فتحت بريدي الإلكتروني وجدت ردًا من المنظمة الدولية لإنقاذ الحمير العراقية ، كان رد ممثلتهم أنهم عملوا حديثا في العراق ، وقد جمعوا بعض الحمير ، كلها سوداء اللون ورمادية ، ليس بينهم حمار أبيض ذو كوفية ملونة ، كما أبلغتني ممثلة المنظمة أن ظاهرة التفخيخ الجماعي للحمير ظاهرة حقيقية ، فبعض المنظمات الإرهابية تستغل طاعة الحمير لأصحابها ، لكنها قالت بالتأكيد سيعود إليكِ ، بعد أن تهدأ نفسيته من الرعب الذي عانى منه جراء الانفجار ، ووعدوني بأنهم لو عثروا على أي حمار أبيض سيتصلون بي سريعًا ما دمت أحسن معاملته ، وطلبوا مني أن أكتب لهم تعهدًا بهذا

عندما أعثر عليه ، كي لا يقوموا بمصادرته! . .

هدأت بعد وصول هذا الرد ، على الأقل سأبقى على تواصل معهم ، فهم لهم قدراتهم التكنولوجية الخاصة في البحث عن الحمير ، رحمك الله يا زكي أعدك سأعمل على الاهتمام بحمارك ، سأكتب لهم ألف تعهد بحسن معاملته ما إن أعثر عليه ، لكنني استغربت كيف تعمل تلك المنظمة على تهجير الحمير العراقية أليست هي من الثروات الوطنية ، ألسنا نحن مسؤولين عن تربية حميرنا ورعايتها خدمة للصالح الوطني؟ أخشى أنهم عندما يأخذون حميرنا يغيرون من أخلاقها ، لتقوم بخدمتهم لاحقًا!

ورقة

تدور لطيفة في الشوارع ، تسحل بطانيتها معها ، وتحمل بعض الأحجار في كيس معها ، تخفيه تحت البطانية التي ترتمي على ذراعها . . تمر قرب الطب العدلي في بغداد ، تعبس ، وهي تبصر صناديق خشبية تخرج منه . .

وتمطر سماء العراق صناديق خشبية ، بعضها يخرج من الطب العدلي ، بعضها من مشفى الطب الذري ، كلٌ يستلم حصته التموينية من الصناديق ، ويواصل دربه ، وتصيح أم كرار بصوت مرتفع ، تنزع غطاء رأسها ، تشد شعرها ، وتضرب وجهها ، صندوقها صغير ، ويقفز صدى الحلم على الحبل أمامها :

- يا أمي هل سأشفى؟
- إن شاء الله حبيبتي . . . إن شاء لله . .
- وهل سيطول شعري؟ .
- سيطول طبعًا .
- أشعر بتعب ، كبير ، لا أستطيع المشي يا أمي . .
- تعالي لأحملك حبيبتي . . .

تحملها إلى مشفى الطب الذري ، يقطع السائل طريقه ، في كل مرة يقطع الطريق نفسه ، كما تقطع الكواتم شوارع بغداد ، يصرع بعض الكريات في دربه ، وتصرعه الكريات ، يسقط الرصاص في قلوب الأمهات ، معركة حامية الوطيس ، يحتج طقس بغداد ، فيثور الغبار ، تواصل الرصاصات دروبها ، ويواصل الغبار نثره ، تتقطع الأنفاس ، وداء لا شفاء له ، أنين ووجع لا يموت ، ممرضات ، وأطباء ، وينتظر الصندوق الصغير ، فتحوا الصندوق ، دخلت فيه الصغيرة ونامت ، نامت بلا شعر ، ونام الحلم أيضًا ، تضرب الأم صدرها ولا مجيب ، مفرق الأحباب قرر ولا عودة عن القرار ، انقضى الأمر ، أغلقوا الصندوق ، من سيحمله ، من سيوصله ، من سيدفع ثمنه؟ معضلة أخرى ، حتى تبرع أحدهم بالتكاليف ، لتحمل سيارة أجرة الرقم الجديد باتجاه وادي السلام في النجف الأشرف ، وتنام الصغيرة إلى الأبد ، تحرسها الأم كل ليلة ، تبيت قربها ، ترفض مغادرة المكان ، فصغيرتها تخاف القطط والكلاب ،

وتهذي أم كرار ، إنها تخاف تخاف ، كيف أتركها هناك ، تدور الذئاب في المقابر؟ يحملها أحدهم عنوة إلى بيتها ، تسقط صريعة الفراش بكاتم اسمه فقدان الصغيرات ، وتبقى لأيام تهذي ، لتقابلها صغيرتها الأخرى زهراء : أمي أرجوك تعافي ، ويبكي كرار . . . .

تمسح هيلة دمعتها ، وهي في البلد الغريب ، تشعل سيجارتها ، وتبصر في الدخان رحلة المصير ، تدير وجهها للخلف ، تجد نفسها مع ابن عمها فاضل ، تتوسد أعوامها الأربعة عشر ، عيناها السوداوان الكبيرتان تراقبان من النافذة الطريق ، فمها مصقول ، وبشرتها الحنطية تمنحها جمالاً فريدًا ، تغفو ضفيرتها على صدرها الناهد ، سيشتري فاضل لها ثياب العيد ، من إحدى المحافظات صدقة لروح أخته دموع ، الثياب هناك أرخص ، هكذا قال لها ، دموع ابنة عمها وصديقتها ، تستحق الثواب ، تتنهد هيلة :

– أحبك يا هيلة لكن لا تغضبي مني لو فارقتك يومًا . .

– لن تفارقيني سنبقى للأبد ، ولعل هذا الذي ستتزوجينه سيسمح لي بزيارتك ، أمك قالت إنه زواج لأيام فقط ، فلمَ تخافين؟!

لو عرفتُ نواياك يادموع لمنعتك ، لوجدت لك حلاً ، لهربنا سوية ، خالتي أم مظلوم طيبة ، كانت ستدبر الأمر ، لماذا لم تستشيريني ألستِ صديقتي؟ حبيبتي ، سألبس الثوب الجديد

وأقرأ على روحك الفاتحة . .

– رحم الله دموع يا فاضل . .

– فضحَتنا يا هيلة ، ونكست رووسنا بفعلتها الشنعاء ، إنها لا تستحق الرحمة .

استغربت رده لكنها سكتت ، وخامرها شك بنوايا فاضل ، تستغفر ربها ، وتحاول طرد الفئران وهي تعبث بأفكارها ، مع هذا لا تشعر بالراحة .

فاضل ابن عمي في كل الأحوال لن يفعل بي شيئًا خطيرًا . . ليرحمك الله يا دموع ، سأختار أجمل ثوب لأجلك ، سأجعله يدفع المال انتقامًا لكِ . .

تشتد الثرثرة في الحافلة ، مشروع طيران النساء فكرة مذهلة ، سيبدأ به العراق ثم بقية الدول العربية ، بالتأكيد مشروع ضخم كهذا له فروع في كل دولة ، لكنه تعطل في المرة الأولى ، سينجح في الثانية بالتأكيد ، فهم يصرفون مبالغ طائلة عليه ، إنهم نشطون يقضون الليل والنهار ليعمل عليه رجال مختصون ، علماء بفن الطيران ، ماذا تريد النساء أكثر من هذا؟ لهن نسبة عالية في البرلمان ، وسوف يطرن أيضًا؟ ربما المرة القادمة يعملون على مشروع يطير به الرجال ، أتعتقد يا علي لابد من هذا؟ وإلا فإن النساء سيتفاخرن علينا بعد عودتهن من القمر ، والله يا أخي أنا حائر أين أجد العمل بعد مقتل صاحب محل الحدادة الذي أعمل فيه؟ ليرحمه الله ويعين

أهله ، له سبعة صغار ، صاروا يتسولون في الشوارع ، كبيرهم يبيع قناني الغاز مع إحدى السيدات ، والآخر يذهب مع خالته يعمل معها في مسطر النساء ، لكنهم عائلة ، كبيرة كان الله في عونهم ، الله كريم يا أخي تصبر ، هل سمعت شيئا عن نتائج اللجنة التحقيقية في سرقة بنك الحيزبون؟ لا يا عزيزي مطلقًا ، بعضهم صامت يراقب الطريق مثل هيلة ، تقطع الحافلة طريقًا صحراويًا .

– فاضل لماذا الطريق كله تراب ولازرع فيه؟

– ليس هناك ماء في العراق يا هيلة .

– لا تكذب ، أعرف هناك نهر دجلة ونهر الفرات . .

– قلت لك لا ماء يا هيلة ، هناك سدود تُبنى عند الدول المجاورة ، تسحب المياه .

– وماذا يعني سدود؟

– لاشيء يا هيلة . . لا شيء دعينا في حالنا . .

– ما هذه النيران والدخان؟

– إنها آبار نفط ، تشتعل . . .

– هل تقصد أن النفط يكون في بئر مثل بئر الماء؟

بلهجة غضب : هيلة التزمي الصمت ، لا يجوز للنساء الحديث في الحافلات .

تصمت يعود إليها الخوف والقلق ، تلتفت إلى وجه فاضل محاولة أن تستشف من وجهه نواياه ، لكنه لا ينظر إليها ، يعقد

حاجبيه ، تعاودها فئران الأفكار ، تتذكر دموع ومآلها :

- فاضل لا أريد ثوبًا لنعد .

- هيلة قلت لك اصمتي .

تقف تنظر في ساعتها ، ثم تضع ستارًا من القسوة على وجهها ، تتزين بالقلائد والحلي ، وقبل أن تخرج تخاطب نفسها بإصرار : سأعلمك يا فاضل من هو الذي سيصمت . .! ، وعندما فتحت الباب وجدت قطة نائمة لا تتحرك عنده ، فركلتها بقدمها ، وابتسمت لأنها كانت تخاف القطط سابقا!

(٩)

قرأت تلك الورقة مرتين ، الأولى عندما تسلمت الملف من المرحوم زكي ، والثانية وأنا أعمل على إعداد روايتي ، شعرت بالاختناق ، ففتحت النافذة لأستنشق الهواء النقي ، حتى طارت الورقة من النافذة المفتوحة ، خفت أن أخرج في الظلام لأجلبها ، لكنني سمعت حركة وخشخشة قلائد ، وظهر لي وجه الخاتون ، تقدمت نحوي لتعيد إليّ تلك الورقة وتقول :

أيتها العاشقة الفريدة الحدس عطرُ أنثى ، والأنثى حدس ، جواري الأمس رسمن السياسة ، شغف لا تقبل منافسة ، قلب المعتضد ملكها وحدها ، وأدارت أخرى الكفة بعبارة (ليس هذا وقت إظهار الجزع والبكاء إن صحتِ قتلتكِ) ، ليداعب التاريخ شمس النهار عندما اختارت الخليفة ، وأخرى لا شمس في نهارها لتشرق قصتها ، ولا مملكة تحافظ عليها برفع صوتها ، ولا شغف تنافسها على قلب الخليفة ، وكل نعجة عندما يحين ذبحها ، ترفس التراب بقدميها ، لينتهي ذبحها في دقائق ، وكلما صغر سن النعجة ارتفع الثمن ، لحم الصغيرة ألذ ، يسهل طبخه ، وربما شواؤه ،

فهو يمتص بسرعة كل أنواع التوابل ، ويواصل بنجامين العراق البكاء على أخته العراقية التي برائحة ورد الرازقي!

واختفت في الظلام الدامس في ليل بغداد ، أذهلتني جرأة هذه السيدة ، كيف لها أن تتجول في هذا الليل في بغداد ، ألا تخاف؟ شعرت بالغيرة منها ، أغلقت النافذة ، وأنا أحاول تذكر حكاية الجارية شغف ، وكأن فهيمة صديقتي ذكرتها ذات مرة ، لكن ما بال هذه السيدة تقول كلامًا لا رابط فيه؟! لعلها مصابة بداء الزهايمر ، رحم الله جدتي بسعاد كان جدي يجلب لها الأدوية المضادة للزهايمر ، ما بال النسوة اليوم في بغداد ، لا أحد يفكر بعلاجهن؟ ربما لأن الجميع منشغل بقضية الطيران ، اشتقت إلى منطقك يا فهيمة ، كم قلت لك أن تكفي عن القراءة ، فهي ستسبب لك المتاعب بكثرة جدلك وبحثك عن منطق الأشياء ، كنتِ تضحكين وتقولين لي :

– لا أستطيع التوقف ، فما قرأته جعلني أكشف حجم البشاعة والقسوة في العالم ، صرت أحمل همومًا أخرى غير همي ، ولو ولدت ابنتي لن أشجعها على القراءة ، الحكاية تمامًا كما قال المتنبي :

ذو العقل يشقى في النعيم بعقلهِ

وأخو الجهالة بالشقاوةِ ينعم . .

ترى لو حدثت فهيمة عن قصة حبي للحمار ماذا ستقول لي؟ لا لن أفعل إنها امرأة تريد المنطق العام خلف الأشياء ، وأنا

صنعت لنفسي منطقي الخاص .!
عدت أواصل القراءة في الملف . . .

ورقة

تعود هيلة لغرفتها الصغيرة عند الفجر ، تبصق على الأرض ، تشعر بغثيان ، تمدد جسدها أمام مرآتها ، تبكي بحرقة ، فرحلة الأمس ترافقها في كل لحظة . .

تغرد المطربة في مذياع الحافلة (لا صايرة ولا دايرة) تصل الحافلة إلى مرآب آخر ، ينزل الركاب ، ينتظر فاضلاً رجلان ، أحدهما كان متوسط العمر ، طويل القامة ، ضخم الجثة ، ذا أنف أفطس ، وفم كبير ، وعينين صغيرتين ، كأنهما دودتان ، يرتدي دشداشة بيضاء عليها آثار بقع بنية ، ونعالاً ممزقًا ، يحمل بيده اليمين حقيبة صغيرة سوداء ، يبدو الآخر أقصر وأصغر منه ، يرتدي دشداشة رمادية نظيفة ، أذنه اليمين مقطوعة ، قال طويل القامة :

– الحمد لله على السلامة يا فاضل . . ويحول نظره نحو هيلة ، يرمقها من الرأس لأخمص القدم ، يبتسم بمغزى : جيد . . معقول . . لنبتعد من هنا قليلاً . .

يتحرك الجمع نحو مكان منزوٍ بعيد عن العيون ، خلف المرآب ، ليس سوى بضعة كلاب تتجول ، تحمل بين فكيها بقايا من النفايات المترامية ، ينكمش قلب الصغيرة ، تشعر

بالهلع الغريب ، كل شيء يخيفها ، المكان والوجوه ، فاضل أصبح مخيفًا ، تتسارع نبضاتها ، تتذكر حديثها مع دموع ، كانت صاحبتها تخاف من رجال ربما يعرونها ، هيلة تخجل من الغرباء كثيرًا ، ودموع كذلك ، لا تحب كلتاهما الأشياء المعيبة ، هكذا كانتا تتحدثان ، تلتصق هيلة بدشداشة فاضل أكثر ، تحاول إخفاء نفسها خلفه ، وعيون الرجلين تراقبها . .

ينحني فاضل نحو هيلة ، يسحبها من كف يدها ، يبعدها قليلاً عن الرجلين :

– اسمعي هيلة إبقي مع هؤلاء الرجال بعض الوقت ، اسمعي كلامهم ونفذي ما يطلبون منك ، لا تخافي كوني قوية . .

تصعق هيلة ، تفتح فمها وعينيها ، كمن صعقته الكهرباء ، ينتابها في البداية وجوم ، ثم تصيح فجأة صيحتها ، تبدأ بالبكاء والتوسل ، تشير بيدها الأخرى : فاضل . . فاضل ابن عمي أين تتركني؟ لا لن أبقى مع أحد . . قلت ستشتري لي ثوب العيد ثوابًا لروح دموع . .

يصرخ بها بعصبية ويعقد حاجبيه : قلت لك سأذهب لتصريف أمر وأعود لك ، أمر نكسب منه جميعًا ، هؤلاء أصدقائي لا تخافي ، لا أستطيع اصطحابك معي ، اسمعي الكلام . . .

يسحبها من يدها ، ويقلص حاجبيه بقوة ، ويوجه كلامه

للرجال : حسنًا . . سلموا واستلموا . .

يفتح فاضل حقيبة جلدية ، يقلب محتوياتها ، يغلقها بسرعة ويبتسم ، يفكر بمشروع ، تراقب هيلة ما يحدث ، هيلة داخل المرآة ، هيلة خارج المرآة ، هيلة في العالم الغريب ، تبصق كل يوم ، هيلة مازالت في الرحلة ، لم يفهم عقلها الصغير ، يضع فاضل كف هيلة الصغيرة في قبضة الرجل ضخم الجثة . .

يترك كف هيلة ، تتشبث الصغيرة بكفه ، تشده فيسحب كفه ، حتى تحكم قبضة الرجل ضخم الجثة على كفها ، تحاول سحب كفها ، تحاول الانفكاك من القبضة ، يسحبها الرجل بعيدًا من يديها ، قبضته قوية لا جدوى ، ترمي بكامل جسدها على التراب ، يسحلها الرجل وهي تصرخ : اتركوني . . اتركوني . . يركلها الآخر بقدمه ، كفي كفي عن الصراخ لا تفضحينا ، ويمسح بيده أثر أذنه المقطوعة . . . .

تتوجع هيلة من الركلة ، ما زالت تتوجع ، ركلة لا تموت ، ركلة تمنحها الأيام عمقًا ، تبكي وهي تُسحب على الأرض ، يبرز وجه فاضل على المرآة فتنحني لتسحب حذاءً ذا كعب عالٍ ترمي به المرآة ، تتكسر لقطع متنوعة الأحجام ، تشعر بالراحة ، تضع تحت رأسها وسادة ، يعود لها وجه فاضل معكوسًا على إحدى القطع المكسورة ، تبصق عليه وترميه بسكين كانت قربها! . .

ينسحب فاضل مع الحقيبة الجلدية ، يدير ظهره ، يحرك

ساقه اليمين ، يسند الأخرى على عكازة ، لا يلتفت ، وصوت يواصل التوسل : فاضل فاضل لا تتأخر أرجوك ابن عمي لا تتأخر . . .

ترفع هيلة الفردة الثانية من الحذاء ، وترمي به قطعة المرآة المكسورة ، وتصرخ : أنا التي لن أتأخر عنك يا ابن عمي صدقني . أقسم لك بطهارة دموع . . . تغفو هيلة بين حلمها ودموعها . .

يسير فاضل ويقترب من رجل أمن في المكان ، ليعود في الحافلة التي جاء بها ، حيث تصدح الأغنية ذاتها .

أغنية شقراء برائحة شط العرب ، ووجه بيضاوي تلتمع فيه عينان سوداوان ، شعر أسود منسدل على الكتفين ، تغوص فيه خيوط رفيعة مصبوغة بالذهبي ، يتمايل شعرها مع الإيقاع ، لولو الصغيرة جاءت من الجنوب ، يعلو تصفيق أهل الفن ، تتحرك تسعة عشر عامًا على المسرح ، يعلو نجمها ، غضة ريانة مثمرة تصل بغداد ، يستقبلها نادي الزيتون ، تنتقل أشجان من المسرح إلى الشارع ، تحتضن لعبتها وتقف أمام كارتونة ، صالة المسرح تنتظرها ، الجمهور غفير ، بعضهم يجلس على الأرض ، يصفق الجمهور ، يتصدق بعضهم بلقمة ، تبحلق في وجهه ، لتشدو في المسرح ، يومض شباب امرأة تغني وتعشق ، وللعشق إغراء ، رجل ليس مثله بين الرجال ، تبرق نجوم على كتفيه ، يريد الرجل القوي أشجانًا ، يخفق قلبها ، أشجان تحب الحلال ،

تغني ترقص لكنها تريد الحلال ، تخاف الفجور ، تتوسد كارتونة ، وجهها مغبر ، وعيناها مطفأتان ، ونظرتها مرتعبة ضيقة ، تصعد المسرح ، تخطو خطوات ، يتعالى الهتاف ، تحني رأسها خجلاً ، امرأة في قلبها طفلة تلهو بلعبة . .

ينكمش الوجه ، أين الإيجار سيدتي؟ لا إيجار ، وتقيم أشجان في شقة أمام نادي الزيتون ، طلباتها أوامر ، أم لأطفال ، تخرج كل ليلة تطربهم في النادي ، ويفرش النسر جناحيه ، يهبط من سيارته السوداء ، سيارة من نوع تويوتا ، وسلاح ظاهر في جيبه الأيسر ، يدفع لها الحساب ، تستحق أم الأولاد ، والعقد السري طواه النسيان ، غابت الشمس ، كيف تتزوجين يا أشجان؟ كيف تجرؤين على الإعلان؟ إنه نسرٌ له نساؤه الخاصات ، ذاك إثم مبين ، وحسناء خمرية ترقص تغني في الأعياد : (ومن الصغر حبيبته ، وقال لي أجي وما جاني بس لا نسى عنواني) لا أبناء لك يا أشجان ، لا يجوز لمثلك أن تنجب ، صفعة ثم صفعات ، كيف الخلاص؟ يفتح أبوابه مشفى ابن رشد للأمراض العقلية ، هل تريدين أولادك؟ تزلزلها صعقة كهرباء ، وتضربها هناء ، يتصارعان على وسادة ، هناء تريد النكث بصفقة الأمس ، و ما زال المسرح ينتظر أشجان ، موعد حفلتها الليلة ، تأخرت لم تعد ، تبحث عن المسرح ، وهربت من المشفى ، وتركت الوسادة لهناء ، توجهت نحو المسرح ، انهال التصفيق ، لتستجدي الطعام ، أنهكها المرض ،

ما زال صوتها في الحافلة (لا صايرة ولا دايرة) لفظها صاحب البـيت ، أخـرجي لا مكان لك هنا ، ترتجف الروح ، تسـحب أغنيـاتهـا ، وتتـوسـد شـجـرة ، بدأت حـفلة الليلة ، مـصـورون وإعلاميون ، رجال على أكتافهم نجمات وسيوف وأجنحة طيور ، يحتلون المقاعد الأولى يشربون ويرقصون ، مطربة الحي الجميل ، لا تنطق لا تهـمس ، انطفـأ الصـوت وهي تصـدح في أولى خطواتها (أعتب عليك حبيبي) تبقى تعتب ، يصل فاضل إلى بغـداد ، يمنح بعض المتسـولين المال ، ويتـبـرع لأحـدهم بوجـبـة كباب دسمة ، أحلامه تداعب خياله ، ولا يعتب ، وحدها هيلة تُحاسب المتبقي من المرآة بضربة من حذاء آخر! .

(١٠)

مضى زمن طويل لم يعد يسأل عني ، حمل متاعه وهاجر ، شأن كل من هاجروا ، شأن إخوة فهيمة أيضًا ، لو أنه هنا لكلمته عن حماري ، لعله يمنحني رأيًا حقيقيًا ، ولعله يوضح الأمر لرئيسي في العمل :

– يا أخي رأيتني أدخل مقهًى مزدحمًا بالبشر ، أصواتهم كانت تمزق أذنيّ ، أردت أن أفعل شيئًا قبل المغادرة ، أردتهم أن يصمتوا ، فوقفت وسط المقهى وقلبت الطاولة ، ثم الكراسي ، أحدثت ضجيجًا ، حتى صمتوا والتفتوا نحوي جميعًا ، نظروا إليّ وكأنني كائن فضائي ، فمنحتهم ظهري وخرجت ، كنت تبصرني أنت من البعيد ، لكنك أدرت ظهرك لي في الاتجاه الآخر . . .

– أمل . . اسمعيني جيدًا لقد أعددت نفسي للهجرة ، لم أشأ إخبارك قبل أن أنتهي من إعداد أوراقي ، سأسافر غدًا . .

– نعم! . . ماذا تقول يا أخي . . كيف؟ ولم؟ .

– سامحيني ، ما زالوا يضايقونني في العمل ، سبق وحدثتك عن محاولتهم ابتزازي . .

– لكنك قلت لي إنهم كفوا عن ذلك . .

– لا لم يكفوا ، بل إن الأمور تطورت إلى تهديدات مباشرة ، سأسافر بعيدًا عنهم ، ومن هناك سأفضحهم جميعًا ، حين أسلم على حياتي . . .

بكيت كثيرًا عند وداعه :

– يا أختي سأقلق عليك كثيرًا ، لا حول لي ولا قوة . .

وضعت ثلاثة أبواب من القضبان الحديدية فوق بابي ، في اليوم الذي سافر فيه أخي ، ورفعت صورته على الجدار مع الباقين ، غادروا كلهم ، وتركوا صورهم ، الأولى صورة أمي وأبي في عيد ميلادي السادس وأنا أحمل حماري الذهبي ، ما أجمله ، تلك الدمية التي جلبها والدي هدية لي ، كم فرحت به وبقيت أتجول وهو يرافقني أينما حللت ، ما زلت أتذكر عطر والدي عليه حين شممته ، وضحكت أمي فقامت برشّ عطرها أيضًا :

– هكذا يا صغيرتي يكون لديك عطر أمك وأبيك فوق لعبتك ، فحافظي عليه . .

لكنني أضعته ونحن نتجول في حديقة الأمة ، بكيت يومها كثيرًا ، وعدت للبحث عنه في اليوم التالي ، ولم أجده ، وبعدها بأسابيع قليلة وقع صاروخ على بيتنا في حرب الثمانينيات ، استشهد إثره والديّ :

– جدتي كيف يموت أبي وأمي ويختفي حماري الذهبي في الأسبوع نفسه؟

– صغيرتي عندما تكبرين ستفهمين الحياة والموت . . . .

وتلك صورة جدتي بسعاد صاحبة الحكايات العظيمة ، هي التي قامت بتربيتنا أنا وأخي ، كانت تجيد القراءة والكتابة ، جدتي بسعاد التي حدثتني عن جدي وهو يحمل لها الأدوية المضادة للزهايمر ، أتذكرها وهي تصنع لنا الخبز على المدفأة عند تعرض البلاد لظروف قاهرة في التسعينيات ، وعملت في صناعة بعض الحلويات لتبيعها ، كما مارست الخياطة للنساء ، فما كان يصلها من إرث أبيها مبلغ ضئيل ؛ لأن إخوتها استولوا على سائره ، رغم أنه كان رجلاً فاحش الثراء ، لكنها خجلت أن تطالب بحقها الشرعي في الإرث واكتفت بما يمنحونه لها ، حتى قطعوا عنها كل شيء ، لم تعتب على أحد ، ولم تذكرهم بسوء ، ولم يترك لها جدي شيئًا سوى مكتبته العامرة ، فباعت كثيرًا من كتب جدي ، واحتفظت برواية الحمار الذهبي ؛ لأنها أحبتها . .

وتلك صورتي في المدرسة ، تقف شروق أول الصف ، وهي تحتضنني ، أنا بئر لأسرارها وهي كذلك ، رحلت وتركتني في مواجهة العالم ، كم حاولت تشجيعها لتجاوز وجع قلبها عندما هجرها حبيبها ، حتى قضت الأعراف العشائرية عليها ، أحبك يا شروق ، لو أنك هنا لحدثتك عن حكاية حماري ، وحدك كنت ستفهمينني ؛ لأنك تعرفين كم أحببتُ حماري الذهبي ، لقد جلبت لي لعبتها بعد ضياع حماري حينها ، وبقيتُ مصرة

على حب حمارٍ ضاع مني .!

والصورة الرابعة لأخي ، كم ضحك عليّ عندما بكيت فقدان حماري الذهبي ، كان يرسم لي كل يوم حمارًا يلونه بألوان مبتكرة ، لعلي أرضى بغير ذاك الحمار ، وكنت أصرّ على عطر أمي وأبي في الحمار المفقود ، فصار يعطر الورق لي ، حتى هاجر إلى بلاد الثلوج ، ليصنع لنفسه وطنًا في المنفى ، فأحببتُ حمارًا حقيقيًا . . . وحلمت بالطيران معه في مركبة فضائية ، أين الخطأ في هذا؟! وماذا لو أحبّت الطالبات مثل حماري هل سيؤثر هذا على مجرى العملية التربوية التعليمية؟ لماذا يتخذ رئيس القسم هذا الموقف الغريب؟! طلبت دعمه فانقلب ضدي ، هذا الرجل المثقف لا أمن له ، أشعر بخبثه ، المرحوم زكي كان أكثر نقاءً وطيبة منه ، زكي الذي عرض عليّ أن يبيت في حديقة المنزل ، ليقوم بحراستي بعد هجرة أخي ، قال لي : أخاف عليك سيدتي أنت وحدك والبلاد لا أمان فيها . . رحمك الله أيها الطيب . .

لم لا تظهر يا حماري ، أنا قشة في مهب الريح ، وأنت حزين أردت التعبير عن حزنك بمصيبتك بفقدان صاحبك المرحوم زكي ، ففررت ، ولو كنت قربي لهدأتُ قليلاً ، ولكنت واسيتكَ في مصيبتك ، ولتذكرنا أيام دلالك وعزك حين كان المرحوم زكي يشرف على تنظيفك وتغذيتك ، وتزيينك ، أعرف أنك تحب الخس كثيرا ترى ماذا تأكل الآن؟ وهل تتذكر عندما

وضع الحنة على أذنيك يوم العيد وألبسك الكوفية الملونة؟ هل ما زلت تحتفظ بها؟ أم سرقها أحدهم؟ هناك مغتصبون للذكريات ، ولم أعد أتذكر وجه بغداد ، لقد سرقوا وجه بغداد مني ، وأبدلوه بوجه آخر ، صدقني لست وحدك الحزين ، وأنت تتجول في بغداد ، راقب البشر كم منهم تعرض لسرقة ذاكرتة؟! بكيت يومها . .بكيت بقسوة ، كما حدث عندما توفيت جدتي ، فارتميت فوق الجثة . .

تفترش السرير كهولة امرأة ، يتباطأ النبض ، يبدأ الجسد بالبرودة ، احتضنت كفها بين كفي ، قبلتها وشممتُ عطرها ، ليتنا نضع عطر أرواح من نحب في علبة زجاجية ، نضعها تحت الوسادة ، أو نحملها في حلنا وترحالنا ، ونفتحها كلما احتجنا لها ، لماذا لا نستطيع القبض على العطر؟ ما الذي تفعله بنا العطور؟ مرةٌ الدموع حين تنكسر ، ومرة وهي تحترق ، ومرة أكثر حين تبكي العطر المفقود ، الجدة تحتضر ، تفاحة آدم بارزة ، يشتد الاحتضار ، وكيف الإمساك بمن سيغادر؟ .

(لا جدوى يا أمل هكذا حكمتْ ، سيعلن اليتم إقباله ، لن تجديك الجثة تماسكي ، وواصلي الرحلة ، فما زال الشوط طويلاً في رحلة بحثك عن الحمار ، هكذا تقول لك الراوية)

تعلو أصوات (لا إله إلا الله)

– عزيزتي البقاء لله ، كانت كبيرة في السن ، وحاولنا جهدنا . .

عـدت من رحلة الأمس ، وليس أمـامي إلا غـضب رئيس القسم ووعيده ، وصوت ليلى :

– لم كل هذا البكاء يا عـزيزتي وأنت الضـاحكة دومًـا؟؟ وربتتْ على كتفي . .

استيقظت طفولتي لحظتها ، وافتقدت أمي كثيرًا ، افتقدتها أكـثـر من جـدتي ، أمي التي لـم أرتو منهـا ، وأبي غـاب تاركًـا عباءته تنتظر ، ما زالت عباءته معلقة على الجدار ، كم دثرني تحتها وأنا طفلة ، كنت أخاف القطط ، كلما لمحتها في الحديقة بكيت ، ليـقـبـل ويلفني تحت عـبـاءته ، ويلعب معي بحـمـاري الذهبي ، لأكف عن البكاء ، والقانون الدولي اليوم يقف عاجزًا أمام بكاء أي عراقية .! .

– سيتم إحالتي إلى لجنة تحقيقية بقرار من رئيس القسم يا ليلى . . .

– ماذا؟ لجنة تحقـيـقـية؟! مـا الذي فعلته؟ أنت مجـدة في عملك ، لولا تأخرك عن العمل قليلاً ، وهذا لا يستحق أيعقل؟ أخشى أنك حدثته عن حلمك بالطيران عبر مركبة فضائية؟!

– نعم قلت هذا ، وهو من حقي!

ولم أعـرف مـاذا أقـول أكـثـر؟ تواصلت دمـوعى ، شـعـرت بالحـاجـة لاحـتـضـان حـمـاري الذهبي ، احـتـجت عـبـاءة أبي ، ورغبت باللعب في حديقة الأمة مع شروق! . . . .

– أتفـهـمك لكنني سـبق وحـذرتك ، لسنا بالصـوت الذي

تستقبله آذانهم ، وليس علينا إلاّ المراوغة والتخطيط لنأخذ ما نريد ، سكتتْ قليلاً ثم واصلت . .على أية حال لا تهتمي كلهم يتحدثون عن لجان تحقيقية ، ولا نتائج لها ، إنه مجرد خبر إعلامي كما نسمع في الأخبار ، . . لعله قد رشح نفسه بقائمة انتخابية وأراد دعاية إعلامية لنزاهته في العمل .

خبر إعلامي . . عبارة أقلقتني أكثر ، ما شأن الإعلام بحياتي العاطفية؟ وما علاقتي بالدعاية الانتخابية؟ سيجعلون مني سخرية ، من سيفكر بحادثة اغتيال المرحوم زكي صاحب بسطة الخضار ، ومن سيفكر بمصير أطفاله المعوقين وحماره الضال ، إذا كانوا مشغولين بمشروع الطيران! . والإعلام يجذبه نوع خاص من النساء الحمقاوات ، يرفعهن فوق النجوم ، ليجمل بهن شراسة الأخبار الدموية ثم يضحك على سقوطهن المخجل في الفاصل الإعلاني . .!

– هل تعتقدين أنه يهدد فقط؟

– صدقيني عزيزتي لا وجود للجان تحقيقية ، عليك الالتزام بوقت العمل لهذه الفترة ، حتى يهدأ وينسى . . . لكن خبريني لم هذا التأخير في العمل مؤخرًا؟ ليس من عادتك؟ هل منبه ساعتك لا يعمل؟

حركت رأسي بالإيجاب وهمست : نعم . . . ساعتي متوقفة منذ زمن ، يجب عليّ تبديل بطاريتها أو الاعتماد على ساعة الهاتف النقال . . . .

وما إن خرجت ليلى ، حتى سمعت صوتها كأنها خلف الباب :

أيتها العاشقة الفريدة هناك مسارح يعلو فيها البكاء ، وهناك لاعبون وحكايات ، وبعض الحكايات مسامير ، أين نثبتها؟ أعلى صفحات الروايات؟ أم التاريخ ، والتاريخ يكذب دومًا ، كيف نثق به؟ وهل تُجدي المطرقة لتثبيت كل المسامير ، وعصفورة ترفرف فوق الشجر ، اختطفت الحية صغارها ، وما زالت ترفرف ، فتقبل عليها بقية العصافير ، يعلو صياح الجميع ، تبكي لأجلها كل الطيور ويبقى الريش يتناثر ، تحمله الريح ، وينتشر الريش في بغداد ، وسيدة تراقبهم تبكي وحيدة تستجدي عودة الفرخ الصغير ، كما يبكي بنجامين أخته ، وتنكسر عصاه .

انقطع الصوت ، وبقيت مع الخيبة ؛لأني لم أجدها خلف الباب ، ليت هذه الخاتون أنصفتني!

حملت نفسي وتوجهت إلى حديقة الأمة ، بقيت أراقب المارة ، وأتمنى لو أن حماري يأتي هنا ، فتذكرت حديث زكي أن حماره كان يفضل الدوران حول هذه الحديقة :

– لا أعرف لماذا لا يدخل الحديقة؟ أحيانًا أتصور أنه يحرسنا . .

درت حول الحديقة أكثر من مرة ، لم أجده ، شعرت بالتعب ، وعدت أدراجي ، وفي الطريق بدأ دوي انفجارات لا

يتوقف ، وسيارات إسعاف ، وضجيج كثير ، ونعيق غربان من كل مكان ، وعندما وصلت كنت مرهقة أقفلت أبوابي الثلاثة ، وسحبت عباءة أبي من على الجدار وتدثرت بها ، فقد كان البرد شديدا ، وفجأة سمعت نهيقه . .

يا إلهي . . إنه هو . . بلى هذا هو النهيق الحزين ، الذي أعرفه ، لابد أن حماري قد جاء إليّ أخيرًا ، هو يعرف بيتي جيدًا ، لعل الذكريات جذبته إلى هنا ، أشعر أنه خلف الباب ينتظرني ، نعم أنا واثقة بأنه هو ، سأفتح الباب وأبدأ معه الخطوة الأولى في مشروع وطني عظيم فكرت به قبل أيام . .

ورقة

تغطي عباءتها منتصف جسدها وشعرها الأبيض ، تسحب بطانيتها معها ، وتسير حافية القدمين ، أخذت الصابونة من صاحب المحل وهي تبتسم ، وبدأت تسرع الخطوات في اتجاه تعرفه . . . وبينما تسير مرت أمام إعدادية الأحلام للبنات ، توقفت قليلاً ، نظرت نحو المدرسة ، تابعت حركة الطالبات ، فابتسمت ، وهي تصغي لضحكاتهن ، وبلا وعي منها احتضنت الصابونة نحو صدرها ، وكمن تذكر شيئًا مزعجًا غابت ابتسامتها فجأة ، وعقدت حاجبيها ، وأحنت رأسها ، ثم مسحت دمعتها بطرف إصبعها ، وواصلت طريقها ، لمحتها سيدتان كبيرتان في السن وهما تخرجان من المدرسة ، قالت

إحداهن للأخرى : انظري إنها لطيفة .

– لاحول ولا قوة إلاّ بالله . .

تواصل النخلة المتحركة سيرها ، وتأبى جديلتاها الطويلتان إلاّ الرقص خارج العباءة ، حتى تقف ذات العينين الخضراوين وسط الطريق بين السيارات العابرة ، وتفتح عباءتها فجأة ، تؤشر بيدها اليمنى كمن يلقي خطبة ، لتصيح بأعلى صوتها :

Monster. go to the hell, go to the hell you and your sons(*)

ترفع الصابونة بيدها اليسرى ، وتضحك . . تضحك بغزارة تشبه المطر حين يفيض لا يتوقف ، تعاود سيرها ، مقطبة الحاجبين ، تتعكر ملامحها ، كأنها في غيبوبة ، تعود خطوط الدمع تسيل على وجهها ، تلف عباءتها حولها ، وتخفي الصابونة وكيس الحجارة تحتها ، وتواصل طريقها ، بنظرات حادة هذه المرة ، كمن صمم على أمر ، تبتسم ابتسامة صفراء ، وتسحب تنهيدة عميقة ، مر رجل ضخم الجثة ، سمين وله شارب كبير ، ارتجفت ، ورمت بطانيتها على التراب ، وفتحت كيسها بهمة عالية ، وبدأت ترميه بالحجر ، التفت الرجل نحوها ليصيح : ما هذا تمتلىء بغداد بالمجانين؟

ترد عليه بحجر آخر ، لكنه لا يبالي ، يسرع يقطع الشارع

(*) اذهب إلى الجحيم أيها الوحش ، اذهب إلى الجحيم أيها الوحش أنت وولداك . .

مبتعدًا عنها ، لتبصق عليه من البعيد ، وتنفض يديها . . . .

وأم صابر تبتعد عن مكانها أيضًا ، تسرع الخطوات كهاربة ، ثم تسحب نفسًا عميقًا ، ترخي عباءتها ، تحرر دموعها ، ولا تعرف بالتحديد على أي شيء تبكي ، كيف للحاج سعيد صاحب المطعم القريب ، أن يتكلم معها بتلك الطريقة المشينة؟! . .

– سلام عليكم ، ما بالك تبدين مهمومة؟

– وعليكم السلام ، فجأة اختفى وارد اليوم كله يا حاج لا أعرف كيف؟ ولا أستطيع اتهام أحد ، أنا لن أتمكن من شراء المزيد من الألعاب لأواصل عملي ، هذه المرة الثالثة التي أُسرق فيها هذا الشهر .

– لا حول ولا قوة إلاّ بالله ، أين ذهبت الضمائر؟ ابتسم لها ونظر من طرف عينه اليمنى ، نظرة ذات مغزى ، واصل حديثه : لكنك في كل الأحوال ما زلت صغيرة وجميلة . .

يعلو الوجوم وجهها . . تشد عباءتها عليها ، ويواصل الحاج سعيد : اسمعي عندي غرفة خاصة بالمطعم ، لا يدخلها مخلوق ، ما رأيك نعقد قراننا لليلة واحدة ، ومن ثم أمنحك مالاً وفيرًا؟

تنتفض . . ترتجف . . . ترتعش ، يختض كل جسدها ، تنسى مالها المسروق ، تبتعد عنه ، تقف بصلابة ، وتصرخ بصوت عالٍ في وجهه وهي تؤشر بكفها نحوه :

– ماذا ألا تستحي؟ ألا تخجل؟ انظر لشيب رأسك ، لك أولاد أطول منك ، استغفر الله . . استغفر الله . .

تتحرك بسرعة وتحكم لف عباءتها ، تتوجه نحو المتبقي من ألعابها ، تجمعه في الكيس الكبير المرمي إلى جانبها ، تعدل غطاء رأسها ، تغادر وتلعن حظها العاثر . . .

يصيح بها من بعيد :

– وماذا قلت لك يا امرأة؟ إنه عقد قران ، على سنة الله ورسوله ، وإلاّ لينهش فيك التعب ويسرقك كل يوم سارق ، حمقاء . . غبية . تتمسكين بالفقر . .

لن أعود لذلك المكان ، يجب عليّ العثور على مكان أبيع به ألعابي ، تسير وتحمل ألعابها معها وهمومًا كثيرة ، حتى تصل إلى حي التنك ، حيث بيتها ، وفي مدخله ستارة خفيفة ، تحتها قطعة ألمنيوم كبيرة غير ثابتة متحركة ، ويحيط الصفيح سواتر من التراب ، وتنتظر هناك لطيفة ، تجلس على التراب ، وتحمل في يدها الصابونة ، وتضع كيس الأحجار قربها ، تراها أم صابر ، فتتسع ابتسامتها ، تقترب ، تقف لها لطيفة : أين اختفيتِ يا لطيفة قلقت عليك؟ هل أنت بخير؟

تبتسم لطيفة ، وتميل برأسها نحو الكتف اليمنى .

يتعانقان ، تدخلان معًا إلى الداخل ، تجلس لطيفة أرضا ، تخطط على التراب ، والصابونة في حجرها ، تسحب أم صابر زجاجة فيها سائل أصفر اللون ، تقدمها لصاحبتها ، فتبتسم

وتهز رأسها سلبًا ، وتشير للأخرى لتشرب أولاً ، وتشرب بعدها لطيفة ، تجلس أم صابر قبالتها ، تلمح الكيس ممتلئًا بالحجارة ، ترمقها بنظرة تساؤل ، تتردد في السؤال لكنها تسأل : ما هذا الكيس يا لطيفة ، يبدو ممتلئًا بالحجر؟ ماذا ستفعلين به؟!

تبتسم لطيفة ولا ترد ، تواصل أم صابر حديثها : هل ترمين الحجر على كل رجل أصلع؟ هل هذا صحيح؟! .

تتعكر ملامح لطيفة ، يتقلص حاجباها ، تلم أطرافها نحو جسدها ، تلف بطانيتها حولها ، تفتح عينيها بذعر ، وترتجف . . تلاحظ أم صابر هذا ، فسرعان ما تعمد لتهدئتها : حسنًا حسنًا . . دعكِ من هذا الحديث ، لكنني أخاف أن يؤذوك ، والله أنا أحبك . .

Fuck them(*)

تحتضنها أم صابر وتبتسم : لا أفهم لغتك ، متى ستتكلمين العربية ؟

لا جواب . . .

وتحكي أم صابر ما حدث معها ، تصغي الأخرى باهتمام واضح ، تتفاعل معها بملامح وجهها ، وتسحب آهة عميقة ، تقلب شفتها السفلى ، تحني أم صابر رأسها ، تمسح لطيفة عليه بكف يدها ، وتهمس لها وهي تبتسم :

(*) شتيمة بذيئة باللغة الإنكليزية .

Don’t care dear. You are stronger(*)

وتقدم لها حجراً صغيرًا من الكيس ، تضحك أم صابر ضحكة طويلة : هذا لن ينفع يا لطيفة ، لن ينفع ، وتضرب كفًا بكف : كم أنت جميلة حين تتكلمين الأجنبية ، معك أنسى همومي ، آه لو أعرف حكايتك!!

تميل لطيفة برأسها ورقبتها نحو اليمين واليسار ، ثم تضحك ، تجيبها أم صابر بضحكة مماثلة ، ولحظة صمت تبحلق كل منهما في عين الأخرى ، تنطلق الضحكات من كلتيهما ، تغص أم صابر بالضحك ، وللضحكات عدوى ، بعضها لغة حوار ، وبعضها شفرات ، يعلو ويهبط صدراهما معًا .

(الراوية لا تدري ما الذي يحصل؟ ولا تفهم عمّ تضحك المرأتان ، المشهد أمامها ، تتساءل عن بطلتها التي أحبت حمارًا ماذا حدث لها؟) .

تتوقف نوبة الضحك فجأة ، فتندب أم صابر حظها العاثر ، تقلب الأخرى شفتيها ، تبدأ أم صابر النواح ، يعلو صوتها شيئًا فشيئًا ، تمسح بكفيها تراب الأرض ، وتغرف منه ، ثم تدلقه على رأسها ، تأخذ نعالها وتضرب به وجهها ، تراقبها لطيفة ، بنظرة حادة قاسية ، تضرب وجهها بكفيها ، ثم صدرها ففخذها ، تقف أم صابر ترمي بنعليها ، وتردد قصيدة لرادود

(*) لا تهتمي عزيزتي أنت أقوى .

حسيني ، تواجهها لطيفة ، تخلع كل منهما غطاء رأسها ، تبدآن اللطم ، بما يعرف لدى أهل الجنوب العراقي بالجولة ، حيث تدوران حول بعضهما ، تميلان برأسيهما ، تارة يمينًا ، ويسارًا تارة أخرى ، ينثران شعرهما ، ويواصلان الدوران في حلقة دائرية ، يقفان لحظات يقفزان فيها ، ويواصلان الدوران ، فضرب الصدر والوجه ، ويعودان للقفز ، وهكذا يدوران في دائرة ، ويعلو العويل والنواح ، تجهش لطيفة في البكاء ، تدخل عليهما أم مظلوم ، فتصيح : ما الذي حدث لكما . . . خير يا رب؟

ترد عليها أم صابر : لا جديد . . انضمي إلينا . .

ترمي أم مظلوم عباءتها ، وغطاء رأسها ، تقف وسطهما مع طفلتها ، وهي أقوى منهن ، وأصغر سنًا ، تنوح معهما بصوت أعلى ، فيتجدد نشاطهما ، ولم تكن أي من السيدتين تعرف نوايا لطيفة! . . . .

(١١)

في تلك اللحظة التي سمعت بها نهيق حماري عند الباب ، هممت لأتأكد ، لكن هاتفي النقال رنّ وإذا بصوتها المعهود ، كنت حائرة بينها وبين فتح الباب ، إنها توترني دائمًا في اللحظات الحرجة ، ولأن هاتفي النقال يضم برنامجًا لتسجيل الحديث ، تركته مفتوحًا ، فالوقت غير مناسب لسماع كلامها ، أكاد أتعثر بها :

أيتها العاشقة الفريدة . . . تشتت أغنامه في الوادي ، واختفت عصا الراعي ، اختطفته الشياطين ، علقته فوق الخطاف ، أذاقته الويل والعذاب ، يتدلى مزماره من رقبته ، تبعه الملك الصغير ، ترك أوراق مجلس الإعمار على الطاولة ، ذهب إلى الباحة الخلفية في قصر الرحاب ، تنتظر العروس بعيدًا موكب الزفاف ، وإذا بصاحب المزمار ينوح :

(النواح النواح أيتها المروج ، النواح .
ولتردِّد أُمّي الصراخ والعويل
لأنني عندما أموت لن تجد مَن يرعاها)(*)

(*) من القصائد السومرية .

واعـتلى الأرض الجـفـاف ، بابل بعـدك أرض خـراب ، يحتضر إله الخصب ، وتنزف أربع سيدات من الأشراف ، وتحتار أخرى أين تذهب وهي في شارع الأميرات؟ وعبد الإله تقاسم لحمه الأوباش ، الكاهن كالا يرسم الإيقاع ، ومواكب من كل صوب وحدب في الطريق ذاته ، يتواصل سيرك البكاء الدموي ، دموزي يموت ، العريس يموت ، وفيصل صريع ، ومن فوق السحاب تفتش خالته عن أحياء ، وترفع سيدة كبيرة السن مصحفًا ، لعله ينجي الملك الصغير ، تتوسل رحمة فالعرس بعد أيام ، تقرأ آية الكرسي ، تنفرط حبات مسبحتها ، يسقط المنديل الأبيض ، لتولد لعنة الأبد ، تنطلق من الرحاب تلف العراق بالسواد ، تقبل عشتار تؤدي واجب العزاء :

((أنت يا من ترقد أيها الراعي ، قم إرع شؤوني دموزي ، أيها الراقد قم إرعها)(*)

وليس من مجيب ، إلا نائحة بضفة أخرى تنوح على من ساد عشيرته أمردًا؟ ، ساد العراق أمردًا ، فبأي ذنب قُتل فيصل الصغير؟ ألم يستسلم ؟ تنوح الخالة لن أغفر لكم لن أغفر للعراق ، أين قبر أخي عبد الإله؟

يتوجه موكب الثكالى الخالدات نحو باب السيد قبيح

(*) من القصائد السومرية .

الوجه تاريخ ، تستقبلهن هناك سبايا شريفات أخريات ، أقبلن برفقة ولدهن العريس قاسم من درب الكرب والبلاء ، يتلاقى العريسان الشريفان ، لتتجدد بيوت العزاء من الرحم ذاته في العراق ، حيث لا عزاء! . .

تحركت باتجاه الباب ، مبتهجة بفرحة اللقاء ، ها هو حماري الوفي أقبل عليّ وسنحقق عملاً تاريخيا في الجانب التعليمي لأبناء العراق ، لهؤلاء الأيتام وهم يملؤون الطرقات ، فجميعهم لا يعرفون القراءة والكتابة ، سأزين حماري كما كان يفعل صاحبه المرحوم زكي ، سألبسه القلائد الجميلة المزينة بالخرز ، وأضع على صدره سبع عيون زرقاء ، وأزين رأسه بتاج من الورود الطبيعية ، سأعمل على تغييرها كل يوم ، ليجذب نظر الأطفال ، فإذا أردت تعليمهم ، لابد من خلب عقولهم أولا ، يجب على المعلم أن يكون طفلاً مثلهم ، ليفهموا لغته ، ومن ثم سأربط سبورتين كبيرتين على جانبيه ، وأزينهما بالورود وبعض الألعاب الصغيرة ، سأتجول به في نواحي بغداد الفقيرة والمناطق الشعبية ، وسأطلب من صديقتي ليلى مساعدتي بهذا المشروع الوطني ، هي ثرثارة نعم لكنها طيبة القلب جدًا ، والأهم أنها أم ، تعرف كيف تتعامل مع الصغار ، إنها حنون ، سبق أن حدثتني عن طفلة تسولت وبالمال اشترت دفتر رسم وألوانًا ، وجلست على التراب تلون ، وهي بحال يرثى له ، كانت ليلى متأثرة جدًا بتلك الصغيرة ، وهي تصف لي الحروق العنيفة على

جسدها ، أنا واثقة أنها سترحب بمشروعي هذا ، سأشرف أنا على السبورة التي سأضعها على الجانب الأيسر ، وتشرف هي على سبورة الجانب الأيمن ، وتشرح كلٌّ منّا لمجموعة من الصغار ، درسًا في الحساب ، والحروف العربية ، سنعتمد منهج دار دور ، كما في المناهج الابتدائية ، وشيئًا من الآيات القرآنية القصيرة ليحفظوها ، سنحاول ترتيب أماكن لهم يتوفر فيها الماء ليستحموا ، وسنمنح الصغار وقتًا للترفيه عنهم باللعب والضحك مع الحمار ، ونمنحهم بعض المكافآت الصغيرة تشجيعًا لكل من يتفوق ، بالتأكيد سيتبرع بها أهل الخير ، سنحاول تعليمهم بعض الأعمال البسيطة ليكسبوا بها شيئًا من الرزق ، سنعلمهم أن التسول ليس مهنة ، وعليهم العمل الحقيقي لكسب رزقهم ، تكفينا ساعتان في اليوم معهم ، لابد أن نساعدهم بأي شكل ، حتى لو اضطررنا إلى الاتصال بالمنظمات الدولية لدعم مشروعنا ، لابد أن نزرع في داخلهم الرغبة الحقيقية في مقاومة ظروفهم المعقدة ، فهم لن يجدوا من يساعدهم ، وعليهم الاعتماد على أنفسهم ، سنحكي لهم قصصًا كثيرة عن صغار استطاعوا التفوق وهم في ظروف مماثلة ، وربما سنوزع عليهم قصص المكتبة الخضراء الخاصة بالصغار ليتعلموا القيم والأخلاق ، لا أستطيع تحديد كل الخطوط في المشروع الآن ، المهم أن نبدأ ، ومن ثم تأتي النتائج الأولية التي ستحدد المسار التالي ، سنُكوّن أنا وليلى مدرسة أُنموذجية

متجولة في الأحياء ، سيكون هذا بعد انتهاء عملنا الرسمي ، ونستطيع تبادل الأدوار ، وربما نجد بعض المتطوعين يعملون معنا ، فيكون لكل متطوع يوم أو يومان للعمل بهذا المشروع ، إنه عمل متعب بالتأكيد ، ولليلى شؤونها العائلية الخاصة ، سنرى كيف نرتب الأمور لاحقًا ، ربما يتوسع المشروع وننتقل إلى مراحل أكبر ، ويفكر أصحاب الحمير بهكذا إنجازات ، فيكفوا عن إيذاء حميرهم ، ما أجمله من مشروع لو تحقق ، سيكون مشروعا شعبيًا يهز العالم ، عندما يتحدثون عن إرادة الشعب العراقي ، وتكفّ وكالات الأنباء العالمية عن التنافس في ما بينها عمن يحصل على أكبر رقم عراقي ، ليشرق الوجه الجميل للعراق برقم من يتعلمون في مدرسة أُنموذجية يصنعها حماري .!

تحركت لأفتح الباب ، وأفكاري تتجول معي ، يا لها من لحظة لقاء مؤثرة عميقة ، يا إلهي أين المفاتيح؟ أين وضعتها؟ تبًا لي ، ثلاثة أبواب حديدية ، ها هي تحت الكرسي ، فتحت الباب الأول ، والباب الثاني ، أخذت دموع الفرح وضع الاستعداد في عينيّ ، وها هو الباب الثالث ، انتهيت من فتح الأبواب ، أغمضت عينيّ في حالة من النشوة العاطفية ، وعندما فتحتهما بكيت لا من فرحة اللقاء إنما من الخيبة . . . . لماذا تفعل بي هذا يا حماري الوفي ، أولاً تعرف أنني أحببتك بصدق .!؟

ورقة

تدور أم مظلوم معهما في الدائرة ، وتشاركها صغيرتها كمهرة في الدوران ، يعلو العويل والبكاء ، كأنهن تحت تخدير ، تتواصل القفزات ، وشد الشعر ، ولطم الخدود ، تشتد الحركة ، تفقد لطيفة توازنها وتشد شعرها بقوة ، كمن يريد اقتلاعه من الجذور ، لتصرخ بصوت عالٍ :

Go to the hell(*)

وتضرب بكفيها رأسها وعينيها بقوة ، تصرخ وترسل الزفرات . .

تشعر أم صابر بها ، تمسكها ، تحتضنها بين ذراعيها ، تراقبهما أم مظلوم ودموعها تفيض من وجهها هي الأخرى ، وثلاث نسوة يبكين منكسات الرؤوس . . .

يقبل صندوق الأمس ، الصندوق الخشبي مغلفًا بالعلم العراقي ، تصيح أم صابر وهي تغمض عينيها : أرسلوه ومكان رأسه مخيطا رأس كلب . . الله أكبر على الظالم ، دفنّا جسدًا بلا رأس .

ترد أم مظلوم : وأبو عيالي دفنّاه رأسًا بلا جسد . .

تعود النسوة إلى النواح ، وفجأة يغمرهن صمت . . تنتبه أم صابر لحال لطيفة ، فترغمها على التوقف عن شد شعرها ،

(*) اذهب إلى الجحيم .

وتجلسها على الأرض ، وهي تجهش بالبكاء تقدم لها الماء ، وتمسح عيونها : حبيبتي كفي ، اهدئي . . لنا الأجر والثواب إن شاء الله . .

تسكت لطيفة ، تعود تخطط بأصابعها الخمسة على التراب ، وتكتب حروفًا بلغة بدت غريبة على من معها . . . تقول أم مظلوم :

– لا حول ولا قوة إلا بالله ، بحثت عنك في مكانك ولم أجدك ، حيث ذهبت أسأل عن العمل الذي حدثتك عنه؟ وتلتفت نحو لطيفة : لطيفة اهدئي . . . اهدئي . . . كلنا في الحال نفسه؟

– آه يا أم مظلوم ، لنا الله . . .

تبتسم لطيفة ، بكت قبل لحظات ، ثم ضحكت ، حتى استقرت بسمة مضيئة على وجهها ، اتسعت الابتسامة أكثر ولم تنطق ، تمد الصابونة التي في يدها إليهما ، تعود تسحبها باتجاه صدرها ، تشم رائحتها ، وتقبلها ، ثم تقف وتقفز ، والطفلة بغداد في البصرة ، تواصل العزف ، تتناول حلوى ، وصوتٌ تعالى يا بغداد أوقفي العزف ، حان وقت النوم ، وتصفق لطيفة . . .

– والله يا أم مظلوم رؤية هذه المسكينة تجعلني أنسى الهم ، وتلتفت نحو لطيفة : تعالي . . . هناك في الزاوية طشت به ماء ، أعتقد أنه يكفيكِ ، الحمد لله على ما ابتلى عبده . .

تلتمع عين لطيفة ، تنظر إليهما ، فجأة تتحرك بسرعة إلى الخارج . . .

– إلى أين يا لطيفة؟

– ستعود يا أم مظلوم لا تقلقي ، أعرفها تمامًا ، جاءت لتستحم عندي كعادتها . . . .

تعود لطيفة بعد دقائق ، تحمل حجرًا خشن الملمس في يدها ، أصغر قليلاً من كف يدها ، تسألها أم مظلوم : ما هذا؟ ماذا ستفعلين به يا لطيفة؟

– لا تجيب ، تضغط بقوة على الحجر في كف يدها اليمنى ، وعلى الصابونة بكفها اليسرى ، تقربهما نحو صدرها ، يلتمع بريق فكرة في عينيها . .

– يا أم مظلوم لعلها تريد حك كعب قدميها به . . .

تتوجه أم صابر نحو طشت الماء ، تعلق ستارة بالية على حافة علبة الصفيح في الجدار ، من الجهتين ، لتعزلها عن بقية المكان : هنا يا لطيفة تستطيعين أخذ راحتك في الاستحمام . . . تدخل لطيفة داخل الحيز الصغير المعزول عن بقية المكان بصفائح ألمنيوم . . .

وتجلس أم صابر تحكي لصاحبتها ما حدث معها :

ماذا سأفعل في كل هذا الهم الذي فوق رأسي يا أم مظلوم؟ لعل الولدين يعودان من العمل بوارد جيد اليوم ، لكن خنجراً لئيم وبخيل ، يجب عليّ أن أجد حلاً ، لأخلصهم من

شره ، بالأمس ضرب صابر قرة عيني ضربة ما زالت آثارها على ظهره ، أريد تعليمهم ، مثل هؤلاء الأطفال ، الذين نراهم يوميًا ، يحملون حقائبهم ، صدى بكائه ما يزال في أذني ، قال لي يا أمي أريد أن أصبح شرطيًا لأصيد السراق الذين يسرقونك ، لماذا يسرقونني يا أم مظلوم؟ لماذا يتكرر هذا معي؟ أستغفر الله . . إن بعض الظن إثم . . لعل المال ســـقط مني ، تضع يدها على رأسها ، الهم كبير يا أختي ، وهذا الحاج سعيد لن أطمئن له بعد اليوم ، عليّ إيجاد مكان آخر .

– يا أم صـابر . . . ألم أخط لك كـيـسـا من القـمـاش هل أضعتيه؟ كيف فقدتِ مالك؟

– نعم . . نعم . . ضاع ، أستغفر الله . .

– سـأصنع لك غـيـره ، هذه المرة علقـيـه بدبوس تحت ثيابك . . . وفعلاً يجب أن نستبدل مكان عملنا ، تسكت قليلاً وتواصل . . اسمعي سيعيدون تجربة طيران النساء مرة ثانية ، هكذا سمعت اليوم ، هل تتذكرين عندما ارتدينا تلك الألبسة ، لم ننجح في الطيران؟ لعل المشروع ينجح هذه المرة ، ونتخلص من كل هذا الهم والقهر ، ولا أعرف لماذا يريدون منا أن نطير؟ هذا غير منطقي . .

– وأنا أيضًا أحتار بقضية هذا المشروع لا أستوعبه ، أقول لنفسي إنهم الأدرى ، بعضهم يقول عدم طاعة هذه التعليمات تجلب غـضب الله ، إلاّ غـضب الله يا عـزيزتي . . اسـمـعي

سأمنحك بعض المال كسلفة ، كنت قد جمعته لأشتري لمظلوم ثياب العيد ، من الأماكن التي تبيع الملابس المستعملة ، وإن كان المبلغ ضئيلاً ، أضيفي عليه ما سيجلبه لك صابر من خنجر ، على الأقل سيزيد هذا عدد ألعابك ، ويزداد رأس مالك ، ولك أن تسددي بالأقساط .

– لا . . لا يا أم مظلوم لن أقبل . . . ثياب العيد أهم لولدك . .

– يا عزيزتي لا أنسى فضلك عليّ ، نحن لا شأن لنا بالأعياد ، لقد فكرت بالعمل مع نساء المسطر خارج بغداد ، فذاك يمنحني من المال أكثر . . حصلت اليوم على رقم هاتف السيدة المسؤولة عن إدارة العمل وتوزيع النسوة ، سأتصل بها لأتفاهم معها ، أحلم فقط بحصول الصغيرين على وثائق رسمية لذا سأفعل كل شيء .

– تُقَبل أم صابر رأس صاحبتها : لا أدري ماذا أقول لك فمشكلتك صعبة! لكن عليك التفكير جيدًا في موضوع عاملات المسطر ، إنه عمل شاق ، وتلتفت باتجاه مكان استحمام لطيفة . .

ماذا يا لطيفة ألم تنتهي بعد؟ . . .

لا جواب . .

– يا أم مظلوم لطيفة غريبة ، هل تذكرين عندما قامت بابتلاع جزء من الصابونة؟ أخاف عليها ، مع أنني تعرفت

عليها مصادفة قبل عامين ، عندما رأيتها ترمي البعض بالحجر ، وتجمع المارة حولها حتى تدخلت ، وفككت النزاع ، وجلبتها عندي لتهدئتها ، كانت جائعة وفي حال يرثى له ، وتحتضن كيس أحجارها ، وتسحب بطانيتها القذرة ، تركتها تستحم ، وأطعمتها مما توفر ، وغسلت لها بطانيتها ، فصارت تأتي دائمًا ، لا أعرف شيئًا عنها!

تضحك أم مظلوم : نعم أتذكر فعلتها ، الحمد لله مرّ الأمر بسلام ، ماذا نستطيع العمل لها ونحن هذا حالنا؟

– أفكر بتعليمها العمل معي . .لا يمكن أن نتركها تدور في الطرقات ، وتضرب الناس بالحجر ، ما رأيك لو بقيتْ معنا هنا؟ . .

– إنه بيتك يا أم صابر وهي مسكينة ، والحمد لله المكان يكفي .

– حسنًا لننم نحن في الداخل مع الصغيرين ، وينام صابر ومظلوم في الخارج عند تلك السواتر . . .

– لا تحملي الهم كثيرًا ، سيرزقك الله على حسن نيتك ، في كل الأحوال يجب أن نجعلها تكف عن رمي الحجارة وإلاّ حدثت مشاكل لنا . .

فجأة تقبل عليهما لطيفة . . . فيعتريهما الذهول! . . .

(١٢)

استيقظت فجرًا ، كان نومي قلقًا ، وأعددت نفسي للخروج مبكرة للبحث عن حماري ، وما إن فتحت الباب حتى رأيتها أمامي :

أيتها العاشقة الفريدة يُخدرُ النواحُ الوجعَ العراقي ، وكلما تعمقَ الوجع تجددت وسائل النواح ، بعض الدنس قاتل بطيء ، يتسلل في العظام ، لا الجسد يستسلم ولا القاتل تصيبه التخمة ، انتشر السم ، وروائح تعذيبه عفنة . تتعرى إحداهن ، تصب الماء ، تضع الصابونة فوق الحجر ، تبدأ الرحلة ، تدعك . . وتدعك ، يبدأ الحجر بالوجه ، تبعد أصابعها كل رغوة ، يدور الحجر حول محيط العينين ، فالوجنتين ، فالشفتين ، تسقط قشور سمكة ، سلختها السكين ، وليمة مجانية ، في بناية قرب نهر دجلة ، في تاريخ قديم ، يدور الحجر بعنف مجنون ، تتقدم الحرقة ترافقها الحكة ، بسمة انتصار ، تشد على الحجر ، أين تفر الفريسة؟ القضبان متينة ، تنغرس الأسنان في الجلد ، يواصل الحجر رحلته ، حتى يعلن القاضي الإدانة ، تنخلع قشرة الجلد ،

تنحني لتبحلق ، فارس يتفحص الخيام ، وتد الخيمة مكسور ، تشتعل نار في البعيد ، تقدح عيناها ، تستمتع بالحجر وهو يمزق ، كان الدرس على السبورة ، انقلوا يا صغار ، ينفد الطباشير الملون ، اجلبوا من الصف المجاور ، تذوب الصابونة ، تصغر شيئًا فشيئًا ، يشق الحجر دربه ، تتناول أطرافها بالتسلسل ، تغادر قطرات دم برفقة ديدان وحيات ، و تقرض فئران الجبن ، ينفذ الحجر الحكم ، تضمحل الصابونة ، ينقل الطلاب الدرس ، غادروا المعهد العالي للغات ، هاملت على كف الحبيب ، عاشقة شكسبير ، وعاشق ديكنز ، سننجب أربعة أطفال ، ولد واحد والباقي بنات ، أحلام بلون قوس قزح ، حلقة ذهبية في البنصر الأيسر ، احترق لحم السمكة بالحامض ، ذابت الحلقة ، أحكمت وثاقها السلاسل ، يوسف في البئر ، والفراشة بلا أجنحة ، نهشت الوحوش بعضها فوق فراشه ، الصرخة ممنوعة ، تكبر المساحة المسلوخة ، وحبل محفور حول العنق ، يؤلمها الوسم ، هبط الغرباء من السماء ، فتحوا غياهب القضبان ، كسروا الأبواب الموصدة ، تحركت الأشباح ، تتجول في بغداد ، بعضها عار بعضها مستور ، وهي ترسم هندسة جديدة للجسد ، أخيرًا انتهت ، ونزعت جلدها كما تفعل الحية!! . .

شعرت بالدوار من حديثها كأنني أسبح في البحر ، لم أعرف التمييز بين الحلم والواقع .! . . .

. . . . ولم ترد اللجنة المختصة بطيران النساء على رسالتي ، رغم مرور زمن طويل ، ربما لا وقت لديهم للرد ، أو لعلهم يجرون اتصالات خاصة لشراء مركبة فضائية لي ، أو لعلهم مشغولون بكثرة التجارب والدراسات المستفيضة لواقع طيران النساء ، فلا وقت لديهم يخصصونه لمواطنة تحب حمارًا ، وربما يبحثون عن القدرات والكفاءات لوضع خطة خاصة للبحث عن حماري ، ولعلهم اكتفوا بنظرياتهم الاستراتيجية لخطة الطيران فلم يهتموا برسالتي! .

(بشراكم يا نساء العراق ، بعد البحوث العميقة ، والاسترتيجية العلمية ، ودراسة الأثر الاجتماعي والاقتصادي لما سيحدثه المشروع الوطني لفكرة الطيران باتجاه القمر ، توصل أخيرًا أعضاء اللجنة لاستعمال النظارات السُود ذات المراوح ، تُسمى علميا بالنظارات المروحية ، حيث تضم كل نظارة طيران مروحة صغيرة على كل جانب ، وهذا استنادًا إلى مبدأ برنولي في الطيران ، حيث قوة الرفع تساوي مساحة الجناحين في فرق الضغط ، لذا سنعمل على توفير المزيد من الضغط عليكن من الاتجاهات كافة ، فلا تقلقن ، أنتن في أمان ، وهذه المراوح في النظارات أظهرت نجاحها بالتجارب المبدئية في زيادة مساحة الجناحين ، وسيشكل كل هذا قوة جبارة تساعد المرأة على تجاوز صعوباتها في الطيران مهما ارتفع وزنها ، كما تمت صناعة أحذية مجنحة أخرى من مصادر جديدة ، لزيادة مساحة

الأجنحة وذلك بإشراف المختصين ، لذا يجب على النساء كافة العودة لوكيل الحصة التموينية لاستلام أدواتهن الجديدة ، على أن يقدمن أوراقهن الثبوتية كافة ، مع صورة شخصية ، خلال شهر من هذا الإعلان ، وسيكون البرنامج بالتسلسل والطريقة والمكان نفسها للتجربة السابقة . . وللحفاظ على حقكن في تسجيل أولويتكن بهذا المنجز التاريخي ، الذي سيكون له وقع عظيم محلي ودولي ، ويسرنا أن نعلن أن أسماء السيدات وصورهن سوف تُطبع في كتاب خاص ، على نفقة الميزانية المرصودة ، فقد بذلت اللجنة أقصى جهودها العلمية والمادية ، لدعمكن ، وعلى المخالفات للتعليمات تحمل المساءلة القانونية . . عاشت المرأة العراقية حرة أبية على طريق المجد والكرامة) . .

نثرت طائرات الهيلوكوبتر ذلك الإعلان في أوراق ، كمن ينثر الزهور ، في أنحاء العراق كافة ، ووصلت الفكرة إلى المحافظات والقرى ، وضج الإعلام بشرح مزايا هذه التجربة الفريدة من نوعها ، وعقدت المؤتمرات والندوات لتحفيز النساء للمشاركة بقوة أكبر من المرة السابقة ، أصدر بعضهم بيانات تقول إن المرأة التي لا تشارك في المشروع ستكون حطبًا لنار جهنم ، ولا يحل لزوجها مضاجعتها ، وإن كانت فتاة لن يحل الزواج منها ، وهب الرجال يقنعون زوجاتهم وبناتهم اللواتي يشككن بفائدة المشروع ، خشية أن تكون علاقاتهم الزوجية

محرمة ، وخوفًا من شبح عنوسة بناتهم ، أو غضب الله تعالى لعدم طاعة أولي الأمر ، ولم تعد الأخبار تذيع شيئًا عن اللجان التحقيقية أو الانفجارات ، فالإعلام كرس نفسه للحديث عن أهمية المشروع لكونه النقطة الفاصلة في تاريخ المرأة العراقية . .

وفي إحدى جولاتي للبحث عن حماري رأيت تجمعا للنساء قرب ساحة الفردوس ، وسط بغداد ، يحملن لافتات مكتوباً عليها :

- كلا لمشروع الطيران المجنح . .
- نرفض الطيران رغمًا عنّا .
- نريد مبيدًا ضد الحشرات لا الطيران نحو القمر .
- نريد إخراس الغربان الناعقة ليل نهار إنها تخيف صغارنا . .

وطالبت إحداهن بالطيران نحو كوكب الزهرة لا القمر . .

أخذتني الحماسة لأدخل بينهن ، ولم تكن معي أية لافتة حينها ، لكنني صرت أهتف : أريد مركبة فضائية لأطير بطريقتي الخاصة ، كنت متحمسة جدًا ، ولم أستطع تبين وجوه المتظاهرات لشدة التزاحم ، ولم أشعر إلاّ وعصي تقبل علينا ، تحملها نساء أخريات في الساحة نفسها ، لم أستطع تبين وجوههن ، فلا تكاد تظهر لهن وجوه أصلاً ، ومن الصعب تمييز الوجه من القفا ، خامرني شك في أنهن متنكرات ، أو ربما هؤلاء رجال يمثلون دور النساء ، لكن الأصوات كانت نسوية ،

وبدأت معارك نسائية خاصة ، تطايرت فيها الأحذية ، وشد الشعر ، وتعالت الشتائم ، واتهمت صاحبات العصي النساء المتظاهرات بالتخلف وعرقلة مشروع الطيران الذي سيرفع من قدر المرأة العراقية ، لم أعرف كيف أتملص من بين الجموع المتناحرة ، والمعركة النسوية حامية الوطيس ، حتى وجدتني أجلس حافية على الرصيف منهكة القوى ، فقد أضعت حذائي وسط تلك المعركة ، ولو ظهر حماري ونهق نهقته العظيمة لهربت النسوة كافة ، وكفوا جميعًا عن هذا اللغط المخجل ، لكنني لاحظت وجود جمع من الرجال كانوا في زاوية الشارع يتفرجون ويضحكون على المعرًكة النسوية .!

تنازلت من يومها عن مطالبتي بمركبة فضائية ، يجب أن أخفض من سقف مطالبي ، يجب عليّ العثور على حماري أولاً ، والالتفات لغضب رئيس قسمي الذي انضم إلى الباحثين لإنجاح مشروع الطيران ، حيث تم اختياره ضمن أفضل المختصين لإنجاح المشروع ، هدأت ؛ لأنه بالتأكيد سينشغل وسينسى قضيتي ، ولن يجد الوقت لتنفيذ تهديده ، حاولت الانتظام في العمل ، وحولت بحثي عن حماري لما بعد انتهاء الدوام الرسمي ، مرت أسابيع ولم يحدث شيء ، فتأكدت من أن وعيده مجرد سحابة صيف عابرة ، وصدقت ما قالته ليلى أنه كل ما هدد به هو لغرض الدعاية الانتخابية ، ؛ لأنه بالفعل رشح نفسه للانتخابات القادمة ، ثم تفاجأت عندما ظهر عكس ذلك .

ورقة

تفتح المرأتان فميهما ، وتضعان أصابعهما على الشفاه ، تبحلقان في لطيفة ، ترفع أم صابر يدها على رأسها ، تهمس : يا إلهي!

تضرب أم مظلوم على صدرها ، وتقول بصوت منخفض : بسم الله الرحمن الرحيم . . ما هذا؟ ما الذي فعلتِه بنفسك يا لطيفة؟!

تنظر لطيفة إليهما ، كصقر اقتص من الفريسة ، ترتعش بصمت ، تسحب نفسًا طويلاً ، تضم شفتيها بشدة ، تعقد حاجبيها ، وهي ترفع أكمام ثوبها الأسود ، ثم تئن وتتنهد ، كمن أنجز مهمة صعبة .! . . .

تسحبها أم صابر من يدها : تعالي يا مسكينة اجلسي هنا . .

تجلس على التراب ، تبحلق في فراغ ، تكشف عن ساقيها ، ثم تضحك دون انقطاع ، وكلا السيدتين تنظران إلى بعضهما في استغراب! . وهما تريان كل تلك الخدوش والجروح ، تسيل قطرات دم من جسدها ، تفزع أم صابر مما تراه فتضرب على صدرها :

- ما هذا يالطيفة؟!

تتوقف لطيفة عن الضحك و تبحلق في السيدتين ، وبالتدريج تلين نظرتها ، تحني رأسها ، وتميل تحتضن أم صابر

الجالسة قربها ، تقبلها :

Don’t worry am fine. (*)

-آه يا لطيفة ، وتضرب على رأسها ثم تصرخ بوجهها : تكلمي عربي سأُجَن منكِ! وتبكي أم صابر . .

تقاطعها أم مظلوم : لا حول ولا قوة إلاّ بالله ، كيف تؤذين نفسك هكذا يا لطيفة؟ هل تريدين قتل نفسك؟؟

تهز لطيفة رأسها سلبًا . . (**) No, I cleaned myself!

تأتي أم صابر بخرق بالية ، موضوعة في كارتونة صغيرة ، وتمسح بها قطرات الدم التي تسيل ، ترى الجروح والقشور ، تهز رأسها وتقول بهدوء :

– ارحمي نفسك . . تصمت وتواصل . . لا ينفع هذا . . .

تلتفت نحو صاحبتها ساعدينا يا أختي بما عندك من علاج ؟

– هذه المرأة يتلبسها جني يعشقها ، يعبث بعقلها وجسدها يا أم صابر ، ويجب طرده ، ليس عندي كثير من الأدوات ، لكن لأنظر ماذا يجب عمله؟

تنبش أم مظلوم في صندوق أغراضها الخاص ، وتخرج منه بعض البخور والأعشاب ، وحجرًا صغيرًا بنيا وحرملاً وفلفلاً أسود . . تكلمها أم صابر : والله يا أختي إنها كدجاجة

(*) لا تقلقي أنا بخير

(**) لا لقد نظفت نفسي

مسلوخة . . .لا يمكن أن أتركها على حالها هذا . . أخاف أن تمرض . .

– لا عليك سأعالجها . . .

تشعل أم مظلوم البخور ، تدور به حول لطيفة وتردد بضع كلمات غريبة (بخ . . بخ . . يا الله . . يا حافظ . . . بخ هيا مت اخرج . . بخ . . بخ) . . . تقرأ أم صابر المعوذتين وسورة الفاتحة ، وما إن ينتهي البخور حتى تتوجه لغلي الأعشاب ، لتبخير لطيفة ثانية ، وتدور بالإناء فوق رأسها ، تشهق لطيفة من الرائحة ، تسعل وهي تحاول طرد الدخان بيديها ، تغمض عينيها ، تعود أم مظلوم تمدد جسد لطيفة على الأرض ، وتمسح جسدها بخرقة بالية مغموسة بماء الأعشاب الساخن ، تنكشف لها القروح ، تعض لطيفة على شفتيها ، ولا تنطق ، تضع إصبعها على أنفها ، ثم تقطع أم مظلوم بَصلة إلى نصفين ، وتبدأ بدعك جسدها بها ، وتحاول أم صابر دفع الهواء بكارتونة صغيرة :

– أدفع لك الهواء حتى تبرد جراحك يا لطيفة ؛ لأنك ستشعرين بالحرقة ، تسكت قليلاً وتواصل : أعرف أنك تحبين العطور ، ولا تتقبلين رائحة البصل ، لكنه سيعقم جروحك . . .

تحرك لطيفة رأسها بالإيجاب ، طفلة مطيعة ، تغفو الطفلة بغداد في البصرة ، في فراش وثير ، ألن نعود إلى لندن يا أمي؟ كلا حبيبتي لقد تحرر الوطن ، نامي ، تغطيها أمها ، ولطيفة

تعضّ على شفتيها ، تحاول إغماض عينيها كمن يواصل الحلم ولا تنام . . . فتدخل البناية القريبة من بيتها ، تحمل معها أوراقها وكتبها ، ترش قليلاً من العطر قبل الدرس ، هيا يا بناتي كرروا خلفي ، تبتسم لها الفتيات ، تمنحها إحداهن وردة حمراء : كم أحبك سيدتي . .

– يا أم صابر لعل الجني يخرج منها ، اطمئني ستهدأ جروحها ، سيتوقف الدم ، أفكر بكتابة تعويذات لنا لإنجاح المشروع الذي يتحدثون عنه ، يجب أن ننفذ تعليماتهم ونذهب لمحاولة الطيران الثانية ، هذا واجب ، ويقولون إن المخالفة تعادل ارتكاب معصية كبرى معاذ الله . .

– العياذ بالله من غضب الله ، نعم سمعت عدم المشاركة تعد إثمًا يوازي الزنا . . . . . أستغفر الله . . تصمت قليلاً ثم تواصل . . . اسمعي يا أم مظلوم أعرف أنك تجمعين هذه الأشياء للإعداد لمشروعك في صناعة التعويذات لذا سأدفع لك ثمنها لاحقًا . .

– يا أم صابر كيف تعتقدين أنني آخذ منك ثمن العلاج؟ أنا مثلك أحب لطيفة ، ثم التفتت نحو لطيفة : سأصنع لك تعويذة خاصة يا لطيفة ، أنا واثقة من أن الجن الأزرق يعشقك ، سأقيم لك لاحقًا جلسة خاصة كي لا يعود لك ، وأطرد عشيرته كافة بعيدًا عنكِ .

تفتح لطيفة عينيها ، تقلب شفتيها ، ويسيل خط رفيع على

خديها ، . . تمسح أم صابر رأسها وتقبلها : يا لطيفة تعقلي ولا تعودي لفعل هذا بنفسك ، ونذر عليّ لو تكلمتِ العربية سأشتري لك صابونة جديدة ، تحملي الرائحة أرجوك ، لا تزيدي المواجع ، عندي ما يكفي من الهم . . . .

تخرج لطيفة من تلك البناية ، لتوجه إليهما نظرة امتنان منكسرة ، ثم تميل نحو رأس أم صابر لتقبله ، ورأس أم مظلوم أيضًا ، كطفلة مشاغبة تطلب الرضا :

– والآن نامي . . . تغطيها أم صابر بعباءتها ، فتسحب لطيفة بطانيتها فوقها .

غفت عاشقة العطور ، تفوح برائحة البصل . . وتركب الطفلة بغداد في البصرة قاربًا مع ذويها في شط العرب ، تضرب الأمواج القارب ، والطفلة منبهرة برائحة السمك والصيادين ، أمي لنعد إلى الفندق ، أريد مواصلة العزف على البيانو ، لقد تعلمت أغنية منصورة يا بغداد . . . . .

– ليتنا لم نبعْ تلك البطانيات التي أهدوها لنا أيام الدعاية الانتخابية ، كنا استفدنا منها كبساط نجلس عليه ، إنها تشبه بطانية لطيفة هذه التي تحملها معها دائمًا . .

– . . لكن هل نسيت يا أم صابر؟ بعناها لنساعد جارتنا أم تحسين في علاج ابنها رحمه الله . .

– نعم . . . تذكرت أم تحسين ، مسكينة ، كانت وحدها بعد موت زوجها ، وأصيب ولدها بانفجار ما يسمونه لغمًا ،

صرنا نسمع بأعاجيب؟ يبدو أنني بدأت أكبر يا أم صابر . . صرت أنسى كثيرًا . .

تبتسم لتمازحها : ياعزيزتي لو لم تكوني جميلة ما طمع فيك الرجل . .

– الرجال لا يهمهم جميلة ، كبيرة ، صغيرة ، المهم امرأة . . . ليسامحه الله . . . حسبي الله ونعم الوكيل . تضرب على فخذها ، توجه عينيها إلى سقف بيتها حيث قطعة الألمنيوم الصفيح :

– يجب أن ندبر شيئًا لنغطي السقف ، الشتاء على الأبواب ، ولا أتمنى أن يتكرر ما حدث العام الماضي ، حين أغرقنا المطر ونحن نائمون ، ومرض أولادنا ، كاد ولدك أن يموت لولا رحمة الله وعلاجك . .

– نعم في ذهني ذلك الأمر ، أفكر بسحب إحدى لوحات الدعاية الانتخابية تلك فهي كبيرة جدًا وستغطي السقف تمامًا بل ستفوقه مساحة ، وبهذا تكون لنا ساحة أمام البيت بلا مطر! . .

– أحسنتِ . . إنها فكرة ممتازة والله . . الحمد لله على توفر هكذا لوحات . .

– حسنًا سأخرج لإعداد شيء نأكله . . . .

تخرج أم مظلوم لتعود وهي تحمل سطل ماء تعقم في الشمس ، يقبل صابر من بعيد فرحًا : أمي . . . أمي . . .

أمي . . . لقد منحني خنجر المزيد من المال . .

تقف أم صابر عند المدخل ، وتشير بسبابتها نحو شفتيها : اخفض صوتك يا ولدي ، لطيفة مريضة ونائمة ، تهمس لنفسها حمدًا لك يا رب حمدًا لك يا كريم .

– قلت لك يا صديقتي إن الله لا يتخلى عنك ، وتتذكر أم مظلوم مشكلة عقد زواجها وهي تجمع الحطب فيتجهم وجهها! . . . كذلك فاضل يتجهم وجهه وهو يستلم رسالة تهديد عثر عليها عند باب المحل صباحا!

(١٣)

الحمد لله منذ أن جئت لمنطقتكم شعرت بالراحة ، يا سيدتي لقد تنقلت في أربع مناطق في بغداد ، كلما دخلت منطقة خفت على صغاري من اليتم فأتركها ، واشتريت عدة هويات ، كل منها باسم يتلاءم مع أي منطقة أذهب إليها ؛ لأنني أشتري الخضار وأبيعها ، ويفرض هذا عليّ التنقل في مناطق عديدة ، انظري هذه ثلاث هويات ، وضعت على كل واحدة منها لونًا لكي أميز بينهم ، ولم يحدث إلى الآن أن أخطأت في ما بينهم ، لست أريد سوى أن أعيش لأعيل صغاري المساكين ، لكنني لا أخفي عنكِ أحب كرة القدم كثيرًا ، وأهتم بحماري الجميل ، إنه يستحق الحب ، يقدم خدماته بتواضع ، ويخلص لي ، لن تصدقي ما حدث بالأمس ، لقد تركته بالأمس قرب الصغار وذهبت لأجلب دواءهم من الصيدلية ، كانت أمهم مشغولة بالتنظيف ، فنحن نقيم في تلك المدرسة كحراس في الليل وزوجي تنظف فيها الصفوف كما تعرفين ، والصغار لا يستطيعون السير فهم متخلفون عقليًا ، تركته قربهم بعد أن منحت كلاً منهم تفاحة

يقرضها ويتسلى بها حتى أعود ، وعندما عدت رأيته من البعيد وهو يثير التراب بحوافره نحو كلب ، أخبرتني زوجي أنها سمعت صراخ الصغار ، وعندما أقبلت عليهم فهمت أن الكلب كان يدور حولهم وينبح ، حتى تحرك الحمار نحوه وبدأ يرفسه بساقه الخلفية ، ضحكت حينها كثيرًا عندما هرب الكلب ، وصفق الصغار بلا وعي ، وبرك أمامهم كأنه حارس ، أحبه ؛ لأنه يحب صغاري ويرعاهم ، ومع هذا فهو أحيانًا يبدو ذا مزاج صعب وعنيد ، فمرة وأنا أزور صديقًا لي قرب المقبرة الملكية في بغداد هرول بسرعة ثم اختفى ، أنتِ تعرفين أن تلك المنطقة تحولت إلى مرآب سيارات ، فلم أستطع العثور عليه بسهولة بين تلك السيارات المتكظة والمركونة ، حتى عثرت عليه ينظر إلى سيدة تقف عند مدخل المقبرة وتبكي ، وحين أقبلتُ عليه ، رفض أن يواصل سيره ، ظل يبحلق في السيدة وشعرت بالإحراج حينها ، وعندما غابت السيدة بدا لي غائب الفكر ، وأصر على عناده ولم يتحرك فضربته على ظهره ، فنهق بطريقة غريبة كمن يسحب أنينًا ، وحزنت ؛ لأنني ضربته ، وعندما أخبرته بتغير خط سيري تحرك ، بطريقة غريبة دون أن يمنح ظهره للمقبرة ، لعلها حالة من الشرود العقلي التي تنتاب الحمير أحيانًا ، لكنها كانت المرة الوحيدة التي خالفني فيها ، وعاقبته لاحقًا بأن حرمته من وجبة الخس الشهية التي يحبها ، وسحبت الكوفية الملونة منه ، فصار يدور حولي وينهق ، فهمت

أنه يعتذر لي ، فأعدت له الكوفية وقدمت له الخس فلعق كف يدي وتصالحنا .!

دعكِ من قصتي دكتورة ، أستحلفك بالله لو احتجتِ لأي شيء أخبريني ، فالناس للناس ، لقد سمعت بهجرة أخيكِ . . . . . .

رحمك الله يا زكي ، ها أنت اليوم غائب ، وصغارك لا أعرف مصيرهم ، وزوجك في السجن ، وحمارك ضائع ، لا شيء يبقى على حاله ، حتى أنا لم أعد تلك الهادئة ، أشعر بأنني أخرى ، صرت متوترة ، وأجادل في كل شيء ، تارة أستخدم منطق فهيمة في الجدل ، وتارة أستخدم منطقي الخاص ، لم أعد أميز أي المنطقين يصلح للاستعمال ، وأيهما منتهي الصلاحية؟ ربما لهذا يسألونني دائمًا من أين أنتِ كلما تحدثت!

كيف لو أفصحت عن حقيقة أفكاري وقصة حبي للحمار ، لن يتقبلني أحد ، لأنهم تعلموا أن تبكي المرأة عشق رجل أهانها وتبقى تهيم به حبًا ، لكنهم سيجدون صوتًا شذّ عن إيقاع الشكل والمضمون ، سيكون نشازًا بالتأكيد .

اضطربت كثيرًا في الآونة الأخيرة ، كمن فقد توازنه ، لدرجة أنني أضعتُ هويتي الحقيقية ، بحثت عنها كثيرًا في حقيبتي اليدوية ، وغرفتي الخاصة ، لم أجدها ، لعلها سقطت مني في إحدى الطرقات وأنا أبحث عن حماري ، ربما سقطت

عندما هتفتُ مع النسوة المتظاهرات ، نعم لدي هوية أخرى لكنها ليست هويتي ، ما هذه الازدواجية التي أعيش بها هنا؟! .

أحسد حماري الضال فهو لا يحتاج لتنوع في الهويات ، إنه يحتفظ بتصنيفه الحقيقي بين الكائنات بلا تزوير ، نعم هو مختلف عن بقية الحمير ؛ لأنه نادر ، المرحوم زكي أحسن معاملته وتهذيبه ، إلهي ماذا لو سرقه أحد ، وبدأ يهينه ويكيل له الضرب أو يرهقه بالعمل؟ لا أنا واثقة أنه لن يتحمل ، ولو حاول أحدهم فرض أمر عليه ، سوف يفر منه ، لأنه يعتز بكرامته ، ومن تعود على نهج فيه كرامة سار عليه!

تغلفني الخيبة ، حتى تذكرت ذلك الطالب الذي جاء مع رفاقه لزيارة قسم علوم الحياة في الجامعة قبل عام ، وطلب مني رئيس القسم مرافقة طلاب الابتدائية ، لتعريفهم بما نقوم بتدريسه وتقريب مادة العلوم إلى نفوسهم ، حدثتهم كثيرًا عن تنوع الكائنات الحية ، ومزايا الكائن الحي ، وطبيعة المادة الوراثية ودورها في فيسيولوجيا الجسم ، وعرضت لهم نماذج لفراشات نادرة محنطة ، وعندما أطلقت لهم حرية الأسئلة ، وقلت لهم حدثوني عن أحلامكم في الدراسة ، اسألوا ما تشاؤون بلا تردد ، فسألني أحدهم :

– وهل تدرسون في القسم علم الأموات أيضًا؟!

وبسرعة سأل زميله من دون استئذان : هل صحيح أن كثرة البكاء تسبب العمى؟!

صمت الطلبة . . ولمحت المدرسة المرافقة لهم تحني رأسها . .

انتابني الوجوم حينها ، راقبت وجه السائل الأول الصغير ، كان جميلاً يشع نشاطًا ، وحيوية ، له عينان عسليتان ، وهندامه مرتب ، وابتسامة ساخرة على شفتيه ، بدت نظراته متهكمةً ، السائل الثاني يماثله في الهندام وينظر إلى وجهي بلهفة كمن يبحث عن جواب لسؤاله بسرعة ، لم أعرف الإجابة ، لم أعرف أيها السادة . . كل ما فعلته أنني حدثتهم عن حمار جميل يساعد صاحبه ، ويضع كوفيةً ملونةً ، ويحب تناول الخس كثيرا ، ويحب الصغار ويلعب معهم ، كان زكي وقتها ما يزال بلا رقم ، حتى ضجوا جميعًا بالضحك ، بمن فيهم السائلان ، اللذان لم يتوقفا عن الضحك ، بدوا لي جميعهم عطاشى للضحك ، يريدون الضحك لأي سبب ، فضحكت معهم ، وأنا أصف لهم حمار زكي وجماله وأناقته ، وأعترف إنني كذبت عليهم حين قلت إن حمار زكي يكسر البندق للصغار ، كذبت من باب حسن النية ليواصلوا الضحك فقط ، حتى تحولت الأسئلة نحو الحمار وتصنيفه البيولوجي بين الكائنات ، ورغب أحدهم بزيارته أيضًا! .

كم هو منعش هواء الفجر في بغداد ، ما أجمل تلك النخلة في حديقتي ، زرعها أبي وأنا صغيرة ، نَمت وطالت بسرعة ، كان والدي يهتم بها ، ويقول لي يا صغيرتي لو فكرت يومًا بزارعة ما لا بد أن تهتمي في كل الأرض المحيطة بزرعك ، ما

زالت أفكاري مضطربة ، أغمضت عينيّ ، لعلّي أعود للحلم ، فظهر لي وجهها من النافذة خلف النخلة في الحديقة ، وهي ترسل نظرات حنان غريب ، اقتربت مني :

أيتها العاشقة الفريدة بغداد أيضًا نزعت جلدها عدة مرات ، تهيأت الجيوش لمعارك الآلهة في القصر ، وتَقَطَّع الجسرُ المعلق ، ليتقدم التتار الجدد على عكازته العرجاء ، ويبكي الصغار رعبًا ، فيتوعد الخليفة المستعصم بغطرسة الذكور(إن كان الرجال عدمت عندكم قولوا فنبعث لكم رجاله) . وبعد حين ملكة المسلمين المستعصمية في القاهرة تواجه جنكيز خان ، وما أفلح قوم بغداد حين ولوا أمرهم للذكور ، لم تسقط بغداد ، بل سقط المستعصم في جوف البقر ، نهبه هولاكو وضربه حتى الموت ، منابر القاهرة تصدح في الدعاء :

(احفظ اللهم الجهة الصالحة ملكة المسلمين ، نعمة الدنيا والدين ، أم الخليل المستعصمية ، صاحبة السلطان الملك الصالح) يتحرك ثوب كله لؤلؤ ، لتثمر شجرة الدر ، فتنكشف عين جالوت ، أيها المستعصم لو أنك غادرت غطرستك لرسمت قصة مختلفة للعراق ، ولما نبت فيه النواح!

واختفت سريعًا ، أيعقل أن تلك السيدة من الجن أو الشياطين؟ لو أن حماري هنا لكشف هذا ؛ لأنه يميزهم! لأعد للنوم أفضل .

ورقة

تفيق لطيفة ، لا تجد أحدًا سوى الصغير علي ابن أم صابر ، وهو يشير نحوها :

– طلبت أمي أنْ أبقى معك ، قالت لي لا تدعها تذهب لأي مكان ، هل تفهمين ما أقول يا خالة؟

تبتسم لطيفة ، ترمقه بحنان ، وتمسح على رأسه . . تعبس وتعقد حاجبيها فجأة ، وتبدأ بالشم :

Bad smell(*)

– ماذا تقولين ياخالة ، لا أفهم عليك؟ . .

ترفع ثوبها نحو ركبتها فتجد القروح ، تمسها بأطراف أصابعها ، فتغطي نفسها ، ثم تسحب الصغير نحو حجرها ، وتخط بسبابتها على التراب ، وترسم بعض الرسوم :

Say A = Apple(**)

B = ball(***)

يحدق الصغير بوجهها ، يراقب حركة شفتيها ، تعيد عبارتها له ، يبدأ بتقليدها . . تصفق له لطيفة ، تقبله ، تعود للشم ، تعبس ملامحها ، فيقول لها :

(*) رائحة كريهة .

(**) قل تفاحة .

(***) كرة .

- رائحتك بصل يا خالة ألهذا أنت منزعجة؟ . .

تقف ، تمد يدها للصغير : إلى أين يا خالة؟ أمي ستغضب مني لو تحركنا من هنا .

تهز رأسها إيجابًا . . وترمي بطانيتها ، كأنها تؤكد له أنها ستعود ، تنظر إلى كيس أحجارها ، لكنها تتركه ، تصحب الصغير وتغادر ، ويلومها علي وهي لا ترد ، تسير لطيفة على إيقاعها الخاص قرب نهر دجلة ، منذ سنوات وهي تجلس قرب ضفته ، ترمي الحصى واحدة تلو الأخرى تبتسم وتحمل النهر أمنياتها أمانة ، تلتمع في كف يدها اليسرى حلقة ذهبية ، تضحك ، ويهمس حولها : أميرتي أنتِ يا لطيفة ما أطيب عطركِ . وسرعان ما ينقطع إيقاعها الخاص لتعود بصابونة جديدة مع الصغير علي . .

أما الصغير تمام فهو يجادل أخته نرجس :

- نرجس خذي هذا العلم الصغير لتزرعيه في القمر عندما تطيرين مع ماما ، لا أعرف إن كانوا سيسمحون لنا نحن الأولاد بالطيران أيضًا ، ماما قالت إن هذا الأمر مخصص للنساء فقط .

تمد نرجس كف يدها الصغيرة ، تتسلم العلم من أخيها تمام ، تدور به في فناء البيت ، ويدور رجل سمين كث اللحية مع علمه في شوارع بغداد ، تركض نرجس . . تركض . . علم علاكي . . علم علاكي ، يصيح بها تمام قلت لك ألف مرة انطقيه صحيحًا وبلا تقطيع . .

تواصل الطفلة بغداد في البصرة العزف على البيانو في قاعة فندق الشيراتون ، سألها أحدهم :

– ماذا تعزفين أيتها الجميلة؟

– تعلمت أغنية (منصورة يا بغداد) والآن أحاول تعلم أغنية (حلوة يالبغدادية) . . .

يخرج تمام ليلعب في الحديقة مع أصدقائه ، يعلقون الخيط في الطائرة ، طائرة الورق ، ترتفع ، ترتفع ثم تسقط ، يغضب تمام ، يضرب بساقه على الأرض بقوة : طبعًا تسقط الطائرات ، قلت لكم مليون مرة ارسموا عليها العلم العراقي! . .

يجلس الصغار يلونون الطائرات الورقية بألوان العلم ، يخافون غضب تمام ، ولا يخبرونه أن إحدى طائراتهم الورقية قد علقت بسعفة نخلة . . .

أزيز الذباب الفضي يغزو سماء العراق ، وينثر أوراقًا ، وكلما طارت طائرة التفت نحوها رجل سمين كث اللحية مبتسمًا ، رافعًا علمه الكبير ، ليرفرف في الريح ، يرمي بصرته للتراب ، ويشير للطائرة بيد ، ويرفع العلم في اليد الأخرى ، لم يبال بالأوراق المتساقطة من الطائرات ، يعيش نشوته الخاصة ، يحاول الركض كالصغار خلف الطائرات ، طائرة السماء تشق الفضاء ، تشق الغيوم ، وأقدامه تشق الأرض ، يركض ويركض ، في مطاردة غريبة ، يهرول بكل ما يملك من قوة ، وعندما ينهكه الجري يقع أرضًا على بطنه ، يلهث ، تتصاعد

أنفاسه ، يضحك عندما يرفع عينيه باتجاه الطائرات ، والعلم مرفوع بإحدى يديه ، حتى غرسه في أقرب مكان ، حرص على تثبيته جيدًا ، فلا يميل ، جلس يراقب السماء ، ينتظر الطائرة التالية ، أنهكته لعبته ، والطائرات نشيطة لا ترحمه ، بحث عن علبة صفيح فارغة ، نقل إليها بعض الأحجار ، ثبت العلم داخلها جيدًا ، وضع رأسه تحت صرته أمام العلم ، يداه تؤشران لكل طائرة تمر . . تعالت أنفاسه صعودًا وهبوطًا ، سال العرق من جبينه ، بالكاد يسحب أنفاسه ، لم يستطع إغماض عينيه بين طائرة وأخرى ، دخل في شبه غيبوبة ، يهذي وهو ممدد على الرصيف ، والعلم يرفرف ، ولا يبالي به العابرون .! .

الطفلة بغداد في البصرة تسأل أمها : أمي . . . لماذا نرى العلم هنا في كل مكان ، ولم نرَ أعلامًا منتشرة في شوارع لندن؟

- إنهم يحبون بلادهم . .

- وهل الإنكليز لا يحبون بلادهم؟!

نامي يا صغيرتي حان وقت النوم . .

شهور وقاسم يبحث عن ابنته هيلة ، في كل الشوارع التي كانت تدور بها ، وهي تبيع الحلوى ، ساعده فاضل في البحث عنها في المشافي ، وصلا إلى دائرة الطب العدلي في بغداد ، أجساد وأجساد ، مترامية ، الثلاجات ممتلئة ، قلبوا الجثث لم يجدوا شيئًا ، خرجوا وتركوا الجثث خلفهم :

– إذا لم يعثر علينا أهلنا من سيقوم بدفننا؟

– أنا بلا رأس هل لديكم رؤوس؟

– أين ساقي؟

– لقد رأيت رأسك يطير على يميني ، وأنتَ ساقك دخل مدرسة الأطفال ، كنا نقف قربها عندما حدث الانفجار ، لقد سمعت فزع الصغار حينها . .

– مسكينة أمي أسمع بكاءها . .

– أتمنى ألاّ يكون معنا أبو جواد ، لديه سبع بنات . .

– أنا هنا ، ومطمئن ، بناتي سيشاركن في الطيران مع الباقيات .

– ما بال تلك القابعة في الزاوية ساكنة لا تشاركنا .؟

– إنها امرأة جلبوها من وادي الزانيات ، قرب الشماعية حيث يرمون جثث الزانيات . .

– وادي الزانيات؟ أعوذ بالله . . . وهل تقصد أنها زانية؟

– ليس هذا بالضبط ، لكنها رفضت الطيران مع النساء ، وقامت بالاستهزاء من المشروع فقُتِلت .

– وكيف عرفتَ أنت؟

– لأنني من قتلها ، لسوء حظي انفجرت عليّ سيارة مفخخة في الطريق ، وصرت معها في المكان نفسه!

يدخل موظف في الطب العدلي يصمت الجميع ، يوزع عليهم أرقامًا مخطوطة على لوحات بيضاء ، ويخرج . .

أقنع فاضل عمه بأن هيلة استشهدت في أحد الانفجارات ، فبعد الانفجار لا تتوضح معالم الميت ، وأبلغته الشرطة أنهم عثروا على كثيرٍ من الجثث المتفحمة لبنات صغيرات في السن ، وقام بعض المنظمات الخيرية بدفنهن ، سلّم قاسم بوفاتها ، وانتقل فاضل إلى حي سكني جديد في بغداد ، ولم يدفع لخنجر المال الذي استدانه منه قديمًا ، ولم يعرف أحد عنه شيئًا ، لكنه بعد حين أقبل على عمه قاسم والمسبحة بين أصابعه ، فعرض عليه أن يترك عمله في تنظيف الشوارع ، ليعمل معه في محل الأدوات الكهربائية ، فصاحب المحل منحه حرية التصرف ، بعد أن ترك الوطن ، وأمنه على المال ، وقال له إن صاحب المحل اسمه فاضل مثل اسمه ولذا هو سعيد بتلك اللافتة فوق باب المحل :

– ليت هيلة ودموع هنا يا فاضل ، لشاركتا مع أخواتهن وبقية النساء في مشروع الطيران الذي يتحدثون عنه . .

يرتبك فاضل ، يخفي ارتباكه ، يسند نفسه إلى عكازه الجديد ، عكاز خشبي تزينه الأصداف ، والأحجار الغريبة ، يدير وجهه متصنعًا أنه يرتب بعض الحاجيات في المحل . .

– ليرحمهما الله يا عمي . . وإن كانت دموع بفعلتها الشنعاء وحرق نفسها لا تستحق الرحمة . .

ويخفي فاضل عن عمه حكاية رسائل التهديد التي تصله باستمرار ، رسائل تطلب منه دفع المال وإلاّ قضوا عليه . يتهم

فيـها خنجـر ، فـيـفكر أن يسـدد له المال ، ولكنه يخـشى أن يكتشف خنجر تحسن أحواله فيطمع فيه وقد يبتزه ، قد يفعل أي شيء خنجر ، فهو حقير ، هكذا يحدث نفسه ، لذا يحتاط ، ويتعمد ترك عمه قاسم وحيدًا في المحل ، ويغيب حتى ينظر في موضوع تهديدات خنجر . .

. . . تقطع لطيفة الصابونة ، وتبدأ بطحنها بواسطة حجارة معها ، يراقبها علي وهو يتربع قربها ، حتى صنعت منها طحينًا :

– الرائحة جميلة الآن يا خالة .

تتسع ابتسامتها ، وتهز رأسها إيجابًا ، يعود لها الصدى ، رائحـتك جـمـيلة يا لطيـفـة ، أي عطر تضـعين؟ ، أشـتـريتـه بالتقسيط ، حبيبي يحبه ، ذهب ولم يعد إلى الآن لكنه سيعود حتما سيعود ، سأنتظره حتى يعود ، ومنذ سنوات وهي تنتظر ، وتقرب لطيفة أنفها من دقيق الصابونة ، تشم ، وتنتعش . . . ثم أضافت للدقيق قطرات قليلة من الماء ، ليصبح أشبه بالعجين ، وتبدأ بتلطيخ جسدها به ، مسحت ساقيها ووجهها ، ورقبتها ، سحبت نفسًا عميقًا ، بدأت الرائحة الزكية تفوح في المكان :

– خالة ضعي لي قليلاً . . ويميل برأسه . . أرجوكِ

تضع لطيـفـة قليلاً من عجـينة الصابون على سـاق الطفل ، تمسح وجهه ، وهي تضحك . .

– شكرًا شكرًا . . أنا مثلك أحب الرائحة الحلوة يا خالة .

تنتهي من مـهـمـتـهـا ، وتعـود تضع الصـغـيـر في حـجـرها ،

وتواصل الدرس معه ، يطيعها الطفل ، ويراقب شفتيها كيف تنطقان ، حتى دخلت عليهما أم صابر ، تسحب ساقها العرجاء ، ليقفز علي نحو أمه : أمي أنظري . . علمتني خالة لطيفة ، ويشير نحو الرسوم والكلمات التي على التراب ، ويقرأها لأمه . .

تشم أم صابر رائحة طيبة ، تقلق ، وتلتفت نحو لطيفة : لطيفة هل أكلتِ صابوناً مرة ثانية؟ وأنت يا علي ألم أقل لك راقبها كي لا تؤذي نفسها؟ . .

تهز لطيفة رأسها بالسلب . . .

يرد علي : لا . . لا يا أمي ، دعكنا أنفسنا بالصابون فقط . . ويضحك . .

وتضحك أم صابر معهما ، تلاحظ الخطوط والكلمات التي على التراب ، تسرح قليلاً في وجه صغيرها ، ترفع يدها بالدعاء : يا رب ساعدني لأُدخل هذا الطفل المدرسة ، تصمت برهة ، ثم تواصل لكن ماذا عن أخيه إنه كبير بالسن لا يصلح للمدرسة؟ . . . .

توجه حديثها نحو لطيفة :

– اسمعي يا لطيفة لن تغادري هذا المكان بعد اليوم ، ستعيشين معنا وسأعلمك العمل معي . . أنا أحبك ولا أقبل أن تدوري في الشوارع ، وتؤذي نفسك ثانية . . هذا البيت بيتك هل سمعتِ؟

تنظر لطيفة تجاهها وتحني رأسها ، ثم ترسم بإصبعها على التراب كوخًا . .

تواصل أم صابر جادة : لطيفة عديني أن تطيعيني بعد اليوم ، والأهم أن تكفي عن ضرب الناس بالحجارة . . تتأمل لطيفة كيس حجارتها . . . .

– اسمعي كلامي . . . وأقسم لك والله لن أسمح لأحد أن يؤذيكِ .

تتلألأ عيون لطيفة ، وتبدأ خيوط الدمع تسيل على وجهها ، تحتضنها أم صابر بقوة ، وتمسح على رأسها تقبلها : منذ اليوم أنتِ رفيقتي . .

يرن في أذنها الأمس ، منذ اليوم أنتِ رفيقة حياتي ، لن يفرقنا إلاّ الموت ، سأخلص لك أبد الدهر ، تقضم سبابتها وتبكي ثم تخفي وجهها تحت عباءة أم صابر .!

(١٤)

انتشار هذه العصافير الميتة في الطرقات أمرٌ غريب ، أخشى أنها مصابة بمرض إنفلونزا الطيور ، ستكون كارثة ، لكن لحمها أسود صغير منتوف الريش ، جسدها تغطيه الديدان والحشرات ، يطير فوقه الذباب ، وانتشرت روائح نتنة في المدينة ، فالكائنات متفسخة في كل مكان ، تركلها الأقدام عندما تسير ، اعتادت عليها العين ، وألفتها فلم تدهش أحدًا ، شأنها شأن كل الأشياء التي لم تعد مدهشة في بغداد ، ربما لأن مشروع الطيران كان الاهتمام الأكبر للمسؤولين كافة ، عليّ العثور على حماري أولاً ثم التفكير بقضايا أخرى .!

وتحدث الجميع عن مزايا المشروع ، قالوا إنه عنوان لسيادة الدولة ، وبدء حملة الإعمار والتطوير ، وبدأت النساء تتزاحم ثانية عند وكيل الحصة التموينية لاستلام أدوات طيرانهن الجديدة ، وهن يتسابقن أيهن سيوضع اسمها قبل الأخرى في كتاب المشاركات ، ورأيت إحداهن تركل الأخرى صارخة بوجهها : أنا أولاً ، وتتدافع سيدتان : قفي أيتها المعتوهة في الدور . . . وأخرى تنهال ضربًا على ابنتها : عليك الطاعة يا

ابنتي ، إنها معصية كبرى لو نخالف ، سمعت حينها قهقهة لرجل يقف في الخلف يراقب ويقول (يفرطون في كل شيء حتى في الطاعة) وحين سألت من يكون؟ قالوا لي إنه باحث في التاريخ اسمه الوليد بن عبد الملك . .

وتطاير الغبار حولي جراء تدافع النسوة ، ولم أعد أسمع شيئًا سوى صوت جدتي بسعاد وهي تحدثني . .

لم يكتفِ الغول يا صغيرتي بالتهام آذان الرجال ، ففي ليلة مشؤومة ، نظر فيها إلى المرآة ، وجد خراطيمه بشعة وبحاجة للتجميل ، وفكر أنه يحتاج إلى كثيرٍ من الزينة والحلي ، فأصدر قراره بجمع حلي النساء ، من أقراطٍ وقلائد وأساور وخواتم ، لكنه خبيث لم يبلغهم برغبته بالتجمل بها ، إنما خدعهن وقال لهن إنه سيعلقها على البوابة الشرقية للوطن ، ليجعل النساء العراقيات متميزات في تضحياتهن لتجميل الوطن ، صدّقنه ولبين دعوته ، بعضهن كن خائفات مرعوبات ، خشية أن يلتهم آذانهن ، كما فعل مع الرجال ، لكن كثيرًا منهن كن متملقات منافقات ولهن مآرب أخرى ، وبينهن ساذجات يصدقن أتفه الحكايات ، اصطفت النساء بطوابير طويلة ، وهن يقدمن له كل ما عندهن ، وكان كلما تسلم حلية من سيدة بصق في وجهها لتطير بصقته ، وتلتصق بوجه زوجها أو ابنها أو حبيبها ، فتقع مكان الأذن المقطوعة ، لتصبح بصقته كالوسم بوجوه الرجال ، حتى نمت تلك البصقة ، وصارت أشبه بالأذن القصيرة ، لكنها

أذن ذات مخالب وقواطع تشبه المقص ، امتدت تلك الأذن نحو حناجر الرجال فقطعت ألسنتهم ، وهكذا فقد الرجال آذانهم وألسنتهم أيضًا ، ثم أحكم قبضته أكثر ، حين جعلهن يصدقن الحاجة الملحة لتجميل تلك البوابة ، فعرض بالتلفاز صورًا من البوابة الشرقية غارقة في الوحل الأحمر ، وكتب تحتها عبارة كي لا ننسى ، فبكت العراقيات كثيرًا ، وهن المحبات للجمال والنظافة والأناقة ، فقدمن كل ما لديهن طائعات ، بل وتبارين أيهن تقدم أكثر من الحلي ، لتنفش ريشها على صاحبتها ، وحدثت أحيانًا معارك بين النساء ، حين وضع الغول جواسيسه من النساء المتملقات اللواتي ينقلن له الأخبار ، انقسمت النساء إلى مجموعات ، بعضهن ابتلعهن الغول بخرطومه ، عندما أظهرن الشك بنواياه الحقيقية ، فالآذان التي ابتلعها منحته القدرة لالتقاط الهواجس ، قبل ولادتها على الألسنة ، وبعضهن حصلن على كراسي ضخمة مزينة بالأحجار ، كراسٍي إذا ما جلسن عليها انقلبن في جوف الأرض إلى الأبد ، وأخريات حملن أزواجهن المرضى وهربن من البلاد ، بعد أن بعن بيوتهن وكل ما يملكن ليطرن عبر البساط السحري ، بحثًا عن أماكن بعيدة لا تصل إليها العيون الثاقبة للغول ، هكذا حدثتني جدتي بسعاد ، جدتي عظيمة ، فهي لم تقدم شيئًا للغول ، لم يرغمها أحد على هذا ، هل قالت هذا؟ لا لم تقل هذا ؛ لأنني عندما استفسرت منها ، أنكرت الحكاية

من أساسها ، وكل ما قالته إن البوابة الشرقية كانت تهيم حبًا بالنساء ومن الحب ما قتل ، ولم أفهم معنى أن تحب البوابة النساء؟ فهو غير منطقي ؛ لأنها برواية أخرى قالت لي إن النساء هن اللواتي عشقن جمال تلك البوابة ، فأرسل الغول الرجال لطلائها بالأحمر ، لكسب ود العراقيات ، النساء اللواتي يعشقن الجمال والفن ، لكن الرجال يعودون دائمًا خرسًا (صمًا بكمًا عميًا ، فهم لا يفقهون) ، هذا إن عادوا! لأن أحدًا لم يعد من هناك ، ولم أفهم منها أي الحكايات هي الأقرب للحقيقة ، هل قالت جدتي بسْعاد هذا؟ لا أعرف لأنها كانت مصابة بداء الزهايمر ، وكان جدي كبيرًا في السن فلم يشارك في عملية طلاء البوابة الشرقية ، لأنه ذهب ليجلب لها الأدوية المضادة للزهايمر من الجنوب فابتلعه خرطوم الغول!

أغمضت عيني بسبب الغبار الذي أثاره تدافع هؤلاء النسوة ، حتى رأيتها أمامي :

أيتها العاشقة الفريدة وعندما دخلت الجيوش بغداد ، رفض التاريخ التدوين جعل مجدافه هشًا ضعيف الصنع ، يدور الجاحظ في شوارع بغداد يصفق الراح بالراح يردد (أعجب من العجب ترك التعجب من العجب) تختنق كلماته بالدخان ، فلا بيان ولا تبيين كل الصحف رماد ، يدير ظهره فيبصر أشلاءً مقطعة الأوصال ، وأخرى تطفو فوق دجلة ، وتتنافس بيوت العزاء أيهم رواده أكثر! يتكاثر

الأموات ، ويفكر دارون بنظرية تطور الأصنام ، ويعيد النظر في المعنى البيولوجي للأحياء ، وترفع الأمم المتحدة وثيقة أطلقت عليها حقوق الحيوان ، تعوي الكلاب بحرية ، وتمتلك القطط حق التجوال .

سألتها عن أي جيوش تتكلمين ياخاتون؟

سخرت مني ضاحكة وهي تمد كفها نحوي : نعم . . . أيهم وهم كثْرُ؟!

استدارت بخفة فراشة ، ومضت تاركة صدى قهقهتها يرن في خيالي .

ترى أكانت بين النسوة تستلم أدوات طيرانها معهن؟ فهي لم تحدد موقفها الخاص من الطيران ، دار في داخلي كثيرٌ من الأسئلة ، حتى قررت أن أتجاوز كل شيء ، سأركز فقط في قضيتي الرئيسة ، وأفكر بخطط جديدة ، دائمًا هناك حدث ما غير متوقع ، من يدري لعله يظهر ، ويقلب كل الموازين ، ولتحترق هذه الخاتون بجحيم جيوشها ، فهي تغيظني بإصرارها على ملاحقتي .!

ورقة

يزقزق الكناري في القفص ، فرحًا بعودة لهيب من السوربون ، لكنها خرجت صباحًا ولم تعد لبيتها ، مازال الكناري ينتظر؟ تعطرت وارتدت ثوبًا أسود عليه رسم الميزان ،

حملت شهادة الماجستير في القانون ، وتوجهت إلى محكمة الجنايات في بغداد ، وردتها الحمراء الكبيرة تزين شعرها الأحمر ، وتحيات الصباح ، ماذا لدينا اليوم من تحقيقات؟ يهابها الجميع ، ويحميها أشقياء الشارع ، تنتظر بدء المرافعة ، وتنتظر على قارعة الطريق ، رثة الثياب ، بشعر منفوش ، تضع أحمر الشفاه على جبينها ، وأمامها علبة صغيرة يضع لها المارة فيها بعض النقود ، يتجاوزها الأشقياء ، يقول كبيرهم :

– إياكم والعبث بها . . إلاّ لهيب هل فهمتم؟ . .

يتركها الأشقياء ، تحرسها كلابها ، يدور حولها الكلب أصيل ، ويمنحها أحدهم لقمة من هنا ، وآخر لقمة من هناك ، وخلفها صوت جهوري ارتجت له القاعة ، وإذا حكمتم (فاحكموا بالعدل) وحكمت المحكمة ، دب السكون ، وغرق الصوت الجهوري في نزوات السلطان ، الابن ينوي معاقبة أبيه ، فلأمه شأن عظيم ، يغضب السلطان لعقوق ولده ، ولهيب بين المطرقة والسندان ، بين الولد وأبيه ، والفكرة دعوة قضائية ضد جناية الولد العاق ، فالولد قاتلٌ لرفيق أبيه ، رفيق أبيه الذي جلب للسلطان الزوجة الثانية ، والميزان مكسور ، تصالح الولد مع أبيه ، ترافعت لهيب ضد القاتل ، ولم تعد ، فأين ذهبت لهيب؟ .

حملتها إبرة إلى قارعة الطريق ، تجمع أعقاب السجائر ، قدم أحدهم لها علبة سجائر ، وزقزق لسانها : ميرسي ، تبحلق

على الطابق الثاني الشقة رقم (٤) في بناية قرب (ساحة الخلاني) ، تتنقل منذ أعوام بين بيتها في (الغدير) وتراقب الشقة (٤) في (ساحة الخلاني) ، تبدأ نهارها بقراءة الجريدة ، وتنتظر القرار ، قاضي القضاة يهمش على الدعوة القضائية : إنها للهيب ، والأمر من السلطان العظيم ، ابنه يزأر من بعيد ، والسلطان يأمر ، وعلى الجميع طاعة مختار العصر الفريد ، والولد سر أبيه . يتحرك ثوبها في القاعة ، يفوح عطرها ، أرجوكم أبعدوني ، لا جدوى يا لهيب ، سبق السيف العذل ، وليلة واحدة . . . . ليلة كالحة لا قمر فيها ولا نجوم ، وللسلطان وابنه وجه واحد ، وإذا بها على الرصيف ، تعدل وضع وردتها الحمراء ، الوردة يجب أن تبقى ، ترتدي معطفًا صوفيًا في ظهيرة تموز ، في المكان نفسه ، أمام الشقة (٤) في بناية في (ساحة الخلاني) ، تجمع المال من المارة في علبة صغيرة ، يطرق الزبائن باب الشقة(٤) ، طلبًا لتوازن الميزان ، الأستاذة لهيب مشغولة تدفع ثمن رغبات السلطان ، راجعوا قسم المحاسبة ، تشعل بيدها اليمين سيجارة ، وسيجارة أخرى بيدها اليسار ، تضحك تعلو ضحكتها ، تقول للعابرين وهي تشير نحو شرطي مرور : إنه رجل طيب أعطوه بعض المال ، هل يحتاج أحدكم مالاً سأجلب له ، أخبروني كم تريدون؟ تدير وجهها ساخرة ، يقول مدير مكتبها : رجاءً إن الوقت تأخر ، ستقابلكم الأستاذة غدًا ، الأستاذة تقول : كان الولد مجرمًا قاتلاً ، تلتفت لكل

الاتجاهات ، تهمس لإحداهن وتضع إصبعها فوق شفتيها (هس هس هناك صراصير) من منكم رأى لهيب في ساحة (الخلاني) وتعود إلى منطقة (الغدير) تحمل علبتها الصغيرة وتدخل بيتها ، تجلس أرضًا ، تدخن السجائر ، تحتضن كلابها وتنام ، والكلب أصيل يدور حولها ولا ينام ، وفي الصباح تقرأ الجريدة فينام أصيل ، وتنتظر هي القرار الأخير من قاضي القضاة! . . .

وأشجان تنتظر أيضا قرب نادي الزيتون ، وفاعل خير يؤجر لها شقة صغيرة ، ادخلي يا أميرة الجنوب ، أغلقي الباب ونامي ، تحتضن لعبتها وتضع كارتونتها ، تدور في المكان ، تدور حول نفسها ، تبحلق في السقف والستائر ، يسلمها المفتاح ، لا تقفي في الشارع ، ثم يغادر ، تمد رأسها من النافذة ، تعود تفحص المكان ، تسرح بعيدًا . . تقف لتسحب كارتونتها ، وتوسد لعبتها على صدرها ، تترك المفتاح على الطاولة ، تتجه نحو الباب ، تفتحه ، تلتفت إلى الوراء ، تغلق الباب وتغادر ، تتجه للشارع ، تضع كارتونتها ، مقابل نادي الزيتون ، تراقب شقة في البناية المقابلة ، تفترش المكان : جبار أبو حمزة لئيم . . خبيث . . حقير .

وسائلٌ عابر : من هذا يا أشجان؟! فلا تجيب . .

تختار النوم على الرصيف ، يتصدق عليها المارة ، إلى متى وأنتِ في الشارع؟ لن أترك هذا المكان . . تمشط شعر لعبتها ، ثم

توسد لعبتها في صندوق صغير ، (هس هس بلا أصوات ابنتي تنام) ، وتضع خواتمها السبعة في أصابعها ، ينتظر المسرحُ وحشود المعجبين ، تحك رأسها ، يرتفع التصفيق ، تبتسم ببرود ، هل تزوجتِ يا أشجان؟ كلا لم أتزوج ، لا أولاد عندي ، يحاول ولدها إعادتها إلى البيت ، تهرب نحو الرصيف ، وتجلس قريبًا من نادي الزيتون ، تعدّ ما جمعت من المال ، تنتظر الفاصل الثاني في المسرح ، وتشتري لعبة من محل صغير ، تتكاثر ألعابها ، ترصها أمام عينيها ، يرتفع اسمها في دنيا الطرب ، ماذا تفعلين بالألعاب يا أشجان؟ أستأنس بها . . حتى يأتي من يعاقب المشاغبين! . . يتبرع لها السكان ، ويقومون بإعداد كشك لها ، من أعمدة خشبية ، وقطع من الألمونيوم ، تصفق أشجان ، يصفق لها المستمعون ، انتهت من الأغنية الأولى ، تدخل الكشك ، توقد النار ، تطمح بدفء والليل بارد في كانون ، تحترق هي والكشك ، تبكي ألعابها ، تنكس رأسها ، يشتري لها أحدهم لعبة جديدة ، تطلب منه سريرًا لطفلتها ، يرم لها المكان ، تغادر المسرح ، يستمتع الجمهور ، تدخل الكشك . . تشتكي من عدم النوم ، تقضي ليلها وهي تفك عقد شعرها الكث ، وتحلم بعقاب للمشاغبين . .!

(١٥)

وبدأت الزوبعة . .

وجدتني أمام ثلاثة ، يجلسون حول المائدة المستديرة ، يتوسطهم رجل كبير في السن يضع نظارة على وجهه ، يحتك كرشه الكبير بالمائدة ، يضع القلم بين أصابعه ، وأمامه دفتر ، نظر إليّ بقوة ، كمن يتفحص كائنًا غريبًا ، يحاولون التقاطه ، ضاقت حدقة عينيه ، لم أهتم ، للناس طباع مختلفة ، وكل له زاويته الخاصة في النظر ، لا يمكن توحيد الزوايا ، فزاوية نظرة امرأة بالتأكيد ستختلف عن زاوية الرجل ، نحن أهل كوكب الزهرة وهم أهل المريخ ، هكذا جاء في كتاب حديث ، جلس على يمين ذلك الرجل آخر نحيل الوجه ، بدا أصغر سنًا ، يرتدي زيًا عسكريًا ، وعلى كتفه بضع نجمات ، أشبه براقصات الملاهي الليلية ، راقصات يرقصن مدة أطول إن رفعت التسعيرة ، من قال إن راقصات الملاهي لسن شريفات ، لكني اتخذت موقفًا نفسيًا من أولئك النجمات ، عندي حدس غريب بالأشياء ورثته عن جدتي ، آه يا جدتي بسعاد كم كنت عظيمة ، جدتي بسعاد التي كانت مصابة بداء الزهايمر ، وجلب

جدي لها الأدوية الخاصة ، يجب على حاستي السادسة أن تصمت الآن ، أنا في اجتماع وطني مهم ، لوضع خطة جديدة للبحث عن حماري ، وعلى يساري جلس شاب يرتدي قميصًا أسودَ اللون ، وبنطالاً رماديًا ، يضع أمامه جهاز تسجيل صغيراً ، وآخر يحمل على كتفه جهاز تصوير فوتوغرافي معلقاً بحبل يتدلى فوق صدره . . لاحظت أنهم يمتازون بقصر آذانهم ، بدت لي شبه مضمحلة ، تذكرت حكايات جدتي ، ربما التهم آذانهم الغول الأسود ، وربما مرض يصيب كل من يجلسون على الكراسي العالية المزينة بالأحجار النادرة ، تلك الأحجار التي يجلبونها من (وادي طوى)! . .

حدث هذا عندما استدعاني الدكتور فتح الله خميس إلى قاعة الاجتماعات ، بالتأكيد سنقوم بإعداد منهج تربوي جديد لطلبتنا ، ووضعوني في تلك اللجنة ، وربما سيخبرني بترشيحي لدورة تدريبية خارج الوطن ، قطعًا سأرفض ؛ لأنني لن أغادر العراق حتى أجد حماري ، أو لعله سيكلفني بمهمام إدارية ، وأيضًا سأرفض ، يكفي ما لدي ، فلن أجد الوقت الكافي للبحث ، الدكتور فتح الله طيب القلب رغم تصلبه في الإدارة ، بالتأكيد لم يقصد الإساءة لشروق وليلى ، ها هو قد نسي تهديده لي وحافظ على السر ، يبدو أنني ظلمته ، من حقه في كل الأحوال أن يحاسب موظفيه ، كنت أتأخر في العمل سابقًا ، لعله يريد أن يشكرني لانتظامي والتزامي الشديد في

الأشهر الأخيرة ، هو يعرف مدى حب الطلبة لي واحترام زملائي ، فلي إنجازاتي العلمية ، لا أعتقد أنه سيحاسبني على تراجعي عن متابعة بحثي العلمي عن أسباب نعيق الغربان المستمر في بغداد ، لو سألني سأقول له إنني أبدلته ببحث أفضل منه! . .

وقف رجال مسلحون على باب تلك القاعة ، استغربت كيف يدخل رجال مدججون بالسلاح إلى الحرم الجامعي ، ربما هناك شخصيات مهمة ، يتولى هؤلاء المدججون حمايتها ، الوضع العام يتطلب هذا ، لعلهم جاءوا ليأخذوا مشورتي في أمر مهم لصالح العملية التعليمية ، أو ربما سيرشحونني للعمل على مشاريع محو الأمية ، أو لعلهم فكروا بخطة لإعادة الطلبة المتسربين من المدارس ، أو . . .

استقبلني الدكتور فتح الله بحفاوة بالغة ، بالتأكيد احترامًا لشخصي :

– عزيزتي سأتركك مع الأساتذة ، اثنان منهما عضوان في لجنة طيران النساء نحو القمر والآخر . . . .

اتسعت ابتسامتي كما لم تتسع يومًا ، وأشرقت أساريري ، أخيرًا استجابوا لرسالتي ، لعلهم تأثروا بها ، أخيرًا سأجد من يساعدني في العثور على حماري ، ستتحقق أحلامي كافة ، وتذكرت بابا نوئيل سأجعله يدور بعَلمِه وهو فوق حماري ، وسيغني أغنيته تلك ، سيتجمع حولنا الأطفال سيصفقون

وسيرقصون ، كم هو رجل عظيم دكتور فتح الله ، ولشدة انفعالي لم ألتقط من هو الشخصية الثالثة المشاركة ، لا يهم . . . ليكن من يكون مادام سيساعدني ، واصل حديثه :

– كما تعرفين أنني أحد أعضاء اللجنة ، لكن لا يمكن أن أشارك معهم ، فالأمر خاص بزميلة هنا . .

كم نزيه هذا الرجل . . . . خرج وأغلق الباب خلفه .

التفتُّ إلى الجالسين أمامي ، انتبهت لوضع آذانهم ، ما جعل فأر القلق يقفز في حجري ، حاولت ضبط انفعالي وقلقي ، وقلت لنفسي لا بأس ، قياس الرجال أفعالهم وفحوى عقولهم لا هيآتهم ، أو إجادة فن الأتكيت ، فالأول صعبة صناعته ، والثاني ما أسهل تمثيله .

ابتدأ الرجل الكبير الحديث ، وهو يشير إليّ بالجلوس ، جلست وقلبي يخفق ، وأنا أحاول الابتسام لأنني تذكرت وجه حماري في لقائي الأول . .

– دكتورة أمل ينبغي أن تعرفي من البداية أنك في مواجهة تهمة كبيرة ، لأنك متهمة بالعمل على إفشال مشروع طيران النساء باتجاه القمر . . هل لديك تعليق؟!

فتحت حدقة عيني ، ووضعت يدي على فمي : . . . ما . . . . . .ذا؟!

واصل حديثه :

– ألم تخبري الدكتور فتح الله خميس أنك تريدين مركبة

فضائية ، لتطيري بها مع حمارك المزعوم ، ثم فشل المشروع؟

لم أعرف ماذا يجب عليّ قوله ، لكنني تماسكت :

– نعم ، قرأت قبل يومين على هامش النشرة الإخبارية أسفل الشاشة خبرًا يؤكد فشل المحاولة الثانية للطيران ، ولم يذكر أحدٌ الأسباب أو أي تفاصيل أخرى ، ولم أهتم كثيرًا ؛ لأنني مشغولة في البحث عن حماري ، وطالبت بالطيران بمركبة فضائية لأطير مع حماري نعم ، ذلك عندما شاركت بمظاهرة نسوية صغيرة ، وكتبت قبلها رسالة لطلب مساعدتكم لي لتوفير احتياجاتي الخاصة بالطيران ، كنت أتوقع أن تساعدوني بتحقيق حلمي في العثور على حماري ، لكنكم لم تردوا عليّ . . فما علاقتي بفشل مشروعكم؟!

تكلم الرجل صاحب الزي العسكري بسرعة ، وهو يؤشر بإصبعه نحوي كما يؤشر نحو أي متهم :

– ها أنت تعترفين بحبك للحمار . . احذري فالحمير تستخدم في عمليات التفخيخ!

بأسلوب مراوغ : لذا أبحث عنه قبل أن يحاول أحد استغلاله ، قلت هذا وأنا أشعر بالقلق على حماري ، فقد يتهمونه وفقًا للمادة (٤) إرهاب ، يا إلهي قضيتي تتعقد أكثر ، فواصلت :

– أيها السادة كل الحكاية أنني أحببت حمارًا مهذبًا له مميزات رائعة ، كان مُلكًا للمغدور زكي لكنه فرّ ، وما زلت أبحث عنه .

كنت في حالة من عدم التوازن ، هل أعيد عليهم الحكاية من بدايتها؟

– هل تعلمين أن مجرد طلبك لمركبة فضائية فيه تحريض باقي النسوة ضد المشروع ، لقد شاركتِ في المظاهرات معهن؟!

– نعم فعلت ، لكن هل سألتم النساء عن الكيفية التي يردن بها الطيران؟ أعرف مَن رفضن مشروعكم كله ، وبقين صامتات . . . في كل الأحوال أستاذ هذه طلباتي ، أولاً أريد العثور على حماري .

التفت الشاب الصغير صاحب جهاز التسجيل ، ليوجه حديثه لصاحب الزي العسكري : نكتفي بهذا إنها تعترف بحب الحمار ، وكخبر إعلامي سيكون رائعًا في الصفحة الأولى والتبرير منطقي : أستاذة جامعية تحب حمارًا وراء فشل المشروع!

وقف ، ولم أشعر إلاّ بضوء يسلّط عليّ وينطفىء بصورة مفاجئة . . .

قاطعته مباشرة : وطالبت بمركبة فضائية عليك تثبيت احتياجاتي!

– لا شأن لنا بما تطالبين . . . أنتِ وحمارك المزعوم وراء فشل المشروع!

– غريب! فأنتَ لم تسألني حتى عن قصة المرحوم زكي صاحبه الأصلي! . . هل أصبح مقتل البشر خبرًا طبيعيًا وامرأة تبحث عن حمارٍ خبرًا يستفزكم؟! . ثم ما علاقة حماري بفشل

مشروعكم؟ سكتُّ قليلاً ثم دارت عيناي عليهم واحدًا تلو الآخر ، واصلت وأنا أحرك رأسي بالإيجاب : نعم أحب حمارًا . .! وأطالب بمركبة فضائية ، لو فكرتم بإعادة التجربة لا تغفلوا عن طلباتي!

وضربت على رأسي بيدي . . همست لروحي ، بدأت ساعة الصفر . .

وقف الرجل الكبير ، بدا ضخم الجثة ، ذا شاربين كثيفين ، وضع القلم في جيبه ، ابتسم لي :

– دكتورة أمل لا تقلقي . أردنا اعترافك فقط . . سنتكلم مع رئيس قسمك . .

– قلبت كف يدي اليمين : اعترافي بماذا؟!

لم يرد عليّ أحد ، وقف الثلاثة ، جمعوا أوراقهم ، وغادروا القاعة ، بقيت وحدي في حالة من الذهول . . لم أفهم شيئًا .

لم تمضِ سوى دقائق حتى أقبل عليّ رئيس القسم ، كنت مرتبكة ، لا أعرف ماذا يترقبني ، ولا ماذا يريد هؤلاء الرجال مني؟!

جلس في مواجهتي ، حدّق بي ، وأشعل سيجارته ، ونفخ دخانها في وجهي ، طال الصمت بيننا ، فقطع حبل الصمت ، وهو يميل برأسه ، وينظر نحوي من طرف عينيه : اسمعي دكتورة أمل جيدًا ، بالتأكيد سمعت عن فشل المشروع . .

كنت مرغمة على الإصغاء إليه ، لعلي أجد قشة تخرجني من البحر الذي أغرق فيه ، واصل حديثه ، وأنا أحرك رأسي

بالإيجاب : كما تعلمين هناك ميزانية عالية مرصودة للمشروع ولم يحالفنا الحظ ، رغم أننا استبدلنا نوع ريش الأحذية بريش العصافير ، فهي الأقدر على الطيران ؛ لأن ريش الدجاج الذي استعملناه في البداية لم يساعدنا ، فالدجاج لا يطير! وينبغي أن نوضح أسباب فشل المشروع الآن ، نوضح أسبابًا مقنعة ، فلا يعود أحد يتحدث عن فشل المشروع ، بمقدار ما يتفهمون فشله .! . .

التمعت عيناي ببريق ، لم أستوعب الفكرة وقفت وصفقت الراح بالراح . . . وما شأني أنا؟! . .

أشار بإصبعه نحوي : رجاءً ، اجلسي لم أكمل حديثي .

– ماذا بعد؟

– أنت موقوفة عن التدريس ، تمت إحالتك إلى المشفى ، لفحص قواكِ العقلية ، وهذا أفضل من أية تهمة أخرى أليس كذلك؟ نحن نحتاج خبرًا كهذا!

– أجبت باستغراب : نعم! . . . تحتاجون ماذا؟! . .

بنظرة ذات مغزى قال لي : . . . امرأة تحب حمارًا أليست . .؟ . . . ولم يكمل

بسرعة وبلغة الواثق من نفسه : وطالبت بمركبة فضائية أيضًا .

– مجنونة .

بهدوء : لست مجنونة . . .

صرخ بوجهي : من أين لك كل هذه الثقة والقوة؟ ألست

امرأة . .؟! اسمعيني جيدًا إن أردتِ إيقاف الأمر برمته ومنع نشر الخبر في الإعلام ، والعودة لممارسة عملك ، عليك التوقيع على إصدار بعض الشهادات لهؤلاء ، مد لي ورقة لاحظت فيها عشرات الأسماء . .

قلبت شفتي وقلت له : صحيح إن لي مسؤولية إدارية ، فضلاً عن التدريس ، وهي مراجعة الشهادات العلمية وتدقيقها ، لكن لهذا نظامه ، وبالتأكيد سأوقع عندما تصلني أوراقهم الرسمية . .

أجاب بحدة : إنك تتعبينني كثيرًا ، هذه أسماء لأصدقاء ينبغي أن تكون لديهم شهادات ، فهم مرشحون لمناصب عليا في الدولة ، مناصب تجعلهم يقدمون لنا مشاريع مفيدة ، سنمنحك مكافأة .

قلت بصوت عال : مكافأة؟ هذا ابتزاز؟! . .

– كلا إنه مساعدة . .

– هززت رأسي : نعم . . . . نعم فهمت!

وقفت وقلت بحدة . . : لن أفعل ما تريدون ، وأحببت حمارًا ، وسأفحص قواي العقلية . . .

غادرت القاعة ، وكلي يرتجف ، سمعته من خلفي يردد :

–ابحثي عن حمارك يا مجنونة ، عليك فحص قواك العقلية خلال شهرين سأترك أوراقك في الإدارة هل سمعتِ؟ حمقاء . .!

شتمني . . . نعم شتمني . . .

يكثر الذباب في الطريق ، وتنثر الشظايا حرب الكواكب ، تتواصل المعارك ، لا تنطفىء البكائية ، تستقبل الشماعية الكثيرين في بغداد ، كثيرون دخلوا وخرجوا ، وبعضهم فروا ، لكنني لن أفر ولن أخرج ، فحتى تخرج يجب عليك الدخول أولاً ، اخترت اللعب خارج المركز! . .

ليلتها داهمني الأرق ولم أنم إلاّ قليلاً . . .

– إلى أين تأخذينني أيتها الراوية؟ تارة تجعليننني أحِبُ حمارًا ، وتارة تحوليننني إلى مشفى المجانين .

– اسمعي رأيتُ حمارًا له مواصفات حمارك نفسها ، صرت أضحك بجنون ، حاولت اللحاق به ، فلم أستطع ، عشت حالتك تمامًا ، ولم أعرف حتى هذه اللحظة هل كنت داخل السرد أم خارجه؟!

– ماذا؟ . . . كان عليك اللحاق به ، أين حماري؟ إنك تتعبيننني!

– أنتِ التي تبحثين عنه ، لستُ أنا ، أليس هذا أفضل من أن أمنحك رقمًا؟!

– أنا الرقم الذي تتجاوزه نشرات الأخبار .

– ستذكرك الأخبار وستكتسبين شهرة ، صبرًا .

– لا أريد شهرة ، هذا لا يعنيني . .

– وماذا تريدن إذن؟

– أريد حماري ، لقد أحببتُ حمارًا! .

ورقة

تسقي أم صابر البقرة لتشرب ، تبدو سعيدة بلعبتها فتنسى عمرها ، وتواصل اللعب بها ، وهي تقف في مكانها الجديد أمام مستشفى اليرموك ، تتربع لطيفة قربها على التراب ، يمر أمامها رجل أسمر طويل القامة ، أصلع ، يرتدي بدلة عسكرية ، تبحلق به لطيفة ، وترتعش ، تلم أطرافها نحوها ، وتميل على التراب ، تحاول مد يدها لالتقاط حجر ، تلاحظها أم صابر ، فتنهاها بنظرة وهي تفتح عينيها :

– لا . . لا يا لطيفة . . . . لقد اتفقنا . .

تقف وتقترب لطيفة من أم صابر ، تقترب أكثر ، وتسحب عباءة أم صابر لتواري جسدها تحتها ، وتغطي الظاهر من وجهها بكفها ، تلفها أم صابر بعباءتها . . وتمسح على رأسها : اهدئي . . اهدئي يا لطيفة ، لقد ذهب الرجل . . . . أنا معك .

تخرج لطيفة رأسها ببطء من تحت العباءة ، لتتأكد ، تبتسم وتخرج من تحت عباءة أم صابر وهي تضحك . .

– حبيبتي ضعي هذه القبعة الجميلة على رأسك كي لا تؤذيك حرارة الشمس .

تتسلم القبعة الصغيرة ، قبعة ذات ريش ملون ، وفصوص وخرز تعود لإحدى الألعاب ، ثم تقف بثقة عالية وتنادي :

Come her baby...(*)

يتجمع حولها بعض الأطفال ، يقف الصغير علي وسطهم ، تعلو الزقزقات ، رغم الشاش المبقع على أيديهم و أطرافهم ، يضحكون معها ، يهمس بعضهم لبعض ، كأنهم في سيرك مستحدث ، سيرك لا يخلو من الدم ، تشير لطيفة إلى لعبة بين يدي صاحبتها قائلة للصغار :

This is a cow(**)

يردد الأطفال العبارة ، تصفق لطيفة لهم ، توزع عليهم قطعًا صغيرة من الحلوى ، تكرر عبارتها ، وهي تشير للعبة أخرى :

This is a dog (***)

يكررون خلفها ، وهم يضحكون ، ليقول طفل لأبيه : بابا أرجوك اشتر لى هذه اللعبة . . يلبي الأب طلب ولده ، وتلاعب لطيفة الطفل ، وتمسح على رأسه الملفوف بشاش مبقع . . . .

تتسع الحلقة يوميًا ، طورت لطيفة عملها ، فوضعت سبورة صغيرة متحركة في الشارع ، تسندها إلى جدار المشفى ، وتكرر عبارات الإنكليزية ، تكتب على السبورة بالطباشير ، لم تعد تشتم الغول ، انشغلت عنه بالألعاب والأطفال ، وصارت تحدث الأطفال

(*) تعال إلى هنا صغيري .

(**) هذه بقرة .

(***) هذا كلب .

بلغتها الخاصة ، يتفاعل معها الكبار قبل الصغار ، وازدهت تجارة أم صابر مع الأيام بفضل نشاط لطيفة وعملها ، لطيفة التي تبتكر طرقًا جديدة لعرض الألعاب ، فلا تتردد أن تموء كالقطط ليضحك الصغار ، أو حتى تعوي لتعرض لهم لعبة كلب . بل وتقوم بأدوار تمثيلية بالألعاب كأنها ممثلة مسرح قديرة . . . . .

– ليت أم مظلوم بقيت معنا يا لطيفة ، أفتقدها كثيرًا ، ها قد تحسن وضعنا ، والحمد لله ، لكنها مسكينة مشكلتها كبيرة ، ليتني أستطيع مساعدتها . .

تنظر لطيفة في وجه صاحبتها بحزن ، وتقلب شفتيها ، ولا تنطق ، تتلألأ عيناها . .

تتأمل أم صابر في غيمة عابرة ، فتعثر على أم مظلوم وهي تقبل عليها :

– سأذهب إلى مسطر عمال النساء خارج بغداد ، رتبتُ أمري وجئت أودعك يا أم صابر ، مشروع الحجابات وطرد الجن مكلف كثيرًا ووجدت هذا أفضل منه . .

– والله قلبي معك يا أم مظلوم ، وهل ستعملين مع الرجال؟

– لا . . . لا ، هذا المسطر خاص للعمال من النساء ، هناك سيدة طيبة توزع العمل على النساء ، منهن الطواشات اللواتي يعملن على تنظيف التمور ، لكنني اتفقت على عمل خلطة الإسمنت أو حمل الطابوق ؛ لأن أجرها أكثر ، لقد أبلغوني عن

مدرسة هناك ، ليتعلم مظلوم فيها بدون تسجيل رسمي ، قالوا لي مديرتها متفهمة ، مصيبتي كبيرة يا أختي تعرفين عقد زواجي عند السيد ، وليس للولدين أوراق ثبوتية رسمية ، لعنة الله على عمهم سرق أدوات النجارة التي كان يعمل بها المرحوم ، بحجة أنه لا إرث لي ، لو تركها لتعلم مظلوم بها ، لكنني سأسعى ليتعلم القراءة والكتابة ، ولو أن الأجر هناك أقل مما يقبضه العمال الرجال ، في كل الأحوال هو أفضل من بيع الحلوى ، ولأجل مظلوم وأخته أيضًا . . .

– يا عزيزتي مشكلتك معقدة ، يجب أن يكون لأولادك أوراقٌ رسمية قلت لك هذا مرارًا . .

– أحتاج محاميًا وهذا يحتاج المال ، إنه سبب آخر لأعمل هناك . . .

– لا أعرف ماذا أقول لك؟ كنت أتأمل الحديث مع المحامية التي اسمها لهيب لتساعدك ، لكنني عندما سألت عنها اليوم أخبروني أنها ماتت . .

– ماتت؟!

– نعم وجدوها ميتة في أحد البيوت ، كانت وحدها . .

– في بيت؟ كيف هذا؟

– قالوا إنها من عائلة ثرية ومثقفة ، وتمتلك بيتًا ، لكنها لا تبقى في بيتها ، بل تدور في الشوارع ، كان الناس يتحدثون عنها اليوم .

- حكاية عجيبة . .

- بكيت كثيرًا بسببها ، ليرحمها الله ، اسمعي لِمَ لا تبقين معنا؟ ندبر أمورنا ونعيل بعضنا ، والله يصعب عليّ فراقك .

- الله يكثّر من أمثالك يا أم صابر ، تكفيك همومك ، وها هي لطيفة معك أخيرًا . .

- لك ما تشائين ، تذكري دائمًا بيتي مفتوح لك بأي وقت ، جربي حظك يا أختي . .

تتعانق السيدتان بقوة ، وتبكيان معًا .

- برعاية الله يا أم مظلوم . . الله معك ويسهل أمرك . .

تلف أم مظلوم عباءتها حولها وتغادر المكان ، تراقبها لطيفة من بعيد ، تدمع عيناها ، تقلب شفتيها ، وتضم يدها على صدرها ، لكنها عندما تسمع صوت بعض الصغار يقبلون ، تعود لها بسمتها ، وتضع الطباشير بين أصابعها ، وتكتب على السبورة وهي تبتسم . .

We are Strong women(*)

تتنهد أم صابر وهي تخرج من غيمة الأمس : كان الله في عونك يا أم مظلوم ، ترى ما هي أخبارك؟

(*) نحن نساء قويات

(١٦)

مررت مصادفة أمام مشفى اليرموك ، فوجئت بأم صابر في غير مكانها المعتاد :

– كيف حالك يا أم صابر؟ هل انتقلت إلى هنا؟ . .

– نعم دكتوره هذا المكان أفضل . . ونظرت نحو سيدة طويلة القامة ، والحمد لله منذ أن عملت معي هذه الطيبة ازداد الرزق . . . .ثم أشارت نحو سيدة تقف بعيدًا . .

– هل هي تلك التي يجتمع حولها الأطفال؟ كأنني رأيتها مرة قرب محل تجاري .

– على الرغم من أنها لا تتكلم إلاّ الأجنبية ، لكننا نتفاهم لا أعرف كيف؟ وتضحك أم صابر وتغطي نابها الوحيد بكفها ، ثم تواصل : تصوري حتى ولدي الصغير علي صار يتكلم بلغتها . . إنها تحب الصابون جدًا ، كلما منحتها أجرًا اشترت صابونة ، لكنها بالأمس اشترت سبورة ، وبضعة أقلام ، وطباشير ، وحلويات صغيرة توزعها على الأطفال وتعيد المتبقي من المال إليّ . .

– غريب! كأنني سمعت بهذا لا أتذكر أين؟

– والله اتفاءل بوجودها معي . . . بفضلها زاد رزقي . . . تصمت قليلاً ثم تتذكر أمرًا . . . دكتورة باركي لي ، فتبتسم وتضع كفها على فمها : لقد سجلت صابر في صفوف محو الأمية ، إنه يتعلم كتابة الحروف والأرقام . . .

– جميل جميل . . وكم يبلغ ولدك من العمر؟

– خمسة عشر عامًا ، إنه يحسب لي حساباتي الخاصة الآن ، ويدونها في دفتر صغير ، لم يعد يسرقني أحد ، لعلي كنت أخطىء في الحساب ، يريد صابر أن يصبح شرطيًا . .

فجأة اتسعت ابتسامتها وأشارت بسبابتها نحو تلك السيدة ، نظرت نحوها وهي تحمل بين يديها مسطرة وتشير إلى الألعاب بأنواعها ، أنعشتني زقزقات صغار بغداد حولها ، رغم أن أغلبهم ذوو وجوه صُفر ، ويلف أذرع أو سيقان بعضهم شاش أو جبيرة كبيرة ، ويغطي رؤوس الآخرين منهم شاش ببقع حُمر . .

فكّرت لو وجدت حماري ، لسمحت له بالوقوف وسطهم ، ولربما تعالت ضحكات هؤلاء الأطفال أكثر ، لكانوا أجمل فريق عمل في بغداد . . لكن . .

التفتُّ نحو أم صابر وسألتها : هل رأيتِ هنا حمارًا أقصد . . . أقصد حمار زكي هل رأيته يا أم صابر؟

تضحك وتضرب كفا بكف : والله يا دكتورة أضحكتني ، رحم الله زكي الطيب ، كان يساعدني في حمل هذه الألعاب

على ظهر حماره ، لقد أحسن تهذيب حماره ، هو وفيٌّ مثل صاحبه ، تصوري مر من هنا قبل قليل ، عندما وقعت مني لعبة وأنا أفرش الألعاب ، ولم ألحظ هذا ، حتى التفتُّ فوجدته وهو يضع كوفيتة الملونة ، كان خلفي واللعبة في طرف فمه ، وما إن وقف قربي حتى أسقطها من فمه ، وسحب نهيقًا ، رحمك الله يا زكي . . .

– نعم . . هل حدث هذا حقًا؟ . . . وأين ذهب؟

– ماذا يا دكتورة ألم تعرفي بمقتل زكي من زمن بعيد؟ لقد قُتِل في طريق عودته من مشاهدة مباراة كرة القدم ، وعثروا على جثته فجرًا . .

– لا لا . .أقصد أعرف . . سمعت . .لكنني أقصد حماره . . .

– لم أنتبه ، بالتأكيد قريب هو من هنا ، كان هزيلاً . . لكن لم تسألين؟

لا حول ولا قوة إلاّ بالله ماذا حدث للدكتورة أمل؟ لم اختفت بسرعة؟

بحثت يومها في كل الفروع القريبة من المكان ، ودققت في المنطقة المحيطة لكنني لم أجده ، وتسلل اليأس إلى قلبي ، ولا شيء في بغداد ، سوى المزيد من الانفجارات ، وسيارات الإسعاف ، ونعيق الغربان الذي لا يتوقف ، لقد تعودت على هذا لم أعد أفكر بالأرقام! . . . . .

مر يومان ، ثم كتبت الصحف عني أشنع الاتهامات والعبارات ، رأيت صورتي في صحيفة طريق الإعمار ، وصحيفة العدالة والمساواة ، وصحيفة مستقبل النساء أيضًا ، كأنني متهمة :

– سيدة مثقفة . . تحرض النساء على إفشال مشروع الطيران!

– إحالة أستاذة جامعية لفحص قواها العقلية .

– قروية جاهلة التهم حمارها أوراق الخطط الاستراتيجية للمشروع!

جعلوا مني قروية وجاهلة ، لا بأس ليكن ، لكن لم يذكر أحد قصة زكي ، ولم يذكروا شيئًا عن مطالبتي بالمركبة الفضائية للطيران ، بدا لي الأمر برمته غريبًا ، لماذا يظهرون جزءاً من الحقيقة؟ ثم انتشرت أخباري بسرعة البرق ، وصارت الفضائيات تتحدث عني ، ولم يعد أحد يتحدث عن مشروع الطيران ، نسيه الجمهور تمامًا ، مثلما نسوا حجم الأموال التي صرفت ، ولم يذكر أحد الأرقام الجديدة ، ولم يعلنوا نتائج اللجنة التحقيقية المكلفة بقضية سرقة بنك الحيزبون ، تناسوا قضية حي الأنصار في النجف ، والأطفال الضفادع في الفلوجة ، وغزوات السجون وحرب الكواكب ، وما تثيره من ألوان عجيبة في السماء ، كل الأخبار تركزت حولي ، حتى صرت أنا القضية الكبرى لأنني أحببت حمارًا . .!

اتصل بي كـثـيـرٌ من أصـحـاب الفـضـائيـات ، وكلمني الإعلاميون ، كلهم أرادوا مقابلة أو حديثًا ، لكنني كنت أجيب بعبارة واحدة : أحببت حمارًا . . ورفضت أي لقاء إعلامي . .

تلك العبارة لم أكن أملك غيرها ، صاروا يحللون ويضعون التفسيرات ، بعضهم يحاول تشخيص حالتي النفسية ، أني امرأة فاشلة في الحب ، وأردت شتم حبيبي وإغاظته ، بعضهم صورني مختلة العقل ، بعضهم اتهمني بالانتماء لبعض الجماعات الإرهابية ، وأستخدم الحمار في عمليات التفخيخ ، هذا الاتهام الأخير أقلقني كثيرًا ، وتمادوا واتهموني بأنني أعيق بأفكاري هذه ، العملية الديمقراطية الوليدة في العراق ، قالوا إنّ مثلي ستعيدهم للمربع الأول ، وكل تلك التحليلات كانت تثير سخريتي ، لم أستغرب فأغلبهم يقبعون في المركز ، إناثهم وذكورهم ، لم يفكر أحد بما يمكن أن يقدمه حماري من خدمات عظيمة لسيدة أرملة بلا معيل هي بغداد ، لم يفكروا بأحوال بغداد أصلاً .!

صرت أخرج متنكرة ، كي لا يلتقطني أحد ممن يتابع الأخبار ، فأسمع كلمة سخرية ، أو كلمة تجرحني ، صبغت لون شعري باللون الأحمر ، وغيرت تسريحتي إلى جدائل مضفورة ، وتنكرت بثياب طالبات الجامعة ، ووضعت مرة قبعة مزركشة مكسيكية أهدتها إلي أم صابر ، عندما تعاطفت معي وأنا أخبرها بقضيتي :

– غريبة قصتك جدًا دكتورة ، وإن كنت أعرف أن حمار المرحوم زكي كان متميزًا في كل شيء وهو فعلاً مفيد ، خذي هذه القبعة ستخفي وجهك ، لن يتعرفوا عليك . . وماذا يعني إذا أحببت حمارًا؟ أنا أيضًا أحب ألعابي خصوصًا هذه البقرة . .

وما إن ارتديت تلك القبعة وسرت حتى شعرت بخطوات خلفي ، خفت وتوقعت أن أحد الإعلاميين يتبعني ، تقدمتني تلك الخطوات ، سحبت نفسًا عميقًا عندما عرفت صاحبتها ، التي اقتربت مني :

أيتها العاشقة الفريدة في الضفة الأخرى من التاريخ ، تقبل خاتون المغول على عشاق الدم ، وهي المبجلة الموقرة ، يقوم الملك من عرشه ، يتجه نحو الباب ، يستقبلها ، تدق الطبول إعلانًا عن وصولها ، يقبل كف يدها ، تدخل المجلس بكامل هيبتها ، يتوزع حراسها في المكان ، تجلس بعض الوقت ، تشعر بالملل ، تقف لتغادر ، فيقف لها الجميع ، ثم يُقرع طبلها أولاً ، تحية لوداعها ، يغادر بعدها الملك ، فالوزراء ، وابن بطوطة يدير رأسه عجبًا في المجلس .!

قلت لها : وما شأني بالمغول . . أنت كاذبة كيف هذا؟! لم لا تتركينني وهمي ، ضحكت بسخرية وتجاهلتني كعادتها . . نعم كانت تسخر مني!

واستيقظت في الصباح الباكر لمواصلة البحث عن

حماري ، ورغم حذري اصطادني طفل صغير ، وأنا أبحث في الميدان ، لست أعرف كيف ميز وجهي؟ ربما لأنني نسيت التنكر ، سئمت ألاّ أكون أنا ، لا أحب الوجوه المستعارة ، إنها أشبه بشعر مستعار ، قد يتزحلق من الرأس ، لست منهم ، ولأنني لم أستعر وجهًا هذه المرة ، اكتُشِفَ أمري ، كان الصغير حسن الهندام ، تبدو عليه الوجاهة ، ترك يد والده وصار يصيح خلفي : المجنونة المجنونة . .

ارتبكت ، خفت ، تذكرت ذلك الفيلم حين عاش الأمير حياته محبوسًا وهو يضع القناع الحديدي فوق وجهه ، هل عليّ أن أضع قناعًا مثله لأتمكن من العيش هنا بسلام؟ ذلك الأمير اغتصب أخوه العرش منه ، لكن أي عرش يغتصبون مني لتُفرض عليّ الحياة خلف قناع؟

صرت أركض وأركض ، وصوت الصغير يرتفع . . . . لم أشعر بما يدور خلفي ، فقط سمعت صوت حجارة تسقط ، واحد تلو الآخر . . تصورت الصغير يرميني بالحجر ، وعندما التفتُّ ، وجدت بابا نوئيل يقف في الزاوية الأخرى من الشارع ، يلتقطُ حجرًا من الأرض ويرمي الطفل . . ابتسمت . . ، كان يرمي الحجر باتجاه بعيد عن الطفل . . . . شعرت بالأمان . . لقد اختفى الصغير . . حاولت اللحاق ببابا نوئيل لأشكره ، فوجدت استفزازًا آخرَا! .

طفلة رثة الثياب ، ذات نعال متهرىء تدفع رجلاً على

كـرسي قـديم ذي عـجـلات ، كـان الرجل مـقطوع السـاقين من الركـبة ، كـبـيرًا في السن ، يرتدي قـمـيصًا داكن اللون ، وبنطالاً رماديًا ، وتتدلى البقية من بنطاله على الكرسي ، ورغم حاله الرثة كانت عيناه بلونهما الأزرق تشعان ، اقترب منه بابا نوئيل ، وقف أمامه ، واقتربت أنا أكثر لأرى ما الذي يحدث؟ . .

ثبت بابا نوئيل علمه على الأرض ، ورمى صرته أيضًا ، ثم ضرب بقدمه اليمنى التراب ، رفع يده اليسرى نحو أذنه ، ردد أغنيته التي أعرفها ، بدا الحزن على ملامح الرجُلين ، أحنى الرجُل الجالس على الكرسي رأسه ، تقدم بابا نوئيل ليدفع كرسيه ، تنّحت الفتاة جانبًا ، ساروا جميعًا في موكب غريب ، اقتربوا من نقطة تفتيش وأنا ألاحقهم ، وإذا برجل الأمن يصرخ بهم : أين تذهبون؟ ممنوع الدخول هنا . .

قال الرجُل الجالس على الكرسي : أرجوك أخي دعني أدخل لهذا الفرع ، فهنا أسكن . .

– قلت لك ممنوع الدخول ، تعالوا بعد ساعة ربما يفتحون الطريق . . .

بابا نوئيل صامت ، ملامح وجهه غاضبة ، حرك علمه يمينًا ويسارًا ، تقدمت في محاولة مني لحل الإشكال : دعهم يدخلون ، لمَ تمنعهم ، ألا ترى حالهم؟

ردّ عليّ رجل الأمن بنبرة غاضبة : أنتِ امرأة ، وأنا لا أتكلم معك .!

انحنى بابا نوئيل ليقبل رأس الرجل الثاني ، تركهم بعد أن دفعت الطفلة الكرسي المتحرك باتجاه معاكس ، بعدها سمعت صوت بابا نوئيل وهو يجهش بالبكاء ، تبعته لأسأله عن سبب بكائه ، لكنه ابتعد كثيرًا ، عدت إلى بيتي وأنا أفكر بالكثير ، ولم أستطع يومها النوم بسبب الدوي المتواصل . . . . . .

عاودت مهمة البحث عن حماري في اليوم التالي ، في المكان نفسه ، متنكرة ، دخلت الفروع الجانبية من الشوارع الخلفية في الميدان ، حيث علمت أن الحمير تتجمع هناك ، وربما وجد حماري هناك علفًا وذهب إليه ، ولم أجده فتحركت باتجاه شارع الرشيد فرأيت بناياته العريقة وهي تشتكي من الأحوال العقلية السائدة في البلاد ، وعندما تعبت هدأت خطواتي ، سحبت نفسًا عميقًا طويلاً ، وجلست على أحد الأرصفة ، مر جمع من الصغار ، كانوا جميعًا حفاة ، وثيابهم متهرئة ، أشرت إلى طفلة بينهم ، بدا لي وجهها ملطخًا بأوساخ ، سألتها :

- ما اسمك ؟
- زهراء
- ماذا تفعلون هنا يا صغيرتي؟
- على باب الله يا خالة .
- أين أبوك ؟
- مات كما اراد الله . .
- وأمك هل تعمل؟

– كلا ماتت أختي كما أراد الله ، ومرضت أمي بعدها مرضًا شديدًا ، لذا جئنا بالأمس قادمين من حي الأنصار في النجف ، ونحاول جمع المال لعلاجها ، يقولون إن مرضها لا شفاء له والدواء يكلف كثيرًا ، أرجوك أدعِ لها يا خالة بالشفاء . .

داهمني وجوم : إن شاء الله تشفى يا عزيزتي ، ولكن هل هؤلاء إخوتك؟

– كلا يا خالة ، فقط هذا كرار أخي ، وهي تشير بسبابتها نحو أحدهم ، والبقية التقيت بهم هنا فهم هربوا من أماكنهم بعد سقوط بيوتهم فوق رؤوسهم ، لا أدري يقولون هناك حرب ، وعادت تشير نحو أحدهم هذا اسمه شاكر من الفلوجة مات كل أهله هناك ، ركب الحافلة وجاء هنا يبحث عن أقرباء له ، والتفتت إليّ وقالت البقية من الرمادي والموصل ، وعدوني جميعهم أن يساعدوني بجمع المال لعلاج أمي ، وسيعطوني نصف ما يجمعون ، ووعدتهم أن أساعدهم إن مرضت أمهاتهم .!

قفز صغير في الوسط وأشار بإصبعه نحو صدره : خالتي أنا أخوها كرار ، جئت معها كي أحميها ، يقولون هناك من يسرق البنات ، وأنا أخاف على أختي .!

لم أشأ الاستفسار أكثر ، خشيت أن أتأكد من شكوك معينة ، فقلت للفتاة : ولكن أنتِ فتاة جميلة ، يجب أن تهتمي

بنظافتك ، لماذا لم تنظفي وجهك في الصباح؟

– رجل يحب الله اشترى لى سندويشة كبة أكلتها ، أشعر بالشبع ، الله يرزقه ويزيده إن شاء الله .

– وكم أخًا وأختًا لديك؟

– نحن خمسة يا خالة ، باقي إخوتي توزعوا بين الميدان وشارع الكفاح ، ونحن نعمل هنا على باب الله . .

يا الله عافِ أمي يا الله . . . يا رزق الله ، يا باب الله ، أين رزقك اليوم؟ يا الله لا تخذلني أمي مريضة وأنا على بابك ، تواصل زهراء الدعاء ، بينما يتحدث الناس عن موعد قريب للعبة كرة قدم أخرى ، وهذه المرة المنافسة بين العشائر الدولية والعراقية قرب ساحة كهرمانة في بغداد!

تحركتْ زهراء ورفاقها بعيدًا عني ، وأنا أراقبهم ، وما هي إلاّ لحظات حتى وجدتني مرتمية في مكان آخر مغمضة العينين ، ملقاة على الأرض ، وأصوات استغاثة ، ونحيب نساء ، وسيارات إسعاف ورجال أمن ، وصافرات لرجال الشرطة ، وأصوات متداخلة لبشر ، فتحت عينيّ لأرى عالمًا مسخّمًا بأكمله ، وشبحًا من بعيد لبقايا حديد متفحم . ضجة كبيرة ، وبشرٌ يركضون ، أحدهم يشير نحوي : أرجو أنك بخير ، احمدي الله كنت بعيدة بعض الشيء ، ولم تصلك الشظايا؟ . .

– ماذا . . ماذا حدث؟ شعرت بأنني أطير ، هل هذه

محاولة أخرى للطيران وفشلت؟!

– سيدتي الحمد لله على السلامة ، كانت سيارة مفخخة . .

مفخخة . . مفخخة ، لم أتذكر أنني سمعت دويّها ، كيف هذا؟ مسحتُ السخام عن عيوني ، ورأيت قطرات دم على ثيابي ، لم أعرف إن كانت مني أم نثيث دماء الآخرين عليّ . . كانت إصابتي بسيطة مجرد رضوض ، تذكرت زهراء ومن معها ، وقفت محاولة العثور عليهم ، صرت أتنقل بين الأجزاء البشرية المتفحمة ، رأيت أطرافًا مرمية مقطعة ، وأصابع منفصلة ، وأيادي مترامية ، ورؤوسًا طائرة ، بل عثرت على عين مقلوعة قريبة مني ، شعرت بالغثيان ، و لم أجد جثة واحدة متكاملة ، كلها ناقصة ، سمعت بكاء رجال ، ورأيت شبابًا يقبلون للمساعدة ، رأيت أشياء كثيرة عزيزي القارئ ، أشياء أريد إسقاطها من ذاكرتي ، لكنني أتذكر جيدًا أنني لم أجد زهراء أو رفاقها ، ولم أتمكن حتى من تمييز أطرافهم ، فنحن في بغداد بهذه الحالات نبحث عن أطراف لا أجساد ، ورغم محاولتي لفحص الأجزاء المتناثرة ، لكن الانفجار كان بالضبط حيث كانت تقف زهراء ، من يومها وأنا أتساءل ترى هل يضعون الأرقام على الأجزاء المنفصلة أم للجثث المتكاملة فحسب؟! . .

لم أستطع يومها العودة إلى بيتي ، أغلقت الشوارع كافة ،

وصلت منطقتي بمعجزة بعد الدوران لساعات طويلة ، وجدت المدخل المؤدي إلى الشارع الفرعي لبيتي مغلقًا بكتلة كونكريتية كبيرة ، كذلك الفروع القريبة منه ، سألت رجل الأمن ليسمح لي بالدخول من الفرع التالي ، أخبرني أن الدخول ممنوع ، لأنها خطة أمنية جديدة ، وبعد جدل طويل وتوسلات ، وقليل من الدموع سمح لي بالانتظار حتى يتم فتح الطريق ، بقيت في سيارتي حتى أعلن الليل قدومه ، كنت حينها أراجع كل ما مر بي مذهولة ، مشتتة ، لا أتذكر بعدها كيف وصلت بيتي؟ فبعد أن فتح الطريق ، ولم أجد بيتي ، تصورت أنه طار أيضًا ، لولا أن أحد الجيران أشار لي نحو طريق جديد ، فعثرت عليه بصعوبة بالغة ، لأنهم وضعوا كتل الكونكريت داخل المناطق السكنية أيضًا ، لم أستطع تجاوزها بسهولة ، بقيت أدور حولها في منطقتنا ، حتى دخلت أخيرًا وأنا منهكة ، جلست على الأريكة المقابلة لصورتي وأنا طفلة أحمل دمية حماري الذهبي ، بكيت حتى غفوت ، وأيقظني صوتها فجرًا . . .

أيتها العاشقة الفريدة الأراضي قاحلة ، الهلال الخصيب حزين ، الأنهار مسروقة ، من يسرق النهر؟ جار لئيم أم حوت يشرب ولا يرتوي؟ دجلة ترسل الزفرات ، والفرات مغتصب ، شط العرب والمرافىء القديمة ، رائحة البخور والتجارة العتيقة ، كل شيء أصفر ، اجتر التاريخ نفسه ، واستنسخوا ألف وجه لهولاكو ، ومكتبة آشور بانيبال تحترق ،

تتصاعد منها النيران ، آشور يبكي تركة أجداده الملوك ، آشور في بيت الألواح ، ينبش في الأشلاء ، عشتار احترقت في الألواح ، هل احترقت الألواح حقًا؟ كلا إنها تغني في بلاد الضباب ، تستقبل القادمين الجدد من المكتبة الوطنية في بغداد ، وما يزال الملك آشور ينبش في البقايا! من يُطمئنه بأن ألواحه تتنفس عبر القارات!

هذه الخاتون أشبه بظلي ، لا خلاص منها ، لتهذر ما تشاء!

قررت بعدها الاعتكاف ، واعتزال العالم الخارجي . . وبدأت أبحث عن حماري بطريقة أخرى ، استخدمت الحاسوب ، بحثًا عن أشكال الحمير وصورهم في بغداد ، لعلّي أعثر عليه بينهم ، حددت أيضًا أماكن وجود الحمير ، ودونتها في ورقة لأنطلق في البحث العملي بعد فحص قواي العقلية ، فأي بحث علمي يجب أن تكون له خطة علمية استراتيجية ، ثم يأتي الجانب التطبيقي ، وقتها لم أرد على المكالمات الهاتفية التي تردني من زملائي وصديقاتي ، لاسيما بعد كلام الدكتور مصطفى ، أغلقت هاتفي النقال ، لا حاجة لي به ، حتى صديقتي ليلى أهملت الاتصال بها ، وتعمدت الابتعاد عن منطق فهيمة ، يجب عليّ إثبات سلامتي العقلية ، والعثور على حماري لينهق فيهم نهقته فيخرسهم ، بمن فيهم تلك الغربان الناعقة ليل نهار حين تنشغل بالعداوة مع حماري ، ولم أتوقع أبدًا النهاية التي ستفرض نفسها على حكايتي .

كـان الطريق يمتلىء بحفـريات ، مضى زمن طويل عليـها وهي في الحال نفسه ، لا أعرف ماذا يفعل المقاولون؟ ولا تذكر إنجازاتهم نشرات الأخبار! والجندي الواقف عند نقطة التفتيش سألني هل تحملين سلاحًا وإلى أين تذهبين؟ سؤاله الغبي المعتاد ، وعندما أخبرته أنني أتوجه إلى مشفى الأمراض العقلية ، لم أفهم حتى اليوم مغزى ابتسامته ، لعله عرفني أو تصور أنني أعاني من مرض معدٍ خطير ، فتح لي الطريق بسرعة ، جدتي بْسعاد كانت تبتسم أيضًا وهي تقص حكاياتها ، توهمتُ أنني ما زلت أعيش في حكاياتها ، وما ذاك الجندى إلاّ أحد أبطالها ، وصرت أفكر ماذا لو أشار جهاز فحص المتفجرات لديه بأنني مذنبة؟ لن يحدث شيء مهم ، سوى المزيد من الانتظار ، لإقناعهم ببراءتي أنني لا أحمل معي أية متفجرات ، وبعض الحكايات هي متفجرات أساسًا!! وهذا أكبر إثبات على فشل جهازه ؛ لأنه لم يؤشر على الحكاية التي أحملها! .

وصلت إلى تلك البناية ، بدت لي كبيرة ، تحيطها الأشجار من الخارج ، وحركة مستمرة للبشر حولها ، بعضهم داخلون وآخرون خارجون ، يقف الحراس عند المدخل ، دخلت ومعي أوراقي الرسمية ، وقطعت ورقة برقم من الاستعلامات قرب العيادة الخارجية ، جلست في قاعة الانتظار ، أنتظر دوري لفحص قواي العقلية ، حيث القاعة نظيفة ، وهذا أمر مدهش حقًا!

البلاط المرمري لامع ، وهناك سلات للنفايات في أماكن متفرقة ، ولوحة لصورة العقل البشري على الجدار ، دار في ذهني سؤال عن سر النظافة هنا ، ربما لأن المرضى من هواة النظافة يحافظون على المكان ، أو لعل الإدارة جيدة ، إنه لأمر غريب أن تجد مكانًا نظيفًا في هذه البلاد ، والأشد عجبًا أن المكان جيد التهوية ، هناك أكثر من جهاز للتبريد ، كيف هذا والتيار الكهربائي لا يسمح باستعمال أجهزة كهذه؟! إن كان تيار الكهرباء لا ينقطع لديهم ، بالتأكيد في الأمر سر!

ما إن جلست حتى فاحت رائحة الياسمين ، من تلك المرأة القريبة مني ، كانت في مقتبل العمر ، بدت أنيقة ، ترتدي قميصًا أصفر اللون ، مع تنورة طويلة من اللون الأزرق الغامق ، وتغطي رأسها بغطاء ملون ، يصحبها شاب مرتب الهندام ، لاحظت انتفاخ خدها الأيمن ، التفتَ ذلك الشاب الذي كان بصحبتها نحوي :

- سيدتي هل تعملين هنا؟

ترددت في الجواب ماذا عساي أقول؟ لا لا فقط جئت ل . . . . .لأجري بحثًا علميًا عن بعض الحالات في بغداد .

- حسنًا حسنًا ربما تنفعك حالة أختي . .

- وما هي حالتها؟

- إنها تجمع نوى تمر البرحي في فمها ، ترفض أن ترمي بها ، ونخاف أن تبتلعها ، انظري إن فمها منفوخ هكذا ليلاً

ونهارًا ، انقطعت عن الأكل ، ولم يعد يجدي معها أي نصح ، بدأ جسدها يذوي وينحل ، تصوري . .

– لاحظت انتفاخ خدها منذ دخولي . . لكن لمَ تفعل هذا؟

– تنتظر أن تنبت نخلة حقيقية في خدها! إنها عاشقة للنخيل ، فهي فنانة تشكيلية ، تريد افتتاح معرض فني لولا هذه الحالة التي انتابتها! . . .

هذه السيدة الفنانة تعشق النخيل ، وأنا أحب حمارًا ، فأي فسيفساء عشق نحن يا إلهي .!

خرجت من عالم الفسيفساء ، لم أجد المرأة ولا الشاب الذي رافقها ، فقد دخلا غرفة الفحص الطبي ، وبقيت أنتظر ، ليت حماري يظهر وينقلني على ظهره من ضفة البؤس التي أقيم فيها ، إلى ضفة العشق الحقيقي ، سيأتي غودو بالتأكيد ، هل يأتي غودو؟ سيأتي لابد أن يأتي يا بيكت ، لا تفعل بي هذا رجاءً ، لا تجعلني أنتظر مثل لهيب . .!

ورقة

وتدور أكثر من حكاية بين صالونات الحلاقة النسائية في بغداد ، تطرق لهيب نافذة محل تصفيف الشعر ، تدمع عيناها ، في المرافعة يجب أن تكون المحامية جميلة ، رفعت الجلسة ، وحكمت المحكمة ، وقلبها رقيق ، ومن سيترافع عن المتهم الغريب؟

ذاق فنون التـــعـــذيب رجل من أرض الكنانة ، رأتهم يصعقونه بالكهرباء ، صاحت حسناء الكنيسة : المتهم بريء حتى تثبث الإدانة ، لتنام وسط كلابها ، الكلبة لولو أميرة عالمها ، ونانا الشقراء وصيفتها ، والكلب أصيل يئن لسماع بكائها ، يظل يدور حولها ، يتوسل بها صدى بالأمس ، من سيدافع عن الغريب؟ والخصم من الصقور ، صمت الرجال وترافعت لهيب ، ينتظرها المركز الثقافي الفرنسي في بغداد ، تواصل الدرس ، تأخرت لم تأتِ لهيب أين ذهبتْ؟

إنها تترافع ، فالغريب لم يسرق ، له زوجة وأولاد ، والعدالة لها ميزان ، هكذا رددت خريجة السوربون ، تشفق عليها صاحبة محل تصفيف الشعر ، ترتب لها شعرها ، تخرج لهيب تمد كفيها في رأسها وتنفش الشعر ، ثم تضع أحمر الشفاه فوق العينين ، أطاعتها المحكمة ، إذن هو بريء ، توازنت كفتا الميزان ، إذن تنقلي بين قضبان (الكاظمية) و(الزعفرانية) يا لهيب ، وعاد الغريب إلى أهله ، هاجر إخوتها بعيدًا ، تدخل بيتها القديم وحيدة ، تفتح بابه ، تحتضن الكلبة نانا ، تبكي لولو ، تموت نانا ثم لولو ، يقاوم أصيل ، يلعق ساقها ، ينام في حجرها ظل يبكي حتى بزوغ الفجر ليموت ، تعلن الحداد على كلابها ، تلتزم البيت لا تخرج ، تراقب جثث الكلاب ، تغطي الكلاب بالورود ، ورود من حديقتها ، وتبكي أيامًا على كلابها ، انتظرتها ساحة الخلاني أربعة أيام ، وافتقدتها شوارع الغدير ، لم تخرج

لهيب إلاّ في صندوق ، عروس القضاء العراقي في الصندوق ، عذراء الكنيسة عروس ، زفّها القس نظير نحو مثواها الأخير ، بكى نظير عليها طويلاً ، لعن الوطن وهاجر ، وفي المهجر يواصل القس نظير البكاء ، لقد ماتت لهيب ، ووجدوا علبة صغيرة فيها بعض المال مكتوباً فوقها (لصالح الأيتام) ، ومنحت بيتها وقفًا لصالح الكنيسة في بغداد ، فكتبت فوق سند ملكية العقار لأجل يسوع المصلوب ، أحبوا بعضكم ، تلك الوصية ، تعددت الروايات وللرواية أكثر من استهلال ، كلها تدور حول إبرة في النخاع ، كيف لامرأة أن تتحدى صقرًا من الرجال ، لتتسكع حمراء الشعر في منطقة الغدير ، وتنتظر في ساحة الخلاني أمام الشقة رقم (٤) ، ترافقها الكلاب ، تمد رأسها على نوافذ محلات تصفيف الشعر ، تعالي تعالي يا لهيب أصفف شعرك ، تصيح أين الصرصور الكبير؟ كلكم صراصير ، تدير ظهرها ساخرة ، تراقب الشقة رقم (٤) في ساحة الخلاني في بغداد ، دخلت بيتها مع كلابها ، ولم تخرج إلاّ في صندوق ، وتغطي الورود كلابها ، والموظف في الشقة ما زال يردد : أيها السادة انتظروا قليلاً ، ستعود الأستاذة لهيب ، ستنظر في قضاياكم ، سيتوازن الميزان ، يذكرها القس نظير في المهجر أحبوا بعضكم قولها الأخير!

وتلعب لطيفة بالميزان مع الصغير علي ، تضع فيه مكعبات ، وتوازن الكفة الأخرى ، تلتمع فكرة برأسها ، تفتح

كيس نقودها ، تحسب ما لديها ، تتحرك مسرعة باتجاه الشارع المقابل ، تاركة بطانيتها ، تاركة كيس حجارتها ، تعود بعد دقائق تحمل قنينة عطر جلبتها من كشك قريب للعطور المركبة ، تنثر العطر في المكان ، تنثر العطر في الهواء ، تنثره على ثيابها ، وتعطر أم صابر ، ترش به الصغير علي ، وتنثر قطرات على الألعاب ، تضع قنينة العطر قربها ، وكل طفل يشتري لعبة تمنحه لطيفة رشة عطر . .

وأم صابر تدعو الله : يا رب فك عقدة لسانها .

يمر رجل أصلع ، تبحلق به لطيفة شزرًا ، تراقبها صاحبتها ، تشير بإصبعها نحوها ، تعقد لطيفة حاجبيها ثم وجهها ، وتكتب على السبورة . .

Fuck them..!

يختفي أثر الرجل ، تخط لطيفة على التراب وجهًا ، تبصق عليه ، تقفز فوقه ، ثم ترفع طرفًا من ثوبها ، يخرج من تحتها سائلٌ أصفر اللون ، تضحك وتصفق . . تترك ثوبها ، ترفع رأسها ، وتبحث عن المكان الذي وضعت فيه صابونتها الجديدة! .

(١٧)

لم يفهمني زميلي الدكتور مصطفى :

يؤلمني جدًا ما يحصل معك ، هذه الضجة التي حولك ، وتلك الإشاعات والأقاويل التي تنال منك ، وما قرأته عنك في الصحف ، لا يليق بك مطلقًا ، كل هذا إهانة لنا جميعًا ، أتفهم قضيتك تمامًا ، ومن حقك الإعلان أنك تريدين رجلاً ، ليس في هذا غضاضة ، أتقبله أنا كرجل مثقف ، فاتركي فكرة حبك للحمار ، سأعرض عليك عرضًا جميلاً يليق بك ، إن أخي رجل ثري ، ويملك بيتًا وسيارة ، ويعمل في إحدى دوائر الدولة المهمة برتبة مستشار قانوني ، وأنا واثق أنكما ستتفقان ، كان يقيم خارج العراق وعاد مؤخرًا ، انفصل عن زوجته السابقة ، لأنها أجنبية ، رفضت العودة معه ، سنتشرف بك لو قبلت الزواج منه ، فهو يبحث عن زوجة لعل الله يرزقكما أولادًا!

دخلت في صدمة جديدة ، أدور معها وتدور بي ، ربط حديثه لساني ، فواصل : خذي وقتك في التفكير ، لنرتب لقاء تعارف ، لعل فيه الخير لا تخجلي . . .

تجاوزت الصدمة ، خرجت من الأمواج التي تحيط بي ، وسحبت معي ضحكة صغيرة ، ضحكة كانت تتخفى بين تلك الأمواج ولم تغرق : ماذا . . . أجلبتَ لي زوجًا؟! هل أنت جادٌ حقًا؟!

– طبعًا أنا جاد ، ماذا عسى أن تريد المرأة أكثر من رجل؟!

خرجت من تلك الدائرة على صوت ينادي باسمي ، حملت أوراقي للفحص ، فرأيتهما يخرجان من غرفة الطبيب المختص ، كانت تلك السيدة تبحلق في السقف ، تدير رأسها يمينًا ويسارًا ، تضع يدها على خدها ، لعلها تخاف أن يخطف أحدهم حلمها : طمئني ماذا قال الطبيب؟

بصوت حزين : كتب لها الطبيب دخولاً للمشفى لعلاج حالتها العقلية .

– كان الله في عونكم أخي ، شافاها الله . .

ما إن تحرك الشاب قليلاً ، حتى مالت عليّ تلك السيدة ، وهمست بأذني : لا عليكِ أمثل الجنون كي لا يفرضوا عليّ الطيران لو أعادوا التجربة .! وسارت . . .

اتسعت ابتسامتي ، تشجعت أكثر ، وإن كانت خطوتي بطيئة ثقيلة ، فالأمر أصبح أكثر جدية ، يجب عليّ المواجهة وكشف الأوراق ، ها أنا أتقدم نحو الطبيب ليفحص قواي العقلية ، هل سيكتب لي ورقة لدخول المشفى ، بتهمة حب الحمارِ أم لطلبي للمركبة الفضائية ، أم لأنني لا أفهم في المنطق؟!

كان يجلس خلف مكتبه ، يضع نظارة بدت رقيقة الزجاج بإطار أسود ، ترتمي على صدره السماعة كقلادة طويلة ، وسيدة سمراء مكتنزة الجسم في متوسط العمر ، جاحظة العينين أشبه بضفدع مشوي ، تملأ البثور والحبوب بشرتها ، تجلس على الطرف الآخر من الطاولة المستطيلة ، وبضع أدوات صغيرة غريبة على الطاولة ، مع سرير للفحص الطبي يبدو في زاوية الغرفة ، ومصباح معلق فوق الفراش يتدلى فوقه . . . . . إنها عيادة فحص طبيب أُنموذجية .

لاحظت ابتسامة الرجل ، وهو يقرأ في الأوراق التي قدمتها ، مد يده بالأوراق نحو السيدة الضفدع التي معه ، فضحكتْ ضحكة طويلة ، شممت فيها رائحة غير مريحة ، ولأول مرة أرى ضفدعًا (تضحك) ، وفجأة رفعت حاجبيها ، ضفدع يبحلق بي ، التفتَ إليّ الرجل وقال :

– سمعنا عنك كثيرًا ، خبريني ما اسمك ؟

– اسمي أمل أستاذة في الجامعة ، وواعية لما حولي ، وأفهم مشروع طيران النساء باتجاه القمر ، ذلك المشروع الذي فشل دون أسباب واضحة ، وأطمح للطيران مع حماري في مركبة فضائية ، إنه يعود للمرحوم زكي ، الذي قتل ، نحن في فصل الخريف على أعتاب الشتاء ، وهذا هو سؤالك الأول عن إدراكي اليقيني بالزمن ، وأعرف أن الليل يتبع النهار ، والنهار يتبع الليل ، واليوم يتكون من (٢٤) ساعة ، والساعة من (٦٠)

دقيقة ، أما عن رؤيتي لذاتي فأنا من الإناث ، أقصد الأكثرية ، ونحن في مشفى الأمراض العقلية ، والبعض يتوهم أنني مجنونة عندما أحببت حمارًا ، هو حيوان نعم ، لكنه مهذب جدًا ورقيق ، يمتاز بكبر حجم أذنيه ، لونه أبيض ويضع كوفية ملونة ، وله مميزات وفوائد كثيرة مهمة ، من حقهم ألاّ يحبوه ، ومن حقي أن أحبه! . .

بحلقت بي الضفدع بنظرة خبيثة ، لكن الرجل أجاب بسرعة : يبدو أنك حفظت الدرس جيدًا قبل قدومك . .

– من يسلك دربًا عليه أن يتهيأ ، منذ البداية قلت إنني أحب حمارًا ولن أطير إلاّ بمركبة فضائية ، والناس في ما يعشقون مذاهب . .

قاطعته تلك السيدة الضفدع ، وهي تفتش في وجهي عن خيط يساعدها : إذن تصرين على أنك تحبين حمارا؟!

– نعم سيدتي . . وأبحث عنه؟ فقد اختفى بعد مقتل صاحبه ، وأريد مركبة فضائية لو أعادوا تجربة الطيران .!

– صرخت بوجهي : مركبة فضائية . . مركبة فضائية ما هذا؟

قلت لها : وحذاءً مجنحًا . . ما هذا؟ استفزتني نظرات الضفدع المشوي ، فواصلت : لحماري فوائد لا تحصى ، سأحوله إلى مدرسة متجولة لتعليم الأيتام في الشوارع ، ما إن أجده سأقوم بكثيرٍ من المشاريع الوطنية الحقيقية ، سأجعله يحمل

لوازم البناء ليتم إصلاح هذه الحفريات القريبة من المشفى ، ثم إن جلده مصدر لبعض المضادات الحيوية ، اسمعي عليك أنتِ البحث عن أتانة لأن حليبها سيفيدك كثيرًا ، كليوباترا كانت تستحم به ، وله فوائد عظيمة لجمال النساء ودوام شبابهن . .

– نعم؟!

– طبعا سيدتي ، فنحن النساء نصرف كثيرًا على مساحيق التجميل خشية ظهور التجاعيد ، وحليب الإتان سيحل مشكلة هذه البثور التي في بشرتك!

لمحت الضفدع المشوي (تدون) شيئًا في ورقة ، لم أستطع قراءته . .

واصلت : ثم إنني أريد العودة إلى بيتي بلا مشاكل .!

ضحكت السيدة الضفدع ثانية : يعيدك إلى البيت؟!

– نعم أنا كل يوم أضيع في الطرقات! ماذا عنكِ هل تجدين بيتك بسهولة؟

سكتت فتشجعتُ أكثر : كما أنه يميز الصوت الذي يوقفه عن الصوت الذي يحثه على المسير ، معه سأكون مطمئنة جدًا على حسن النظام والقانون ، فأنا امرأة لا تحب الفوضى .

– أنت مجنونة . .

– لست مجنونة ، وأعدكم أن أهدي مشفاكم روث حماري إن وجدته ، فهو علاج ممتاز للحصى وللضرس المتآكل لتعالجوا به بعض مرضاكم هنا ، لمَ لا تبحثون عنه معي؟ سيكون عملاً

مهمًا ، صدقيني لقد سئمت؟

نقنقت السيدة الضفدع بوجهي : ما هذا الهراء؟ وفجأة هدأتْ كأنها تحاول إثارتي من جديد أو لعلها تسخر مني ، لكن ألا تعرفين أنه يثير ضجة كبيرة ، وإزعاجًا للمكان . .

– سيدتي إن أساء التصرف وسبب إزعاجًا بنهيقه سأضع حجرًا بذيله فيصمت . . أو أقطع عنه العلف خصوصًا هو يحب الخس ، أو أقرص أذنه كما فعل الكاتب المعروف المازني حين قرص أذن حمار ووبخه عندما أساء التصرف وخدش سيارته ، فلا تقلقي على النظام والقانون ، فالحمير يمكن تهذيبها ، في كل الأحوال إن حماري قد أحسن صاحبه المرحوم زكي تهذيبه .

يراقب صاحب الرداء الأبيض حواري مع الضفدع المشوي ، ويبتسم بهدوء ، شعرت بالراحة لهذه الحمامة الوديعة ، لقد ورثت من جدتي بسْعاد رحمها الله القدرة على قراءة الوجوه ، وتصنيفها إلى حيوانات ، تفاعل معي وبدا مقتنعًا فقاطعني :

– في الحقيقة لا بأس ، لك قدرة على الجدل المنطقي ، ولكن إذا كان الأمر كذلك لماذا شكّوا في قواك العقلية يا دكتورة؟!

– عدنا إلى المنطق دكتور . . وهنا مأزق عليك تحديد أي منطق بالضبط!

- حسنًا لنترك المنطق يا دكتورة! . .

شعرت بارتفاع في معنوياتي وهو يناديني بلقبي العلمي مرتين ، أخيرًا سأصل الضفة الأخرى ، لولا أن السيدة الضفدع المشوي قاطعته : لست واثقة ، هناك خلل في القضية؟

أجبتها بثقة استلمتها من نظرات الحمامة الوديعة : ولماذا تتخذين مني موقفًا؟ هل لأنني طالبت بمركبة فضائية للطيران بطريقتي الخاصة ، وأنتِ تفضلين الأحذية المجنحة مثلاً ، لم لا تتقبلين خياري؟!

- صاحت بوجهي : أنتِ مجنونة!

- سيدتي لستُ ملكة لتعاديني على مُلك ، ما بالك؟ شعوب بأكملها وقفت مع ملكاتها المسلمات ، خمس عشرة ملكة تجاهلتهن كتب التاريخ ، كانت لهن سلطة حقيقية ، قُدن الجيوش وسكّتْ بأسمائهن العملة ، وذكرن على المنابر ، وتلقّين الدعم من شعوبهن ، على الأقل في البداية ، لكنك تعاديننني وأنا لا أتصارع معك على مملكة ، عليك أن تفهميني أنتِ بالذات وتساعديني للعثور على حماري!

والتفتت نحو الرجل فسمعت الضفدع : إنها مجنونة ، ألا تعتقد أنه من الضروري إدخالها إلى المشفى ، إنها تتكلم أشياءً غير مترابطة ، فما علاقتنا بملكات الشعوب؟!

لاحظت ابتسامة الحمامة ، يبدو أنه يجد متعة في ذلك الجدل النسوي ، فتحمست للرد عليها :

– هل سمعت عن ست القضاة ، وست الكتبة ، وست العرب ، وست الوزراء كن قاضيات تميزن بالعدالة ، وحتى في بني إسرائيل نبية اسمها دبورة كانت تقوم بالقضاء ، وكانت معروفة أيضًا بالنزاهة ، فلم لا تحكمي عليّ أنت أيضًا بنزاهة مثلها؟

قاطعتني قائلة وهي تشير بكف يدها نحوي : واضح أنك تهذين . .

ارتفع نقيق الضفدع : ألن تدخلها المشفى؟ إنها بهذه الادعاءات تمثل خطرًا على بنيان المجتمع ، وقد تقوم بفعلة شاذة مثل هناء التي تصورنا أنها في كامل قواها العقلية ، وكل يوم تقوم بعمل مجنون جديد مع المريضة الأخرى أشجان داخل المشفى . .

كان الرجل هادئًا جدًا ، يراقب وجهي ، وكلماتي ، نظراته كانت أشبه بمن يفكر بعيدًا ، سكتَ بعض الوقت ، وهي ترمقني شزرًا ، وضع الرجل القلم بين أصابعه وأدار وجهه نحو الضفدع المشوي ، هذه المرة لم أسمع حديثهما ، بدا لي غير واضح ، ماذا عسى أن تقول الحمامة لضفدع مشوي؟ الضفدع ترعبني ، هل سأدخل بسببها مشفى الأمراض العقلية؟ هل سيمنحونني صعقة كهرباء؟ أفكاري بدت متذبذبة متقلبة ، مرتبكة ، وفجأة قطعت الحمامة الوديعة حلقة أفكاري وسلمتني أوراقي مبتسمة :

– دكتورة أمل شخصيًا لا أشك بقواك العقلية ، لست مجنونة لأنك واعية جدًا لما أنت فيه ، أنت امرأة تملكين استراتيجية في النظرة ، وإن كنت لا أفهم منطقك ، وقد كتبت هذا في المذكرة المرفقة بأوراقك ، تستطيعين حملها إلى رئيس قسمك في العمل ، وأتمنى أن يتحقق حلمك بالعثور على حمارك . . كانت الحمامة تهدل والضفدع المشوي تعبس بوجهي . .

رقصت الدنيا ملونة أمامي ، اتسعت ابتسامتي ، ما أجمل العدل ، انتصرت على الضفدع المشوي بعقلي ، لقد نصرتني حمامة وديعة ، نصرني رجل ، فهذا الرجل هو صاحب القرار ، أخيرًا . . . رسميًا . . . لست مجنونة . . سأتفرغ للبحث عن حماري . .

جمدت الكلمات على شفتي ، ولم أستطع النطق ، ترطب خدي بخيوط فرح تسيل من عينيّ ، لم أعرف كيف أشكره ، كم تحبين الحكايات نامي صغيرتي ، سأواصل لك حكاية الحمار الذهبي غدًا ، إنه يشبه حمارك الذي أضعتِه في الحديقة ، نامي صغيرتي ، صوت جدتي بسْعاد ، يغطي الليل ، غاصت كلمة الشكر في حنجرتي ، وعند وصولي إلى الباب سمعت هديل الحمامة :

– لا تنسي أن تضعي عليها الختم الخاص بالمشفى من الغرفة المجاورة وتسجيلها في مكتب الصادرة . .

وعندما فتحت الباب دخلت بضع ذبابات بطنين مزعج ، كأنهن جيش صغير استدرتُ نحوه مبتسمة : دكتور لو وجدت حماري سأجلبه هنا لينهق ، فمعروف أن نهيقه يصعق الذبابة التي قربه فتموت ، قلت لكم إنه عظيم يستطيع القيام بالكثير في بغداد! . . . .

ضج هو بالضحك . . . منحتُ ظهري للضفدع المشوي وخرجت . .

بقيت ضحكة ذلك الرجل ترافقني ، ولم أنتبه هل أذناه طويلتان أم قصيرتان؟ رجل نزيه عاقل مثله يستحق الحب حقًا ، أين أنت يا شروق ليرحمك الله ، كنت دائمة التغزل بضحكة حبيبك؟ عرفتِ العشق ، واكتفيت بنكهة حملتك إلى القبر . .

قضيت معه ليلة واحدة فقط ، ليلة تكفيني نكهة للعمر كله ، مازلت أحفظ مواقع أصابعه على جسدي ، كان كمن ينحت أو يرسم لوحة ، كنت في حال أشبه بغيبوبة ، صدقيني بقيت أيامًا لا أريد الاستحمام ، فقط كي لا تزول بصماته ، ولأبقيها أطول مدة ممكنة ، وإذا نمت احتضنت الثوب الذي ارتديته حين كنت معه ، ما زالت رائحته عالقة به ، وإذا افتقدته وجدته في جسدي ، هنا رسم لوحته ، جعلني أجمل امرأة في الكون ، لست أعرف كيف تجاوب جسدي معه ، كأننا نصفا دائرة إذا التقينا تكاملت ، لكنني عندما عرضت عليه الهرب والزواج بعد رفض والدي له لم يرد ، ثم أخبرته أنهم

سيزوجونني لابن عمي القروي ، مقابل أن يتزوج أخي أخته ، اختفى تمامًا ، لم أعد أملك إلاّ الخضوع ، واليوم كلما اقترب مني ذلك القروي رأيت وجه حبيبي وشممت عطرًا غاب عني ، فأتعمد وضع نفسي في حالة غيبوبة لا أفيق منها إلاّ وأنا أبكي حين ينهال علي ضربًا . . .

كم أفتقدك يا شروق ، رحمك الله . . .

ورقة

تعالي أيتها الصغيرة ، لا تخافي ، تعالي وامنحيني قبلة ، أنا مثل أمك ، تموت الحروف ، تشتعل النار ، مثل أمك . . . مثل أمك ، أرجوكِ دعيني أشم رائحتك ، ترتعب الصغيرة ، تصرخ تبكي : امرأة مجنونة ستسرقني . . .

وبين يديها عنوان المدرسة ، تدرس طفلتها في الابتدائية ، فانشرح قلب الأم ، أخيرًا سترى فلقة القمر ، بضعة منها رافقتها تسعة أشهر ، تجلس هناء على التراب ، كل يوم من الصباح حتى الظهيرة ، وتنتظر ، تكتفي بنظرة ، تراقب صغيرة ذات جدائل ، ثيابها أنيقة ، أمها ثرية ، والطفلة تكتب دار دور ، تبتهج هناء ، وجدتها ، قلبي يقول هي ، إنها تشبهني ، تحمل الرصعات نفسها والأنف نفسه ، ما أجملها ، أريد قبلة أيتها الصغيرة ، يقبل رجال الأمن ، ولا تفصح هناء عن السر ، خرجت من معمل النسيج ، ماذا سنفعل يا زوجي العزيز أقفلوا

المعمل؟ بعنا الثلاجة والمدفأة ، لم يبق لنا أثاث ، عليكِ تأجير قلبك ، أي قلب وهل القلوب تُستأجر؟ هل تقابلها قطعة رغيف حار؟ لا بأس من الإيجار ، لنصنع طفلاً ، إنهم يشترون الأطفال ، تحلم العاقر الثرية بطفل ، تعقلي يا هناء ، وصرخة امرأة ، لا . . . لا والجوع حاضر ، أراد الأمير قتله ، والإغراء عنيف ، خبز أبيض لا أسمر ، خبز خال من الديدان ، خالٍ من الحديد المبشور ، جميلة هناء قمر ، من فلقة الزمان ، عيناها شهلاوان ، أول الأنفاس بكاء ، أنثى في صالة الولادة ، يرسم القدر خطته ، الصغار جياع ، وثمن فلقة القمر بضعة أرغفة ، وشيء من السمن والدبس ، باعت وتسلمت الثمن ، الزمن يدور ، ويفصح الحنين الوجع ، من يبيع الأمومة؟

أحاطها رجال الأمن ، ركلوها ، سحلها المشتري سحلاً ، الطفلة ملك المشتري لا البائع ، كانت تعمل في معمل النسيج ، وسنوات عجاف ، منحتها صعقات كهرباء ، لا تنقطع ولا تنطفىء ، أرادت قبلة ، استلمتها من مشفى ابن رشد للأمراض العقلية ، تحلم هناء هناك ، ستعيد الطفلة لرحمها ، لتنكث بالصفقة ولن تبيع ، تسرق وسادة أشجان ، تلفها مع وسادتها ، أشجان تحتضن لعبتها ، وتغني فوق المسرح (لا صايرة ولا دايرة) ، تعود تبحث عن وسادتها ، تلف هناء الوسادتين تحت ثيابها ، تكورهما ككرة ، تنتفخ بطنها كبالون ، وتسير في رواق المشفى ، يدها تحت ظهرها ، سأنجب طفلة جميلة ستبقى

معي ، لن أبيع بعد اليوم ، لن أبيع ، أشجان لا تجد وسادتها ، تتأمل بطن هناء ، ولا تنطق ، إنها تتفهم الحكاية ، الحكاية ذاتها ، بأشكال متعددة ، تواصل الأخرى الدور ، وبعض التمثيل حقيقة ، وبعض الحقيقة تمثيل ، تتحرك الممثلة تسقط الوسادة ، تنحني أشجان لالتقاطها ، تهجم فوقها الأم : (دللول دللول . . وسبع بنيات قليلات) ترد عليها أشجان : (هس ابني ينام)!

وتتصارع السيدتان على وسادة ، يعلو الصراخ ، تتجمع المريضات في الرواق حولهما ، بعضهم يصفق ، بعضهم يضربهما بالأحذية من بعيد ، وسيدة تجمع نوى التمر في فمها ، تراقب وترسم اللوحة لا تتدخل في الصراع ، تضرب هناء رأسها في الأرض ، يسيل الدم منها ، تصرخ : أعيدوا ابنتي . . أعيدوا وسادتي . لن أبيع ، يقبل أحدهم يحملها لغرفة الكهرباء ، وتهرب أشجان حافية نحو الشارع ، تترك وسادتها لهناء ، وتسحب لعبتها الصغيرة وكارتونتها ، تجمع فيها مكبر صوت صغير ، وثوبًا مزركشًا باليًا ، وصورة واحدة لطفلين ، تقترب من (ساحة الخلاني) تتوسد كارتونتها ، ترمي إليها لهيب من بعيد بعقب سيجارة ، وتغادر الأخيرة باتجاه منطقة (الغدير) بصحبة علبتها الصغيرة والكلب أصيل ، وما زالت أخرى ترسم الحلم ، حيث ينام السر في اللوحة ، يمر عليهم رجل سمين ، كث اللحية ، يتوكأ على عصاه ، ويحمل عَلَمًا

وصرة بالية ، يغرد بأغنية خاصة ، يتوجه لينام في نفق ساحة التحرير ، وقبل أن ينام يفتح صرته يخرج منها قلم رصاص ودفترًا صغيرًا ، يبدأ بالكتابة والبكاء . .!

(١٨)

سأفتح هاتفي النقال اليوم ، هذه أوراقي الطبية ، ارتديت ثيابي المعتادة ، لم أتنكر كما كنت أفعل ، وضعت قبعة أم صابر على رأس لعبة ، أهدتها إليَّ جدتي بسْعاد رحمها الله كي أكفّ عن البكاء على حماري الذهبي ، الذي ضاع مني وأنا طفلة في حديقة الأمة ، رحم الله جدتي صاحبة حكاية الغول الذي التهم آذان الرجال ، كان جدي يجلب لها أدوية مضادة للزهايمر ، هل هناك أدوية مضادة للزهايمر؟!

تعطرت وتزينت ، مازال نعيق الغربان يتواصل في بغداد ، أين بابا نوئيل؟ اختفى فجأة ، لم أره منذ زمن ، ما الذي أصابه؟ أتراه مريضًا؟ أم تاه في الطريق؟ أي طريق؟ وهل له هو طريق؟! . . كل الطرق طريقه ، وكل الشوارع بيته ، يالي من غبية ، أين ذهب بابا نوئيل ، ما الذي حدث له؟! . .

خرجت أحمل براءتي ، لأعود بها للدكتور فتح الله خميس ، وصلت مقر عملي وبين يدي أوراقي ، دخلت غرفة التدريسيات ، وجدت الزميلات والزملاء مجتمعين ، وما إن لمحوني حتى صاحوا جميعًا بصوت واحد :

– أمل؟ أين كنتِ لم لا تردين على اتصالاتنا؟ ماذا حصل معك؟

رفعت أوراقي بيدي بنشوة المنتصر : آليت ألاّ أظهر إلاّ وأنا أثبت براءتي من الجنون ، لقد تصورتم أنني مجنونة لأنني أحببت حمارًا ، ها هي أوراقي الطبية تفيد بتكامل قواي العقلية . . .

اقتربت مني ليلى وعانقتني : حقيقة قلقت عليك ، أكثر من مرة ذهبت إلى بيتك ولم أجدكِ؟

– كانت رحلة شاقة يا ليلى .

– تعالي نحن في حفل وداع فهيمة ، لقد أنهت أوراقها ، ستهاجر مع وطن للالتحاق بزوجها هناك .

نظرت حول الجمع الغفير ، فهيمة في الزاوية ، عيونها تتلألأ ، أقبلت عليها وتعانقنا :

– عزيزتي فهيمة اعذريني انشغلت بقضيتي الخاصة ، لم أستطع التواصل معك ، لا أعرف ماذا أقول لك؟ في كل الأحوال أخيرًا ستطيرين بطريقتك الخاصة؟

لم تجب وهي تقبلني ، شعرت بحزنها وهي تضغط على يدي . .

ارتفع صوت الدكتور فتح الله خميس ، رئيس القسم :

– يا زملاء لابد أن نحتفل أيضًا بعودة الدكتورة أمل إلينا ، فهي جادّة بعملها ، وكل ما حدث على سبيل الاحتياط

التربوي ، كي لا يتهمها أحد بسوء ، فإذا أعلنت حبها للحمار لا يعني هذا جنونها ، أنا أولادي يحبون القطط!

فتحتُ حدقة عيني ، وقلتُ له وأنا أمد له أوراقي الطبية : شكرًا لثقتك العالية يا أستاذ ، وفي كل الأحوال هذه أوراقي ، والتقرير الطبي مرفق معها ، كما طلبت مني . .

تسلم الأوراق من يدي ، رفع بصره نحوي ، ثم اخفضه نحو الورق ، مد يديه بسرعة ، ومزق كل الأوراق إلى نصفين . . تطايرت الأوراق الممزقة في الغرفة . .

فوجئت . . ذهلت . . . . كأنه مزق كل أوراق السرد التي قمت بها ، ماذا ألم تكن صالحة؟ ما جدوى كل هذا الطريق إذن ، سألته بلهجة المستغرب : لم مزقتها يا أستاذ؟!

اتسعت ابتسامته الخبيثة : كانت هناك ضرورة ، والآن انتفت ، أرجو أن تقدري الوضع العام في البلاد ، واطمئني لن يعود الإعلام لذكرك فقد نسي الناس!

– نسي الناس ماذا يا أستاذ؟!

تقدم من الزميلة فهيمة وصافحها ، وأنا في حالة انعدام توازن ، أدار ظهره لي وخرج!

انحنيت أجمع الأوراق الممزقة من الأرض ، لم تكن بي رغبة للبكاء ، ولم تعد لفرحة براءتي أي قيمة ، لا أفهم ما يحدث ، وبأي منطق يفكرون؟ هل كنت لعبة يلعبون بها ، وعندما تفقد صلاحيتها يلتفتون بحثًا عن لعبة أخرى لغايات معينة؟! . . .

بدأ الزملاء واحدًا تلو الآخر يودعون فهيمة ، لاحظت تجاهل الدكتور مصطفى لي فاستغربت ، حتى خرجوا جميعهم ، وبقينا نحن الصديقات ، أنا وفهيمة وليلى ، وصورة المرحومة شروق على الجدار . .

جلسنا حول المائدة المستديرة وسط الغرفة ، وفجأة سمعنا دويًا قويًا ، بدا بعيدًا لكنه مسموع وواضح ، لم تعلق عليه أيّ منا ، قالت فهيمة : سأفتقدكن يا صديقاتي ، وبكت . .

– لا تبكي يا فهيمة لا تبكي . . سنتواصل بالتأكيد .

– يا ليلى أفكر بوطن كيف ستنشأ في بلاد غريبة عنها في كل شيء؟

كنت صامتة ، فكرت في بغداد حينها ، لكل مدينة شفرتها الخاصة ، سر تفكيكها في قلوب إناثها ، ما زالت الشفرات تواصل بثها ولا تنقطع ، لكل زمان وسائله بحفر هذه الشفرات في صخرة الكتاب الكبير لتاريخ المدن ، فإن أردت معرفة شفرة مدينة ، انظر مباشرة نحو الملعب الرئيس للحدث ، فمن ينظر من البعيد عبر نافذة ، ليس كمن يقف ويواجه الشفرة مباشرة ، هلا كسرتم الزجاجَ الفاصل ، هلا حاولتم الحياة في قلب الحدث ، هلا تركتم مثالياتكم ، هلا تركتم أحلامكم الرومانسية ، أشياء غريبة تحصل ، لا أقوى على الصمت ، أو شرحها ، ولم أجد حماري بعد . . حماري الذهبي الذي فقدته وأنا صغيرة ، هذا العالم ظالمٌ شديد القسوة ولا يسير على

مزاجي ، لست متمردة لكنه كسولٌ أكثر مما يجب . . تلك هي المعضلة!

سحبتني ليلى من أفكاري : وأنت يا أمل لقد أخطأت كثيرًا حين اختفيت عنا ، لم وضعتِ نفسك في زاوية وحيدة؟

– وهل كنتما ستساعداني وتؤمنان بقضية حماري؟

– كان عليك الإعلان عما تفكرين به ، لنحاول فهمك ، فما دمت وحدك ستكونين ضعيفة ، تعلمي في اتحادنا قوة ، بل إنك لم تشاركي معنا في المظاهرات التي قمنا بها ضد مشروعهم المزعوم للطيران؟ أنتِ التي تخليتِ عنا . .

– كنت هناك وشاركت عندما جاءت نسوة أخريات وقمن بشتمكن ، فغادرتكن لشدة التدافع والازدحام يومها ، وفقدت هويتي الأصلية أيضًا ، لكنني غادرت بسرعة للبحث عن حماري . .

قاطعتني فهيمة مبتسمة : ثقي يا أمل لو علمت بقصة حمارك لبحثت عنه معك ، لنمنح وطن فرصة المتعة وهي على ظهره ، لقد كبرت الآن ولضحكتها قهقهة طويلة ، صمتت قليلاً ثم واصلت وهي تضحك . . . أتخيل منظر وطن تبكي وهي فوق حمار . .

– أنتِ يا فهيمة كنت ستبحثين عنه؟! أنت التي تتكلمين دومًا عن المنطق!

– نعم كنت استمعت إليكِ ، إنهم يصنعون منطقًا خاصًا ،

وعلينا صناعة المنطق المضاد ، عندما تقتضي الضرورة .

– فهيمة . . . اشتقت لصغيرتك الجميلة . . أعدك سأبقى أبحث عنه ، سنبقى ننتظر عودتك ، أو على الأقل زيارتك ، وبكيت . .

– دعيني أتذكر وجهك ضاحكًا وسأنتظر أخبار حمارك . .

قاطعتنا ليلى : أعدك سأفكر بالكيفية التي أساعدك بها للعثور على حمارك . .

عدت لدائرتي من حيث بدأت ، وفكرت بخطة بحث جديدة عن حماري ، لكن للحياة أقدارًا غريبةً ، ففي يوم عثرت عليه ، نعم أخيرًا عثرت عليه ، عندما سمعت نهيقه أمام باب بيتي ، وقبل أن أقلده قلادة جميلة ، أقبلت نحوي الخاتون وقالت :

أيتها العاشقة الفريدة مازالت قيثارة ما قبل التاريخ تتنفس ، شبعاد غادرت ، شبعاد حضرت ، قالوا شبعاد الجميلة حزينة ، من يعرف تفاصيل قصتها؟ كيف يهملها التاريخ؟ ولِمَ تجاوزها السرد؟ هل خرجت شبعاد عن القطيع؟ وحدها القيثارة تعرف ، تتناسخ هي وأحزانها كل يوم ، وتواصل عزفها الجميل ، لكن أين القيثارة؟ . .هل اختفت من المتحف؟ ما الذي حدث في المتحف؟! أعيدوا القيثارة ، لعلّنا نفهم لحن الملكة شبعاد ، وصوتٌ لا يتجاوز الفكرة ، الفكرة حيث نغمة الناي ، وأوتار العود ، ويعود العزف كلما

غزت لكش مدينة أوروك أو كيش أو العكس الجديد ، وتبقى المخلوقات تدب على الأرض دبيبًا ، تهيم عشقا بظلها . .

راقبتها تدور في دائرة ببطن دائرة أخرى ، كانت ثلاث دوائر متداخلة بعضها ببعض ، كمن يرقص بشكل مغزلي ، حتى اختفت ، بقيت بنشوة جمال دوائرها وهي ترقص في مخيلتي عندما أفقت .

وكان لقاءً حارًا ، انتظرني المسكين قرب باب بيتي ، يا لذاكرته العظيمة ، عاد لي بعدما أضنته الأشواق ، هرعت إليه ، بكيت من فرحتي ، زقزق قلبي ، صرت أقفز على الأرض كما الأطفال ، أحطت رقبته بذراعي ، ألبسته طوقًا من الياسمين ، بدأت عيناه تعلنان حبه الأبدي ، أحنى رأسه من ثقل مشاعره ، ها قد عثرتُ عليه أخيرًا بعد كل معاناتي ، أنا الملكة من مثلي؟

سأصحبه في شوارع بغداد ، ستغار النساء مني ، عندما يكتشفن مزاياه النادرة ، سيحاولن في البداية إفساد العلاقة التي تربطني به ، لكنهن سيخضعن لمنطقي ، ستقول إحداهن للأخرى :

- إنها محقة في حبه .

وبين ليلة وضحاها ستتخلى نساء العراق عن حب الرجال ، ستتخلى كل حبيبة عن حبيبها ، وكل زوجة عن زوجها ، سيكون إضرابًا عامًا عن حبهم ، وستبحث كل امرأة

عن حمارها الخاص ، سأساعدهن في عملية البحث ، بعد الخبرة التي اكتسبتها ، ستحدث ضجة ، سيخرج بعضهم بمظاهرات كبيرة تطالبنا بالكف عن هذا الجنون ، سيشعر الرجال بالغيرة العظيمة ، سيموت بعضهم غيظًا وقهرًا ، وستزداد أمراض ضغط الدم والقلب بينهم ، سيرفع بعضهم ضدنا دعاوى قضائية في المحكمة الاتحادية ، سيطالب آخرون بإضافة مادة دستورية بحقوق الرجال في حب النساء لهم ، كما سيطلق بعضهم الفتاوى التي تطالبنا بالتمسك برجالنا ، سأقود أنا هذا الإضراب في حركة عشقية مستحدثة ، سأقوم بإلقاء خطبة عصماء مختصرة مفيدة ، سأقول فيها :

(يا أصحاب القرار ، إن كنتم تطالبوننا بالاستمرار في حبكم ، والإخلاص لكم ، عليكم إذن إطالة آذانكم ، لقد سئمنا منكم ، مضت أعوام طويلة ولم تجدوا دواءً شافيًا لما فعله الغول بآذانكم ، وما زالت روحه تكبلكم بعد اندثاره ، عليكم تحرير أرواحكم منه أولاً ، كي لا تصنعوا غيلانًا جديدة ، يجب عليكم الالتفات لوضع خطط حقيقة للإعمار ، لا لنهب الأموال ، كفوا عن إضاعة الوقت في لعب كرة القدم ، وتناول رؤوس الخرفان ، انظروا ماذا أنجزتم؟ لقد كسرتم الذراع اليسرى لشهرزاد ، ولا نعرف ماذا فعلتم بكهرمانة؟ وفشلتم في المشروع الذي أعددتموه لطيراننا باتجاه القمر ، تارة تستخدمون ريش الدجاج ، وتارة أخرى ريش الطيور ، لصناعة الأحذية المجنحة ،

ولم تهتموا بحاجتي الخاصة للطيران بمركبة فضائية ، ولم تبالوا برفض زميلاتي الأخريات لمشروعكم هذا ، لم تسألوا أيًا منا عن طريقتها المفضلة في الطيران ، بسببكم شتمتْ النساء بعضهن بعضًا ، وضربتْ إحداهن الأخرى ، وأضعتُ هويتي الأصلية ، لقد تركتم السُرّاق يسرقون قيثارة شبعاد ، ومكتبة الملوك العظام لبابل القديمة ، ولم تبالوا بمقتل المرحوم زكي ، ولم تفكروا بمصير زوجته وصغاره المرضى ، هذه نتائج أفعالكم ، ونحن نقلق من إنجاب أولاد آذانهم مثل آذانكم ، وأفعالهم مثل أفعالكم ، عليكم إيجاد الحل لهشاشتكم ، عليكم تعديل الأوضاع كافة ، ويجب عليكم تنفيذ ما نريد ، نحن الأكثرية ، وأنتم الأقلية ، إذا فعلتم هذا ربما نعود لحبكم) . .

ستكون خطبة مؤثرة ، سيضج الإعلام ، وستنقلها الفضائيات ، وستتناولها بالدراسة والتحليل المنظمات الخاصة بحقوق الرجال ، سيحاول بعضهم الاتصال بالأمم المتحدة لفتح قناة للحوار معنا ، فلا شيء يزلزلهم كما يزلزلهم إضراب النساء عن حبهم ، هكذا هم ، وهكذا نحن سنرفض أي مساومة أو ابتزاز ، سيخضعون حتمًا ، ستدهشهم قوتنا ووحدتنا ، وسيتزاحمون على عيادات أطباء الآذان بحثًا عن علاج لآذانهم القصيرة ، سيكفون عن لعب كرة القدم قرب شهرزاد وكهرمانة ، ساعتها فقط سندخل التاريخ الحقيقي ونفرض عليهم منطقنا الخاص ومن دون أية تخصيصات مالية من الميزانية . .! . .

. . . . . واستيقظت من حلم اليقظة على أصوات مدوية تصلني من الخارج ، كأن المسافة الفاصلة بيني وبين حلمي هي المسافة بين بيوت الصفيح والعالم الخارجي ، ويواصل المذيع في التلفاز نشرته الإخبارية المعتادة ، ولم يعلن خبر براءتي من الجنون ، بل تجاهل الأرقام الجديدة ، كانت أخبارًا عن مؤتمرات للاهتمام بصحة الطفل ، وندوات لدعم الأيتام والأرامل ، مهرجانات ثقافية كثيرة وفيضانات تكتسح العراق ، صراخ كثير لم أفهم منه شيئًا! . .واختلط صوت المذيع مع أفكاري ليعلن عن محاولة اغتيال للطيار السابق في الجيش العراقي فريق أول ركن (مطرود منسي الصناع) ، بعد تعرضه لثلاث إطلاقات نارية من كاتم صوت ، ويتابع المذيع :

هذا وقد عثر فاعل خير عليه وهو مصاب في الطريق ، فنقله إلى مشفى اليرموك ، علمًا أنه فقد عائلته عام ٢٠٠٣ في بغداد ، وظل يدور في الطرقات ، قالوا إنه مصاب بلوثة عقلية ، . . وفجاة ظهر لي وجهه . .

صعقت . . . خرجت بسرعة ، أهيم على وجهي ، تبلل دموعي ثيابي ، كلنا عشاق ، ولكل منا حكاية تصب في المجرى الرئيس لعشق عراقي فسيفسائي الجوهر . . .

(الراوية تبحث عن نهاية ، أمل التي أحبت حمارًا ، أنهكها البحث ، والتجوال ، تفكر بتعب القارىء وهو يبحث معها)!

ورقة

تنتظر هيلة في عالم بعيد ، لهجته غريبة ، تنتظر أن يحين المساء ، ليقبل بضعة رجال ، وهي تتجمل ، تعلمت فنون الزينة ، تعلمت الكثير ، أجادت الإغراء بالصوت والوجه والحركة ، تعلمت كل الفنون المطلوبة منها ، هي مجرد عاملة ، وصفعة على وجهها ، صفعة كبيرة ، أين بقية المال أيتها العاهرة؟ . . هذا كله سيدي كله ، ثم صفعات أخرى ، يفتح الضخم عينيه ، يحرك كرشه بقهقهة عالية : تعلمي ألاّ تكذبي ، سأتركك اليوم ، لكن في الغد عليك استقبال المزيد منهم ، صارت لك سمعة هنا ، فأنت شهية ومثيرة وصغيرة ، هل فهمتِ؟ يعلو صوت صاخب بالغناء في الخارج ، يضج المكان ، وغرفتها الصغيرة ترتج من الضوضاء ، وصوت ضعيف هامس : نعم نعم سيدي ، يخرج . . تبكي هيلة . . فاضل كيف فعلتَ هذا بي؟ . . . تبًا لك ، تغسل وجهها وتتوضأ ثم تصلي فتواصل بكاءها وهي تسجد : إلهي ساعدني لأسترد حقي! .

ثم تقف لتعدل هيأتها في المرآة الجديدة ، يبرز لها وجه عجوز ، عجوز تضع أصباغًا ولا ألوان في الروح ، تتساءل ترى كم وجهًا قادمًا سيعبر هذه المرآة ، ألا تمل المرآة من الوجوه ، تمسح دموعها ، تحاول الابتسام ، تتأمل هويتها الجديدة ، تحب اسمها القديم ، لا اسم بطة ، تسأل نفسها أين ذهبت هيلة؟ وهل

ستعود لها يومًا؟ تضع الهوية في الحقيبة ، لا بأس من التدريب ، فاضل هو الفاجر ولست أنا ، لن أفعل مثلك يا دموع ، سأتحمل لأعيش ، لأسترد حقنا ، سأنتقم لكلينا ، تخرج للقاعة ، بثوبها نصف العاري ، ترقص ، وبعض الرقصات أنين ، تفتح قناني الخمر للشاربين ، يمد أحدهم يده على جسدها ، ويهمس آخر موعدنا الليلة ، تهز رأسها بالإيجاب ، يقبل رجل منتفخ الكرش قصير القامة ، يجلس معهم حول الطاولة ، بصوت عالٍ ينطق نكتة خليعة ، تضحك وملء أيامها دموع ، تهمس في أذن ذلك الرجل : سأطلب منك طلبًا صعبًا بعض الشيء ، أتمنى أن تنفذه لأجلي عندما تسافر إلى العراق .

يهمس لها : الصعب يحلو لك يا بطة ، بالتأكيد أيتها الجميلة ، طلباتك أوامر ، مهما كانت ، عليك الدفع مقدمًا ولاحقًا . . تبتسم ، ترفع رأسها ، تشعل سيجارتها ، وتحاول أن تتذكر أين وضعت هويتها القديمة؟ ويلتمع بريق غريب في عينيها . . . .

وفي ظهيرة تموز ، أم مظلوم في عالم بعيد ، تنشغل بخلط الإسمنت مع الرمل بمهارة الخبير ، يسيل العرق من جبينها ، تعقد أطراف عباءتها على خصرها ، تأخذ جرعة ماء من القنينة التي قربها ، تجمع بعض الحجارة فوق بعضها ، لتجلس عليها ، فترى وجهًا تحبه تبدو ملامحه فوق الحجارة :

No, please stay with us(*)

تضحك والدموع تملأ وجهها : لن أنساك لطيفة ، لن أنسى لغتك هذه ، سيتعلم ابني ليترجم لي كلامك ، أنت الحلاوة في وسط هذا الحنظل . . سأعود لزيارتكم دائمًا ، ترد عليها لطيفة :

I love you(**)

وفجأة تشير لطيفة بكف يدها ، وتتحرك نحو كيس قربها ، تمد يدها فيه ، وتقدم صابونة لأم مظلوم . . تضحك أم مظلوم وتقبلها :

– يا حبيبتي أشكرك كثيرًا على هذه الهدية ، لكن لا تكرري فعلتك الشنعاء تلك ، لا تؤذي نفسك ، ولا ترمي الحجارة على أحد . .

تنعشها الذكرى وهي تودع لطيفة ، تمد يدها في جيبها ، لتحسب كم جمعت من المال ، لعلها تعود لبغداد لتحل مشكلة ولديها ، وتزور صديقتيها ، يقطع حبل خططها صوت مظلوم من بعيد : أمي أمي لقد نجحت في الامتحان . .

تبتسم أم مظلوم بغصة ، غصة تدور في الحكاية ، وتراقب ولدها وهو يقبل نحوها . .

(*) لا . . ابقي معنا أرجوكِ .

(**) أحبك .

(١٩)

كـــان ممددًا على الفــراش ، يغطي صـــدره شـــاش مـــبـــقع بالأحـمر ، تتـدلى لحيتـه البـيـضاء الكثـة على صـدره ، يرتدي دشداشته التي أهديتها له في العيد ، بدت ممزقة ، ملطخة ببقع حُمْر داكنة ، عيناه غائرتان ، يظللهما سواد كثيف ، وأنبوبة من البـلاستـيك الرفـيع في نهـايتـهـا إبرة مـغـروسـة بيـده اليـمنى ، موصـولة بسـائل شـفـاف في كيس مـعلق على حـمالة حـديد ، وأنبـوبة أخـرى تخـرج من صـدره ، ويخـرج منهـا سـائل أحـمـر مصفر ، جمدت في مكاني عندما أبصرته ، فهمت ، ستكون المرة الأخـيـــرة ، لمست يده وبهـــمس قلت له : بابا نوئيل كم بحثت عنك؟

توهمت أنه منحني شـبح ابتـســامـة غـرقت بدمـوعـه ، تسـارعت أنفاسـه وصوت شـاب خلفي : سيـدتـي هل أنت من أقربائه؟

كنت أبتـسم وأبكي في اللحظة نفـسـهـا ، وأنا أنظر نحـو النائم أمامي : ماذا . . . لا . . لا . . . . . . نعم . .

كان خائر القوى ، ينظر بعينين متعبتين شبه مفتوحتين ،

شعرت بإبهامه يضغط على كفي ، يحاول أن يرفع سبابته اليسرى ليشير إلى المعلق على زاوية فراشه ، فلا يقوى على رفعه ليهوي إصبعه ، سمعت صوتًا ضعيفًا :

– لا . .لا . . ت . . ت ر . .كيه . . . وصمت . . تصاعدت أنفاسه هبطت ، تصاعدت ، هبطت وبنفس ضعيف واصل كي . . . كي . . . . . .

وانقطع الصوت ، تحركت رقبته صعودًا وهبوطًا ، خلت أنها ستنفصل عن جسده ، رغبت بإمساكها وتثبيتها كي لا تتحرك ، كان يتصارع مع ما لا أبصره ، وأنا أبكي بصمت ، من يوقف هذه الرقبة عن الارتفاع والهبوط ، إلهي أوقف هذه الرقبة ، حتى خرجت رغوة سميكة صفراء اللون من فمه ، تباطأت رقبته شيئًا فشيئًا ، حتى توقفت ، لم أعد أحتمل ، مد الرجل الواقف قربي كف يده وأسبل عينيه . . . ردد بهدوء : لا اله إلاّ الله ، البقاء لله سيدتي . . .

تتداخل أصوات خلفي لا أستوعبها ، من سيدفنه؟ لا بأس ستدفنه المنظمة الخيرية ، وقفت حائرة تائهة ، فما الذي يجب عليّ فعله؟ ومن دون شعور رفعت يدي اليسرى نحو أذني ، وضربت بقدمي الأرض ، ورددت أغنيته التي يحبها ، رغم أنني لم أستسغها يومًا :

(قامت قواتنا الجوية في الساعة(١٣) من هذا اليوم (٢٢) أيلول (١٩٨٠) بالتعرض للقواعد والمطارات العسكرية في

عـمق أراضي العـدو وألحـقت أضـرارًا بالغـة في الأهداف العسكرية أما وحداتنا الصاروخية / أرض- أرض/ فقد حققت إصابات دقيقة ، وألحقت أضرارًا فادحة بقواعد التموين الرئيسة . . . . ثم انتحرت فتاة . . وليخسأ الخاسئون)

ألقيت عليه النظرة الأخيرة ، انحنيت وقبلت رأسه ، وحملت العلم الذي يرفرف قربه ، ماذا أردت القول يا بابا نوئيل؟ أية كلمة غصت بها روحك ، همست له : اطمئن لن أتركه ، قرأت الفاتحة ثم قلبت شفتي ، بكيت كما يبكي الأطفال ، عندما يفقدون ألعابهم . . وقبل أن أغادر منحني أحدهم صرته وقال لي هذا كل ما كان معه . . .

وجدتني أسير ببطء ، أحمل صرة بابا نوئيل بيد والعلم باليد الأخرى ، لم ألحظ أن خطواتي كانت تشبه مسيرة الجيش ، حتى سمعتُ رجلاً يسخر مني : ما بالك تمشين كما الجيش!

تحركت باتجاه بيتي ، اقتربت من محلات فاضل للأدوات الكهربائية ، وإذا بطفل يركض نحوي :

- خالتي خالتي أحبك .

التفتّ نحوه والدموع ما زالت بعينيّ ، كنت أشبه بمن هو تحت التخدير . . .

- نعم خالتي أنا أحب كل من يحمل العلم العراقي ، أنت جميلة جدًا ، هذه أختي علمتها أن تحمل العلم انظري .

وجدت أمامي طفلين أنيقين مهذبين ، تعبق منهما روائح لأحلام الطفولة ، كانا يحملان الأعلام العراقية على مدى تاريخ العراق ، حتى خرج من المحل رجل وسيدة أنيقة ، التفت الرجل نحوي :

– معذرة سيدتي ابني مجنون بعشق العلم العراقي . . .

حركت رأسي ولم أستطع التعليق ، فالكلمات غاصت في روحي ، ضحكت تلك السيدة اللطيفة وهي تنادي على ولديها . .

وفتحت صرة بابا نوئيل ، كانت بالية وملطخة بالدماء والأوساخ ، وجدت فيها قلم رصاص ، وصورة قديمة لعائلة ، يرتدي الرجل زيًا عسكريًا ، وتجلس قربه سيدة أنيقة تحتضن طفلة رضيعة ، وحولهما أربع فتيات صغيرات أخريات ، بدت في الصورة بعض البالونات وكعكة على المائدة ، وصورة أخرى ملونة للرجل نفسه مع رجل آخر عيناه زرقاوان ويرتدي الزي العسكري أيضًا ، وصور أخرى لفتيات بمراحل عمرية مختلفة ، ووجدت في الصرة أيضًا لعبة أطفال بالية ، وزجاجة حليب للرضاعة تفوح منها رائحة عفن ، وسند ملكية بيت باسم (مطرود منسي الصناع) ، وفردة حذاء نسائي عتيق بكعب عالٍ ، وأوراقًا في ظرف تقطعت حوافه ، في داخله شهادة ماجستير علوم عسكرية من كلية الأركان العراقية ، وشهادة

أخرى من أكاديمية ساند هيرست العسكرية الملكية البريطانية ، وما أذهلني أكثر وجود دفتر صغير في قلبه خارطة للعراق ملفوفة بعناية كبيرة بقماش ، فكانت تلك الخارطة الشيء الوحيد الذي لم يلطخه الدم في الصرة ، فتحت الدفتر لم أجد سوى عبارة واحدة مكتوبة بالقلم الرصاص تتكرر في كل صفحات الدفتر ، ولم تكن إلاّ عبارة : تف . . . بول بريمر!

وبقيت أسأل هل حقًا كان بابا نوئيل معتوهًا؟!

ومرت أيام بطيئة ، كنت أواصل فيها البحث عن حماري ، فتجولت كثيرًا في الباب الشرقي ومنطقة الفضل والميدان ومناطق أخرى كثيرة في بغداد ، حتى يئست ، كأن الأمر أصبح لغزًا لي وتحديًا ، وذات يوم طرقت بابي ليلى : أهلاً بك يا ليلى حسنًا فعلتِ ، شعرت بالسأم والملل ، تفضلي بالجلوس . .

قالت وهي تهم بالدخول : إليك آخر خبر من مصدر موثوق لم يعلن بعد . .

- يا ليلى يبدو لي أنك مندوب وكالة أنباء رويترز؟

جلست أمامي ، ثم قالت في كل هدوء : اسمعي تم ترشيح الدكتور فتح الله خميس لمنصب كبير في الدولة ، تقديرًا لجهوده في مشروع طيران النساء .!

- نعم . . ماذا تقولين؟

- هذا ما حصل عزيزتي . .

ضحكت بطريقة غريبة ، ولم أعرف التوقف ، حتى بادرتني ليلى بالسؤال : ماذا عن حمارك ألم تجديه بعد؟

تجهم وجهي وأنا أتذكر : كلا . . كلا تعبت يا ليلى كثيرًا .

– اسمعي يا أمل فكرت بمخرج لقصتك مع الحمار وربما وجدتها . . أنا جادة . اسمعي . . إنك بحاجة لفريق عمل متخصص حقيقي . .

– ماذا تقصدين بفريق عمل؟ كيف؟

– عليك كتابة حكايتك . . اكتبي كل ما حصل معك ، ابدئي من حكاية طيف الخاتون ، أما زالت تأتيك في المنام كما أخبرتني؟

– كلا لقد انقطعت عني منذ مدة ، كأن مهمتها انتهت . .

– أيضًا لديك الملف الذي جلبه لك المرحوم زكي ، ألم تقولي إنه يضم حكايات ، صدقيني سيكون ذلك ممتعًا ، ولا تنسي حكاياتنا نحن صديقاتك .

– لا . .لا يا ليلى أية رواية تتكلمين عنها ، إنها مغامرة!

– لا بد من المغامرات أحيانًا يا عزيزتي ، فعباس بن فرناس عندما طار للمرة الأولى كانت مغامرة .

– ها نحن عدنا للطيران ، أرجوك انسي موضوع الرواية حاليًا ، يجب أن نجد نهاية مختلفة ، نهاية تليق بحجم الحدث! . .

وخيم صمت ثقيل ، قطعه رنين هاتفي النقال ، كان الرقم خاصًا :

– السيدة أمل .

– نعم . . . تفضل .

– أنا مجبل ، من طرف المنظمة الدولية التي تهتم بشؤون الحمير ، إنهم أعطوني رقم هاتفك وطلبوا مني الاتصال بك .

– نعم . . . . تذكرت تلك المنظمة .

– لقد اشتروا منا كل الحمير التي جمعناها ، دفعوا مبالغ طائلة . .

– اشتروا الحمير؟! ومن أنتم؟

– نحن مجموعة من العاطلين عن العمل ، قررنا أن نعمل على جمع الحمير الضالة لذبحها ، وبيع لحمها لبعض الجزارين ، في كل الأحوال لحومها أرخص للفقراء ، وعندما جاءتنا تلك المنظمة قام أعضاؤها بشراء الحمير منا ، ودفعوا لنا مبالغ كبيرة لأنهم يعملون على إنقاذ الحمير العراقية من التفخيخ أو الذبح ، بالتأكيد سمعتِ أنت عن ظاهرة استغلالهم في العمليات الإرهابية ، ثم طلبوا منا الاتصال بك ، لو عثرنا على حمار أبيض ناصع البياض .

– ماذا؟ مااااذا؟! لماذا؟ وهل . . . .

– لا لا تتعجلي سيدتي . . كل الذين ذبحناهم كانوا من الحمير داكنة اللون .

- نعم!!

- وعثرنا قبل مدة على حمار أبيض ، كنا نحاول العناية به كي يسمن لنذبحه لاحقًا ، لأننا أضعنا رقم هاتفكِ . .

- أرجوك لا . . لا . . سأشتريه . .

- مهلاً دعيني أكمل لك ، لكنني عثرت على الورقة التي دونت فيها رقم هاتفك مصادفة ، أخبرتك أننا بذلنا كل جهدنا للاهتمام بحمارك ، هل لديك مزرعة سيدتي وهرب منها؟!

- مزرعة نعم . .لا لا . . . رجاءً . .أعطني العنوان سوف أحضر إليكم بسرعة .

- سيدتي اعتنينا كثيرًا بحمارك ، كان هزيلاً جدًا ، ورفض تناول العلف ، رغم أننا جلبنا له أنواعًا ممتازة من العلف ، بدا مهذبًا ومختلفًا عمّا عرفناه من الحمير ، حزنّا عليه كثيرًا ، ولشعورنا أنه أمانة حتى يعود لصاحبه ، حرصنا على جلب طبيب بيطري خاص له ، لكنه كان يبكي دائمًا ، تصورنا أنه يخاف الذبح ، قال لنا الطبيب إنه يعاني من كآبة حادة ، ولم نعرف لماذا يضرب عن الطعام؟ هل تعرفين لماذا؟! . .

- أعطني العنوان ، أعرف علاجه ، لأنني أعرف طباعه . .

- سيدتي يؤسفني أن أبلغك أنه لشدة هزاله وإصراره على الإضراب عن الطعام مات اليوم ، نستطيع تدبير حمار آخر لو رغبتِ . .

- مااااذا ؟ مات . . . مات . . .

سقط مني هاتفي النقال ، ولم أعد أسمع بقية كلامه ، هذه المرة لم تسقط مني دمعة ، كانت ليلى تصغي للحديث الدائر ، تنظر في وجهي وبلا وعي قلت :

نعم . . سأكتب يا ليلى وسأقول . . . .سأقول . . . أحببتُ حمارًا . .

العزيزة دكتورة أمل . .

قـرأت روايتك (أحـبـبتُ حـمـارًا) ، أشكرك لنشـرك للملف ، لقد فقدته قبل الانتهاء منه ، ولأنّي لا أجيد السرد كنت سأسلمـه إلى أية كاتبة لها غرفتها الخاصة ، لم يخطر ببالي أنه سقط قرب بسطة خضار المرحوم زكي ، وأزف لك بُشـرى حـمـاره لم يمتْ ، رأيتـه بالأمس يدور حـول حـديقـة الأمـة ، عليك تقـبل كل مـفـاجـآت الحيـاة ، لا تسـتـغـربي شيئًا! . . .

ولك عميق شكري وتقديري . .

الخاتون

الكاتبة في سطور

- رغد السهيل .
- مواليد بغداد- العراق .
- دكتوراه في علم المناعة / الأحياء المجهرية .
- عضو هيئة تدريسية كأستاذ مساعد في كلية العلوم/ جامعة بغداد .
- عضو اتحاد الأدباء والكتاب في العراق .
- عضو في جمعية الميكروبيولوجيين العراقية .
- عضو مشارك في النقابة الوطنية للصحفيين العراقيين .
- عضو في جمعية الثقافة للجميع .

- نشرت العديد من المقالات والقصص والتحقيقات الصحفية في الصحف العراقية والعربية .
- ضحكة الخاتون مجموعتها القصصية الأولى ، دار التكوين ، دمشق ، ٢٠١١ .
- سايكو بغداد مجموعتها القصصية الثانية ، دار الأدهم القاهرة ، ٢٠١٣ .
- أحببتُ حمارًا روايتها الأولى .